

الأدب الصهيوني بين حربين

حزيران ١٩٦٧ وتشرين ١٩٧٣

الأدب الصّهيوني بين حربين

حزيران ١٩٦٧ - تشرين ١٩٧٣

الدكتور ابراهيم البحراوي

مدرّس الأدب العبري
بجامعة عين شمس - القاهرة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب [illegible] - تلفون [illegible]
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى : حزيران (يونيو) ١٩٧٧

الـدراسة

١ – مغزى دراسة الظاهرة الأدبية الصهيونية .

٢ – حول طبيعة الظاهرة الأدبية في الكيان الصهيوني والشروط المنهجية اللازمة لبحثها .

٣ – الأديب الصهيوني بين البراءة الزائفة والأحزان الموضعية .

أ ـ مغزى دراسة الظاهرة الأدبية الصهيونية

ـ الادب والتعرف على المجتمعات المعادية

ليس هناك أي نوع من الشك يخامر جمهرة الباحثين في تواريخ المجتمعات القديمة من النواحي المختلفة سياسية كانت أم اجتماعية أم فكرية .. في أن الأدب يمثل واحداً من أهم وأوثق السجلات المعرفية التي يمكن الاستناد اليها في استقاء المعلومات عن التكوينات الباطنة في مجتمع من المجتمعات والتي يصعب في أحيان كثيرة رصدها عبر سائر المصادر المعرفية المباشرة من كتابات سياسية واجتماعية وفلسفية وما شاكلها .

ولعل هذا الاجماع من قبل الباحثين في تواريخ المجتمعات على هذا الموقف .. يرجع إلى أسباب عديدة تتعلق بطبيعة العملية الأدبية سواء ما يتعلق منها بطبيعة الأديب كفنان أو ما يتصل بامكانات التعبير في العمل الأدبي ذاته ..

ويمكن أن نحدد أهم هذه الأسباب في عجالتنا فيما يلي :

١ ـ ان الأديب بوصفه فناناً أي كائناً ذا حساسية شعورية خاصة .. مؤهل بهذه الحساسية لالتقاط خفايا الحركة الباطنة من محيط المجتمع وتسمع نبضاتها الهامسة .. عبر أذن رادارية وعين مجهرية لا يحوزهما غير الفنان من المستمعين أو المراقبين . الأمر الذي يوفر للعمل الأدبي ثراء وفيراً من الحقائق والمعلومات التي يمكن للباحثين التقاطها وجمعها وتنسيقها وربطها بمعارفهم السابقة عن الواقع الاجتماعي موضوع العمل الأدبي ومحل البحث .

٢ – ان الأديب خلافاً للفيلسوف والمفكر الاجتماعي والسياسي •• مزود بقدرة خاصة على التعبير عن وجهات نظره في اشكال رمزية وضبابية مغلفة . الأمر الذي يتيح له الافلات من قيود التعبير التي قد تفرضها في بعض المجتمعات السلطة السياسية أو صرامة المعتقدات السائدة ضد وجهات النظر المعارضة أو المجددة •

٣ – ان الأديب لا يملك بحكم طبيعة العمل الأدبي ذاته .. أن يطمس الحقائق السياسية والاجتماعية أو الاتجاهات النفسية الاجتماعية الباطنة في المحيط الشعبي •• إذا ما وضع عمله الأدبي في خدمة السلطة القائمة أو بنيان المعتقدات السائدة .. ذلك أنه يضطر في سياق دفاعه عن أوضاع معينة إلى الاشارة الضمنية إلى الحقائق والميول التي يدافع ضدها. كما أنه إذا نصب من عمله الأدبي نوعاً من العلاج والتضميد لمشكلات نفسية شائعة بين الناس في المجتمع تهدد بوجودها النموذج السياسي أو الاجتماعي المسيطر .. كشف في سياق عمله الأدبي عن طبيعة هذه المشكلات حتى وان لم يشر اليها على نحو صريح أو ضمني وراح ينشىء في بطله الأدبي نموذجاً نفسياً يعظه ويدعو اليه ..

ذلك ان ملامح البطل الأدبي التي يدعو إليها الاديب في عمله تكشف عن نقيضها في الواقع وتسمح للباحث بمطابقتها على ما يعرفه من مصادر أخرى عن الواقع النفسي الشائع في المجتمع موضع البحث .

لكل هذه الاسباب ولغيرها نلاحظ كل هذا الاعتماد الكبير في دراسة المجتمعات القديمة على الوثيقة الادبية في استكمال المعلومات عن حقيقة الموقف الشعبي والتيارات الباطنة في المجتمعات والتي تحرص مصادر التاريخ الرسمية على طمسها واهالة الضباب عليها.

ونتيجة لازدياد الثقة بالوثيقة الأدبية وجدارتها فقد اتجهت مجموعات من الباحثين في أوضاع المجتمعات الحديثة والمعاصرة إلى الاعتماد على الظاهرة الأدبية في الكشف عن مختلف الأوضاع في هذه المجتمعات .. ومع مرور الوقت تطور هذا الاعتماد وتبلور عنه اتجاه نحو دراسة المجتمعات المعادية والتعرف عليها عبر الوثيقة الأدبية .. على نحو مثمر وفعال أدى بأجهزة المخابرات في العالم المعاصر إلى الاهتمام الشديد بدراسة آداب المجتمعات المعادية على مستوى البحث الاجتماعي للظاهرة الأدبية .

ولعل أبرز المحاولات المعاصرة في هذا الصدد ••هي تلك المحاولات الأمريكية لدراسة

الأدب الياباني خلال الحرب العالمية الثانية .

ذلك أن أجهزة المخابرات الأمريكية كانت في حالة من الغفلة التامة عن دراسة المجتمع الياباني قبل الحرب .. وما أن فاجأت اليابان بدخول الحرب .. حتى شعرت أجهزة المخابرات الأمريكية بشدة عوزها إلى المعلومات المتعلقة بالشخصية اليابانية المحاربة من ناحية وبحاجتها إلى التعرف على قوانين الترابط الاجتماعي في المجتمع الياباني بقصد الوصول إلى تفسير أنماط السلوك العام أثناء الحرب وتحديد الثغرات التي يمكن عن طريقها النيل من حقيقة التماسك الاجتماعي والنفسي في المجتمع الياباني .

ونتيجة لوقوع حالة الحرب واستحالة التعرف المباشر .. اوكلت المخابرات الأمريكية إلى عدد من اساتذة الأدب الياباني بالجامعات الأمريكية مهمة دراسة الواقع الاجتماعي والنموذج النفسي عبر التحليل الاجتماعي للأعمال الأدبية اليابانية .

كذلك أولت المخابرات الأمريكية اهتماماً كبيراً بدراسة الواقع السوفيتي خلال الفترة الستالينية .. ومن الدراسات الشهيرة التي أجراها باحثون أمريكيون للأدب السوفيتي في اطار هذا الاهتمام .. تلك الدراسة التي تقدم بها بول هولندر لنيل الدكتوراة تحت عنوان : (نماذج السلوك في الأدب السوفيتي الستاليني .. دراسة عبر أدبية للقيم والضوابط في المجتمع الديكتاتوري) . « The American Sociological Review , June 1966 »

وقد اثبت هولندر في صدر بحثه أن وجهة النظر التي وجهته في البحث هي أن ظروف المجتمعات الديكتاتورية نادراً ما تسمح بدراسة موضوعية أو وصف للأفكار الاجتماعية والقيم الرسمية فيها ومن ثم فإنه من الضروري استخدام الأدب في مثل هذه المجتمعات للتعرف على هذه الافكار والقيم باعتباره أحد المصادر الرئيسية التي يمكن أن تقدم المعلومات في هذا الصدد .

ومن المثلين السابقين في الدراسات الأمريكية لدراسة المجتمعات المعادية عن بعد عبر الأدب يمكننا أن نلاحظ امكانية الوثيقة الادبية في تزويدنا بالمعلومات المطلوبة في اتجاهين :

أ - اتجاه التعرف على الواقع الشعبي وقوانين الترابط الاجتماعي والانماط النفسية الاجتماعية الشائعة .

ب - اتجاه التعرف على القيم الرسمية التي تبثها في العمل الادبي الايديولوجية السائدة في المجتمع والتي تعكس موقف السلطة فيه .

وهو الامر الذي يسمح بدراسة واقع الصراع القيمي والاجتماعي في المجتمع المعادي بين الايديولوجية السائدة التي تمثل السلطة الاجتماعية والسياسية القائمة وبين الاتجاهات القيمية والمواقف الاجتماعية والسياسية المناقضة لهذه الايديولوجية .. عبر المرآة الادبية .

الامر الذي يضيف مزيداً من المعرفة بالواقع المعادي وطبيعة الديناميات الاجتماعية والسياسية الفاعلة فيه والتي تؤثر على تحركاته وتوجهاته الخارجية .

ولقد انتبهت الاجهزة الفكرية الاستخبارية في الواقع الاسرائيلي إلى هذه الحقيقة منذ وقت مبكر .. ومن هنا نلاحظ كل ذلك الاهتمام المتزايد بدراسة الادب العربي على اتساعه .. بالاضافة إلى العناية بترجمة ونشر النصوص الادبية العربية لتكون في متناول من يشاء من الباحثين الاسرائيليين المهتمين بدراسة الجوانب الاجتماعية والنفسية في المجتمعات العربية .

ولعله يكفينا أن نشير هنا على سبيل المثال بالغ الدلالة .. إلى تلك الترجمة العبرية المبكرة التي أنجزها أبا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق لابداعية توفيق الحكيم (يوميات نائب في الارياف) .. الامر الذي يعكس مدى الاهتمام الرسمي الاسرائيلي بالتعرف على أعماق المجتمع المصري في بعده الريفي بالاضافة إلى الاهتمام بالتعرف على الواقع الاجتماعي الحضري الذي يعبر عن نفسه في الترجمة المستمرة لاعمال نجيب محفوظ وغيره من الروائيين المصريين ممن تدور أعمالهم حول حياة المدينة .

وليس هناك من شك في أن مغزى هذا الاهتمام بدراسة آداب المجتمعات العربية على الجانب الإسرائيلي إنما ينبثق عن الرغبة في التعرف على المجتمع المعادي والكشف عن دينامياته الاجتماعية والسياسية عبر الوثيقة الادبية .

ولقد بدأ الاهتمام العربي بدراسة الأدب في الواقع الاسرائيلي المعادي في وقت متأخر وربما كان ما أيقظ هذا الاهتمام هو حجم الهزيمة العسكرية التي وقعت بالعرب عام ١٩٦٧.. فبعد ذلك التاريخ بدأ اهتمام شخصي لدى بعض طلاب الدراسات العليا بأقسام اللغة العبرية بالجامعات المصرية بتوجيه بحوثهم نحو دراسة الظاهرة الأدبية المعاصرة في اسرائيل . بالاضافة إلى اهتمام بعض دارسي اللغة الانجليزية بتوجيه بحوثهم الجامعية نحو دراسة الأعمال الأدبية الاسرائيلية المكتوبة في الانجليزية ..

ونتيجة لهذا الاهتمام الشخصي المحدود تولد اهتمام عام في أوساط الثقافة العربية بتتبع الظاهرة الأدبية في اسرائيل وتمخضت عن هذا الاهتمام بعض الدراسات المحدودة اعتمد بعضها على نصوص شعرية ونصوص من القصة القصيرة المكتوبة بالعبرية . واعتمد بعضها الآخر على نصوص روائية مكتوبة بالانجليزية ..

غير أن حصيلة هذه الجهود المتناثرة ما زالت دون المستوى الواجب من الاهتمام .. خاصة وأن معظم مراكز البحث العلمي المختصة بدراسة اسرائيل في العالم العربي .. توجه جهودها الرئيسية نحو دراسة الأوضاع اليومية الجارية في الحياة الاسرائيلية استناداً إلى المصادر السياسية والاجتماعية المباشرة .. في الوقت الذي تعاني فيها أقسام الدراسات العبرية في الجامعات العربية من فقر شديد في مصادر البحث الضرورية ...

ولقد شاء الحظ الحسن بالنسبة لهذا الفرع من الدراسات أن أولى مركز الدراسات الفلسطينية التابع لجامعة بغداد اهتمامه نحو هذا الموضوع الحيوي .. فعمل على استقدام صاحب هذا الكتاب لوضع مشروع متكامل لدراسة الظاهرة الأدبية في اسرائيل يساهم فيه عدد كبير من دارسي العبرية والدراسين الاجتماعيين والنفسيين العرب ..

ويقوم مشروع البحث على التناول الاجتماعي للظاهرة الأدبية الاسرائيلية .. خاصة في فن الرواية العبرية .. تحت عنوان :

« الاتجاهات والقيم السياسية والاجتماعية وانماط السلوك الاجتماعي في الفن الروائي الاسرائيلي » .

— دراسة حالة مقارنة بين الاتجاهات والقيم وأنماط السلوك التي تعكسها نماذج ممثلة للفن الروائي الاسرائيلي في مرحلتين اجتماعيتين :

أ ــ مرحلة المجتمع الايديولوجي   ب ــ مرحلة التبلور الاجتماعي والاستقطاب الطبقي .

وفي اطار هذا المشروع فإن عدداً كبيراً من نماذج الرواية العبرية ستتم ترجمته ونشره على حدة ليكون في متناول من يشاء من الباحثين العرب المهتمين بدراسة الظواهر الاجتماعية والنفسية داخل الكيان الصهيوني .. فضلاً عن نشر البحث المتكامل ذاته في مجلد خاص وعلى حدة .

ولعل هذا المشروع يعوض باتساعه وضخامة الحيز الأدبي الذي يخضعه للدراسة ذلك التخلف الذي ميز موقف البحث العربي في دراسة المجتمع المعادي .

ولعلنا نكون بهذه العجالة التمهيدية نكون قد بينا للقارىء مغزى الاهتمام العربي بدراسة الظاهرة الأدبية المعادية والقيمة المعرفية والنضالية التي تنبني على هذا الاهتمام .

ب ــ حول طبيعة الظاهرة الادبية في الكيان الصهيوني والشروط المنهجية اللازمة لبحثها .

من القواعد المستقرة في مجال البحث المعرفي قاعدة تلزم الباحث بوضع طبيعة الموضوع محل البحث موضع الاعتبار مراعاة للشروط المنهجية الخاصة التي تتسق مع هذه الطبيعة والمشكلات المتصلة بها ضماناً لسلامة اجراءات البحث وصواب نتائجه .

ولقد لاحظنا أن الظاهرة الأدبية في الكيـــان الصهيوني تستهوي عدداً متزايداً من المثقفين العرب ومن طلاب الدراسات العليـا بأقسام اللغة العبرية بالجامعات العربية .. كما لاحظنا في نفس الوقت أن عدداً من الدراسات التي تمت في هذا المضمار قد وصل أصحابها إلى مواقف لا يحسدون عليها على معيار التقييم المنهجي الموضوعي سواء من حيث الانزلاق إلى موقف التسليم بالمفاهيم الصهيونية الواردة في سياق الأعمال الأدبية والسقوط في المصيدة التي ينصبها قاموس النقد الأدبي الصهيوني [1] ؛ أو من حيث الانزلاق إلى موقف المبالغة في تفسير الأعمال الأدبية خاصة تلك التي تكشف مضامينها عن نوع من التوتر الداخلي في نمط الحياة بالكيـــان الصهيوني أو تلك التي تلقي ضوءاً على بعض زوايا التمرد والقلق النفسي أو الفكري في هذه الحياة .. الأمر الذي يصل ببعض الباحثين العرب إلى تصور الأديب الصهيوني المعادي على أنه كائن فكري معاد لأصول الواقع الصهيوني وواصل

---

(١) يظهر هذا الموقف على نحو خاص في معظم الرسائل المقدمة لنيل درجة الماجستير بأقسام اللغة العبرية بالجامعات المصرية .

إلى القناعات العربية ببطلان هذا الواقع ومعاداته للتاريخ وسعادة الفرد اليهودي [1] .

وإذا كان يمكن تفسير الموقف الأول بضعف الثقافة لدى طلاب الدراسات العليا وتفسير الموقف الثاني على أنه نوع من التفسير بالمرغوب .. فإنه يمكن تفسير الموقفين معاً على أنها نتيجة لعدم مراعاة الشروط المنهجية الأولية اللازمة لبحث الظاهرة الأدبية في الكيان الصهيوني وهي الشروط المنبثقة عن طبيعة هذه الظاهرة كموضوع مطروح للبحث .

ونظراً لأهمية هذه الزاوية ومركزيتها فلقد رأينا أن نقدم نوعاً من الوصف العام للظاهرة الأدبية في الكيان الصهيوني وصولاً إلى تحديد الشروط الأولية اللازمة لبحثها.

أبعاد الظاهرة الأدبية
في الكيان الصهيوني

ليست الظاهرة الأدبية في الكيان الصهيوني سوى جزء من ظاهرة كلية هي ظاهرة التشكل الاجتماعي والايديولوجي فيه .. وفي هذا فإن ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء .. ولعل أهم الأبعاد التي ينبغي رصدها بشأن الظاهرة الكلية مما ينعكس على الظاهرة الأدبية ما يلي :

١ - إن بناء الايديولوجية الصهيونية السائد في المجتمع الاسرائيلي سابق في وجوده على البناء الاجتماعي ذاته .. الأمر الذي يعني ان هذا المجتمع قد نشأ وتكون تحت مظلة ايديولوجية فلسفية سياسية تحكم وتضبط دينامياته الداخلية وتعمل على عزل أي بناء فكري معارض أو مناقض .

٢ - ان البناء الهيكلي العام للأدب العبري كان منذ ما قبل مرحلة انشاء المجتمع الصهيوني جزءاً من البناء الأيديولوجي الصهيوني السائد وواحدة من أدوات التبشير الايديولوجي وآلة من آلات التوجيه القيمي والنفسي للقارىء في إطار البرامج العملية للايديولوجية النظرية .

---

(١) (إن الحركة الدائرية من غبار إلى غبار توحي بأن ياردينا نفسها كانت طيلة الوقت ميتة روحياً وان المدينة الجديدة باطل الأباطيل) . د. هاني الراهب ، مجلة الموقف الأدبي العدد (١) السنة الرابعة مايو ١٩٧٤ . في تقديمه لرواية غبار ليائيل ديان .

٣ – إن أجهزة الضبط الأيديولوجي التي تعمـــل على عزل أو احتواء الاتجاهات الفكرية المعارضة والمناقضة .. تمارس دورها تجاه الظاهرة الأدبية سواء من حيث اغراء الكتاب واحتوائهم في اطـار الرؤية الايديولوجية أو من حيث التضييق على الاتجاهات الأدبية المعارضة والعمل على حجبها عن الصدور أو هدمها عن طريق النقـد إذا أفلتت من قيود النشر .

٤ – ان بناء الايديولوجية الصهيونية يستمد براهين اثباته ويكتسب قوة تصديقه في المجتمع عبر الصياغة الفكرية الخاصة لوقائع وأحداث الصراع مـع العرب .. سواء فيما يتعلق بمقولة معاداة السامية التي تجد في التفسير الخاص للعداء العربي اثباتاً لصوابها أو فيما يتعلق بمقولة الشعب اليهودي الواحد التي تجد في الهجرة متعددة الأجناس برهاناً على صدقها أو فيما يتعلق بمقولة الأرض التاريخية التي تجد في استجابة الجغرافية العربية الرخوة للفتوحات الصهيونية مصداقاً لصوابهـا .. وهي المقولات الثلاث الأساسية التي تكون البنية الجوهرية للايديولوجية الصهيونية .

٥ – إن الأدب العبري وغـــير العبري في الكيان الصهيوني يتعامل في مجموعه مع وقائع واحداث الصراع مع العرب وملابساته المتطورة على أساس المقولات الصهيونية ولا ينفصل عنها .

٦ – إن المجتمع الصهيوني قـد دخل في مرحلة التبلور الاجتماعي في شكل مجتمع رأسمالي استهلاكي وبدأت تنمو فيه ملامح الاستقطاب الطبقي بكل ما يترتب عليها من نمو ميول التمرد النفسي الاجتماعي وظهور أشكال متناقضة من الوعي الطبقي لا تتناقض مع ذلك في مجملها مع البناء الايديولوجي الصهيوني في مقولاته الأساسية .

٧ – ان الأدب في هذا المجتمع يعكس في قطاع منه حالات التمرد النفسي الاجتماعي وظواهرها دونما مساس بالسقف الايديولوجي الصهيوني .

٨ – ان المجتمع الصهيوني يعاني نتيجة لاستمرار الصراع العسكري من حالة ارهاق نفسي عام ويعيش تحت ضغط مستمر من التوتر وافتقـــاد أحاسيس الطمأنينة دون أن تؤدي هذه الحالة نتيجة لتحدد الخطر الخارجي وضآلته على نحو عام إلى إعادة النظر في مناظير الرؤية الصهيونية للصراع وأصوله وأشكال حلوله .

٩ – ان الأدب يعكس في قطاع واسع منـه حالة الارهاق والمعاناة النفسية هذه على نحو موضعي لا يتجاوز التعبير عن الأحزان والآلام إلى معاودة النظـر في المقولات الصهيونية وتحديها في محاولة البحث عن معنى الطمأنينة والسلام .

١٠ – ان المجتمع الصهيوني قـد أفرز في السنوات الأخيرة حركات يسارية محدودة القوة التأثيرية وقليلة العدد تمتلك نظرة راديكالية في معاداة المقولات الصهيونية .

١١– ان الأدب في الكيان الصهيوني لم يعكس في شيء رؤية هذه الجماعات الراديكالية المطاردة على المستوى السياسي والمستوى البدني .

في ضوء هـذه الأبعاد التي تكون طبيعة الظاهرة الأدبية المعادية وتكشف عن زوايا ارتباطهـا بالواقع المعاشي في مستوييه الايديولوجي والاجتماعي يمكننا أن نستخلص الشروط المنهجية الأولية الملزمة لكل من يتصدى لدراسة هذه الظاهرة الأدبية .

ولعل أول هذه الشروط هو شرط الرؤية الشاملة . ذلك انه يستحيل التعامل النقدي مع أي قطعة أدبية منتمية إلى هذه الظاهرة دون ملاحظة درجة تشابكها مع البنـاء الايديولوجي أو احدى الظواهر الاجتماعية الواقعة تحت سيطرته وقدراته على الضبط .

ويتمثـل الشرط الثاني في الموقف الفلسفي . فليس لباحث أن يقوم على دراسة أدب يقوم في غالبيته العظمى على مفاهيم فلسفية سياسية دون أن يحوز هـذا الباحث قدراً من المعرفة الفلسفية الوافية بمدارس التفكير الفلسفي المختلفة ليكون في مقدوره رصد المقولات الفلسفية الأصولية وما يتفرع عنها في الظاهرة محل البحث خاصة وأن المفاهيم الفلسفية تعبر عن نفسها في الشكل الأدبي على نحو مستتر وملغز الأمر الذي يتطلب دراسة بالمفهوم الفلسفي المجرد في حد ذاته بالاضافة إلى مقدرة على استخلاصه من ثنايا المواقف والصور التي يتمين عليها في العمل الأدبي .

فإذا ما أضفنـا إلى هـذا أن البناء الفلسفي الصهيوني يتميز بقدرة على التلون توحي للناظر بتعدد مذاهبه ومدارسه لاكتشفنا الأهمية المضاعفة لضرورة حيازة الموقف الفلسفي الذي يكفل للدارس القدرة على تجاوز التفريعات الثانوية والإمساك بالتكوينات الفلسفية الأساسية التي تحكم هذه التفريعات على اختلاف ألوانها .

ولنضرب على ذلك مثالين للايضاح :

من المعروف أن الأسطورة الدينية الممثلة في وعد يهوه لابراهيم العبري التوراة .. تمثل أحد مرتكزات الايديولوجية الصهيونية في إنشاء علاقة ملكية تاريخية بين المجموعات اليهودية في العالم والأرض العربية .

وقد يعرض للباحث ضرب من الأعمال الأدبية تمجد طابع الحياة الديني وتكشف عن الاحتفـــال بالقيم الدينية .

ثم تعرض له أعمـــال ذات لون آخر تكشف من جانب كاتبهـا عن موقف الرفض لطابع الحياة الدينية وتسفيه القيم التي تؤسس عليها .

فيذهب الباحث إلى اعتبـار النوع الأول من الأعمال الأدبية صهيوني النزعة استناداً إلى اتساقه مع الموقف الديني الذي تنبثق عنه الأسطورة .. ويكون في هذا مصيباً . ثم يذهب بالتالي إلى اعتبار النوع الثاني محاولة أدبية للجنوح عن المفاهيم الصهيونية استناداً إلى معاداة العمل للقيمة الدينية التي هي مصدر الأسطورة . ويخلص الباحث من هـذه النتيجة المحدودة إلى نتيجة عامة هي أن الاتجاه اللاديني يمكن أن يكـون مقدمة للانسلاخ عن المفاهيم الغيبية الصهيونية عبر خلق عقلية علمانية في الكيان الكهنوتي .

وهنا يقع الخطأ المزدوج .

ذلك ان رفض الأديب الصهيوني للقيمة الدينية وسيادة الطابع الديني على الحياة لايعني بالضرورة رفضه لمنطق الأسطورة الدينية التي يبنى عليها سياق التاريخ الصهيوني .

كذلك فإن المنحى اللاديني لدى الأديب لايعني تحوله إلى موقف عقلاني أوعلماني .. ذلك أن معيار هذا الموقف لا يتمثل في رفض الأشكال الدينية بقدر ما يتمثل في رفض انماط التفكير الغيبي وأحكامه المطلقة .

فإذا ما وضعنا في حسباننا حقيقة أن نمط التفكير الصهيوني هو نمط غيبي من حيث أحكامه المطلقة التي تقضي بإلغاء التاريخ الحقيقي للأرض العربية من ناحيـة وللجماعات اليهودية في عوالمها المختلفة من ناحية أخرى والعودة إلى نقطة زمنية سحيقة تجاوزهـا التاريخ المتمين بقصد فرضها من جديد على الأرض وأصحابها التاريخيين وعلى المجموعات اليهودية في نفس الوقت .. لاكتشفنا أن هذا النمط الفكري نمط أسطوري معاد للمنحى العقلاني في التفكير وأن تمسكه بالطابع الديني للحياة أو رفضه له لا يعني شيئاً بالنسبة

لحقيقته الأسطورية المعادية للعقل .. أي بالنسبة لحقيقته الصهيونية .

ولنصرب مثالاً ثانياً لتوضيح أهمية الموقف الفلسفي في دراسة الظاهرة الأدبية المعادية.

يستخدم النقد الصهيوني مصطلح (سفروت هشوآه) لتصنيف قطاع بالغ الضخامة الكمية من الأدب المكتوب بالعبرية وغيرها من اللغات يتناول تجارب العذاب اليهودية على أيدي النازيين . والترجمة الدقيقة للمصطلح هي (أدب النكبة) وقد اتسع مدلول هذا المصطلح فأصبح يشير إلى جميع الأعمال الأدبية التي تتناول أي نوع من تجارب الاضطهاد ضد الجماعات اليهودية في أي بقعه جغرافية أو فترة تاريخية .

وعندما يتعرض باحث لهذا النوع من الكتابة الأدبية مجرداً من الموقف الفلسفي فإنه يجد نفسه في حالة من التصديق لشحنة الانفعال الميلودرامية التي يحملها هـذا النوع من الكتابات ويجد نفسه منساقاً إلى اعتبار هذه الأعمال نوعاً من الانفعال الذاتي من قبل الأديب الصهيوني بحالة العذاب التي لقيتها الجماعات اليهودية في فترات تاريخية مختلفة . بل ويجد نفسه نتيجة لتصديق الشحنة الانفعالية واقعاً في إسار الرؤية العامة التي تحكم هذا النوع من الأدب والتي تشير إلى أن العذاب قدر لا ينجو منه كل من ولدته يهودية أينما كان موقعه الجغرافي أو الزمني .

وفي نفس الوقت يجد الباحث نفسه أمام نوع آخر من الكتابة الأدبية الشائعة يقدم نماذج من البطولات القتالية اليهودية في كل العصور ويعلق بالشخصيات سمات الاقدام والجسارة ورفض الاستسلام وتفضيل الانتحار على الوقوع في أيدي الخصوم والأعداء .

ومرة أخرى يجد الباحث نفسه في حالة التجرد من الموقف الفلسفي منساقاً إلى السقوط في أحابيل المصطلح النقدي الصهيوني الذي يصنف هذا النوع من الكتابات بمصطلح (أدب المقاومة اليهودية) .

الأمر الذي يحمل الباحث على التعامل مع هذه الكتابات على أنها نوع من الكتابات الأدبية ذات الطابع التاريخي .

وتكون المحصلة النهائية أن يقدم لنا الباحث (أدب النكبة) و (أدب المقاومة) كلا منها على حدة باعتبار كل منها وحدة أدبية مستقلة تعكس خبرة مختلفة في حياة المجموعات اليهودية .

في حين أن الباحث المزود بموقف فلسفي يستطيع أن يكتشف أن هذين القطاعين الأدبيين ليسا سوى ترجمة أدبية للمقولة الصهيونية في معادلة السامية .

يجسد أولها (أدب النكبة) جانب الوصف في المقولة بينما يجسد ثانيها (أدب المقاومة اليهودية) جانب الحل فيها .. وهو الأمر الذي نعرض له بمزيد من الإيضاح والتفصيل في موقع آخر من هذه الدراسة .

ويتمثل الشرط المنهجي الثالث والضروري لدراسة الظاهرة الأدبية في الكيان الصهيوني في شرط القياس النسبي للمواقف والشخصيات السلبية في العمل الأدبي . ذلك أنه لا ينبغي للدارس العربي أن يعتبر اتجاهات الاغتراب أو العزلة الفردية واليأس تعبيراً عن الانفصال عن الموقف الايديولوجي الصهيوني ورفض الوجود الإسرائيلي والتهيؤ للانحياز إلى الرؤية العربية في قياسه .. بل ينبغي أن تؤخذ هذه الاتجاهات الأدبيةعلى أنها نوع من التمرد الداخلي الناتج عن مشكلات الحياة في مجتمع يمر بمرحلة التبلور الاجتماعي بكل ما تحمله المرحلة من اضطراب وقلق يضاف إليه القلق الناتج عن الوضع الأمني المتولد عن الصراع الخارجي .

وبالتالي فليس لنا أن نخلع رؤيتنا المرغوبة على المواقف والشخصيات السلبية التي تقدمها التجربة الأدبية الصهيونية فنذهب إلى اعتبارها مواقف وشخصيات توصلت بفعل معاناتها في الحياة الداخلية إلى الاقتناع برؤيتنا المعادية لوجودها المؤسس على جوهر صهيوني .

ح - الاديب الصهيوني بين البراءة الزائفة والاحزان الموضعية

يقع دارسي الادب العبرى أسير الحالة من الحيرة والدهشة لدى اطلاعه على اتجاهات هذا الأدب بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ومحاولته ايجاد علاقة انعكاس وتأثر تربط بين الاتجاهات العامة في هذا الادب وبين التغيرات التي أحدثتها هذه الحرب .

وذلك ان جماع التقارير الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية التي كتبها باحثون عرب أو أجانب أو صهاينة تفيد أن هزة شديدة قد لحقت بجوانب الحياة الاسرائيلية المختلفة نتيجة لهذه الحرب وتدل على أن قدراً هائلا من التغيير والاختلاف قد طرأ على أوضاع هذه الحياة [١] .

فقد اهتز الاستقرار السياسي وعبر هذا الاهتزاز عن نفسه في حركة واسعة من الخلافات والانشقاقات بين الكتل السياسية وفي ظهور حركات جماهيرية تحمل رايات التغيير السياسي وشعاراته .

وقد تفاقمت الازمات الاقتصادية وعبر هذا التفاقم عن نفسه في اختلال شديد لحق

---

(١) أنظر على سبيل المثال المصادر التالية :

أ ـ اليهود بعد الحرب ـ اسرائيل تتجه إلى الخارج ، تأليف مجموعة من الباحثين الإسرائيليين .. ترجمة واصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب ، اكتوبر ١٩٧٥ .

ب ـ حلمي الزعبي ، حرب تشرين وأثرها على مجمل الأوضاع في اسرائيل .. مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد . المجلد الرابع ، العدد الثاني . آب ١٩٧٥ .

بميزان المدفوعات وفي سلسلة مستمرةمن ارتفاع الاسعار وقرارات متتالية لتخفيض قيمة العملة إلى آخر ذلك من مظاهر الازمة الاقتصادية الحادة .

وقد تخلخلت أوضاع البناء الاجتماعي وعبر هذا التخلخل عن نفسه في انتفاضات الاحتجاج على التدهور الاقتصادي وما يفرضه من أعباء على الطبقات الفقيرة وفي زيادة معدلات النزوح إلى الخارج وفي نزعات التفكك الاجتماعي والتهرب من الالتزام بأوجه الخدمة العامة مثل التجنيد وغير ذلك .

وقد اعترت النموذج النفسي الشائع صدمة عبرت عن نفسها في حالات الانهيار النفسي والعصبي على مستوى واسع وفي تفشي حالات إدمان المخدرات والمغيبات بين الشباب .

وقد تعرض كثير من المسلمات إلى حالة من التشكك مثل مسلمة القوة العسكرية التي لا تقهر ومسلمة الخصم العربي المتخلف الهش القادر على التهديد اللفظي والعاجز عن التهديد الفعلي .

وقد لحقت بالنموذج الفكري الصهيوني الذي يصوغ الموقف من العرب والأرض العربية ارتعاشة أثارت موجة من المراجعات الفكرية من كبار المفكرين الصهاينة .. وبدأت تظهر في المصادر الصهيونية الرسمية تأملات فلسفية من نوع جديد تطرح أسئلة من نوع السؤال التالي :

« هل كانت الأيديولوجية الصهيونية في أساسها أيديولوجية عنف وأنانية قومية أم كانت أيديولوجية تسعى إلى العدل وتنشد التفاهم مع شعوب العالم بما في ذلك الشعوب العربية »[1] .

وراحت تطرح توصيفات للوضع الأيديولوجي السائد في المجتمع من نوع التوصيفة التالية للكاتب عاموس أيلون :

« هناك أزمة ضمير واحساس بالذنب بين جماهير الشباب .. ذلك أنه يشيع بينهم خوف

---

(١) دوق بارنير ، الصهيونية بعد حرب يوم الغفران ، عرض نقدي لمقالات العدد ٦٨/١٧ من مجلة (بتفوتسوت هجولاه) الناطقة باسم المنظمة الصهيونية العالمية على همشمار ١٩٧٤/٣/١٠ .

متزايد باطراد من أن تكون الصهيونية غير عادلة من أساسها »[١] .

وقد انتابت النقد الأدبي حـــالة من الحمى الهجومية على الأدباء في غالبيتهم العظمى لاحساسهم باليأس والانكسار النفسي مما ينعكس من أعمالهم الأدبية ويؤثر على جماهير القراء تأثيراً سلبياً .. وعبرت هذه الحمى الهجومية عن نفسها في عدد كبير من مقالات وعبارات النقد اللاذع والاتهام ضد اتجاه الأعمـــال الأدبية الغالبة .. تحمل روح الفقرة التالية للناقد ي . ميخالي :

« لقد أدت الحرب إلى حالة من الارتباك الشديد وهو ارتباك ينسحب على الأدباء كذلك، انني لا أستنكر الحيرة أو الارتباك .. غير أنه لا بد وأن نقرر أن الحائرين المرتبكين ليس في مقدورهم أن يكونوا هداة أو مرشدين للحائرين . إن الأدباء ما زالوا مستمرين في اظهار استجاباتهم تجاه الأحداث التي وقعت كل حسب وجـهة نظره .. وبينهم قلة تجاهد لكي تشجع الشعب وتؤازره في محنته .. غير أن هناك في نفس الوقت آخرين عديدين يضيفون أحزاناً على أحزان . لقد اهتزت ثقتهم اهتزازاً شديداً فراحوا يزرعون اليأس حولنا الأمر الذي ينطوي على خطر شديد يهدد مستقبلنا »[٢] .

لكل هذه العلامات والظواهر الدالة على الاهتزاز العام في الأوضاع العامة وعلى التغير الذي اكتنف أسلوب الرؤية والتعامل مع الواقع الداخـلي والخارجي .. يصاب دارسي الأدب العبري بحالة من الدهشة لدى تصفحه لأعمال الأدباء الاسرائيليين بعد هذه الحرب خاصة في باب الانتاج الشعري .

فمن الطبيعي أن يتوقع الباحث في لوحة هذا الانتاج وهو يقبل عليه مسلحاً ومزوداً بكل هذه المعلومات عن التغير .. تحولاً ما في الرؤية الادبية الغالبة عمـــا كانت عليه في الفترة السابقة على هذه الحرب . المفترض أن يلمس الباحث في هذا الادب محاولات أدبية تتوجه نحو اعادة اكتشاف الواقع الاسرائيلي من الداخل وموقع الذات الفردية فيه ..

---

(١) نفس المصدر .

(٢) ي . ميخالي .. اجابة على سؤال في استفتاء بعنوان (حرب يوم الغفران وتأثيرها على المجموع والفرد في اسرائيل) ، على همشمار ٥/٤/١٩٧٤ ص ١٥

وأن يلمح تجارب أدبية وشعرية تجاهد لإعادة صياغة منظور الرؤية لعلاقة الذات المكلية (الدولة والمجتمع) بالواقع الخارجي الذي يمثله العرب .

المفترض أن تؤدي الصدمة التي أرعشت المسلمات وأثارت كل هذه الموجـــة من التساؤلات السياسية والتأملات الساخنة والاحزان العميقة إلى صهر الرؤية الادبية الغالبة إلى ما قبل وقوع الحرب واعادة تشكيلها في اطار فلسفي جديد يترجـــم التساؤلات السياسية والتأملات الفكرية إلى صور أدبية تعمقها وتضيف إليها أبعاداً أخلاقية أرق حساً وأكثر رهافة بعد ان انحسرت الاقنعة عن وجه الصهيونية وبدأ التساؤل عن الحقيقة اللا أخلاقية في علاقتها بالعرب .

والمفترض فوق هذا – وكل هذا نفترضه كنتيجة منطقية لنوع التغير الذي حدث – أن تتجه الرؤية الادبية (التي تمثل في كل المجتمعات حصيلة الحركة الواقعية والفكرية في المجتمع) إلى تجاوز الوقع الموضعي للآلام الناجمة عن الحرب وان تحيل الشعور الانفعالي بهذه الآلام إلى طاقة حركة ادراكية واعية تأخذ الاتجاه المعاكس لما كان سائداً إلى قبل هذه الحرب .. اتجاه التساؤل عن مبررات هذا الألم على نحـــو موضوعي متخلص من الأنانية الأيديولوجية يشير إلى دوافع هـــذا الألم الحقيقية ويلمح إلى الطريق التاريخي لتجنبه .

والمفترض ترتيباً على هذا الافتراض وكنتيجة طبيعية متداعية له .. أن تكتسب صورة العربي في الرؤية الأدبية ملامح مختلفة فلا يعود ذلك القاتل المتعطش إلى سفك الدم اليهودي دونما دافع سوى غريزة معاداة السامية .. وأن تتغير بالتالي في هـــذه الرؤية صورة المحـارب الاسرائيلي ذلك الانسان المسالم الذي يضطر إلى القتال والبلاء المجيد فيه دفاعاً عن حياته ووطنه التاريخي ضد موجة الخطر اللاسامي البربري الجديد الذي يمثله العرب .

المفترض إذن كنوع من التداعي والانعكاس المنطقي للتغيرات التي أحدثتها الحرب أن نتوقع هذه الملامح المفترضة في لوحة الانتاج الأدبي الاسرائيلي والشعري منه بوجه خاص . ذلك أن الأدب كما أشرنا قبلاً يمثل على نحو عام مرآة عاكسة لجماع الحركة الفكرية والواقعية العميقة الدائرة في المجتمعات .

غير أننا لا نجد من هذه الانعكاسات المفترضة شيئاً بارزاً ومتبلوراً في مرآة الأدب الاسرائيلي في فن الشعر وفن القصة القصيرة يميزه عن وضعه السابق على وقوع أحداث الحرب وما تلاها من تغيرات وتداعيات . وهذه حـــالة تستوجب الدراسة للعثور على تفسير لها .

وفي محاولة التفسير هذه فان أول اتجاه ممكن للتفسير ينبثق من طبيعة الأدب ذاته .. ذلك أن عملية التمثل الأدبي للأحداث تختلف في طبيعتها عن عملية الاستجابة الفكرية المباشرة فهي تتطلب قدراً من التأمل أعمق يستغرق فترة زمنية أطول حتى يتاح للأديب أن يصهر مرئياته ومسموعاته في شكل فن أدبي ينمو في ذهنه على مهل إلى أن يصل إلى درجة النضج التي تسمح باخراجه في صورته المقروءة .

غير أن مثل هذا الاتجاه في التفسير لا يصح بالنسبة للحالة .. فهناك فترة كافية للتأمل والتمثل الأدبي قد انصرمت منذ وقوع الأحداث ، وإذا لم تكن هذه الفترة التي تتجاوز عامين كافية للتمثل الأدبي في فني الزاوية والمسرح فانها لا شك كافية للاستيعاب في فـن الشعر الذي يتسم بقدرة الاستجابة غير المتباطئة نتيجة لطبيعته كفن غنائي في الاساس تقوم التجربة فيه على حالة انفعال وجدانية ورؤية عامة للواقع الخارجي غير مفصلة ولا مركبة شأن التجربة في الفن الروائي أو المسرحي التي تتطلب تركيباً في الرؤية وتعقيداً في صياغة الشخصيات وأدوارها في المواقف المختلفة .

وبما أن هذا الاتجاه التفسيري الاول لا يناسب الحالة التي نبحثها فإنه لا يعود أمامنا الا اتجاه تفسيري آخر وحيد ينبثق من طبيعة تكوين الرؤية الاساسية التي تحكمت في الادب العبري الصهيوني منذ نشأته . وهو تفسير يقتضينا تقديم نوع من البسط المركز للكشف عن طبيعة المقولات الصهيونية التي تحكمت وما تزال في صياغة رؤية الادباء الاسرائيليين عند قياسهم لطبيعة الوجود اليهودي وعلاقته بالعالم غير اليهودي .

الايديولوجية الصهيونية والادب الاسرائيلي :

لم يكن نجاح الجهود الصهيونية في انشاء اسرائيل عام ١٩٤٨ نقطة تحول في اتجاهات الادب العبري الاساسية إلا من حيث اتجاه قطاع منه إلى الاهـــتمام بمشكلات الصهر

الاجتماعي داخل المجتمع الاسرائيلي . لقد كان هذا النجاح نقطة تأكيد حسية على صدق مقولات الايديولوجية الصهيونية وقابليتها للتحقيق الواقعي في نظر جماهير الصهيونية وبالتالي كان هذا النجاح تثبيتاً لاتجاهات الادب العبري المعاصر السابقة في تصور الذات اليهودية وعلاقتها بالعالم الخارجي والارض العربية .

ذلك أن الادب العبري الذي دخل تحت جناح الحركة الصهيونية السياسية عند نشأتها بل وراح يمهد لها التربة قبل ظهورها منذ عام ١٨٨٠ .. وهو بداية ما يعرف في المصادر الصهيونية بأنه عصر الأحياء القومي اليهودي .. نشأ متشبعاً بفلسفتها ومعبراً عنها سواء في جانبها الوصفي أو في جانب الحلول التي تقدمها لأوضاع الأقليات اليهودية في العالم .

ومن هنا غلبت مقولات هذه الفلسفة ومناظيرها فيتصور الذات والعالم الخارجيعلى الرؤية السائدة في هذا الادب وطبعته بطابعها .

مقولات الفلسفة الأيديولوجية :

تتسم الفلسفة الصهيونية بسمة الفلسفات المثالية المغرقة في الارتباط بأفكار مجردة لا علاقة لها بالواقع التاريخي .. وهي نتيجة لذلك تبعد في التنائي عن الاختيارات التاريخية التي كانت وما تزال مطروحة لحل مشكلة الاقليات اليهودية في المجتمعات الاقطاعية سابقاً والمجتمعات الفاشية لاحقاً .. وهى الاختيارات التى كان يبشر بها منذ ظهور الحركة الصهيونية تطور الحركة التاريخية في المجتمعات البشرية وفي مجتمعات الاضطهاد الاقطاعية فيروسيا القيصريةوشرق أوربا على نحو خاص نحو مراحل اجتماعية اعلى وأكثر تقدماً .

ولو حاولنا أن نخلص بناء الفلسفة الصهيونية من التفريعات العديدة والتفاصيل المزدحمة لوجدنا أن جوهر هذا البناء الفلسفي يقوم على نسق ثلاثي من المقولات المتداخلة المتشابكة في اتساق صوري يحول بين هذا البناء وبين أي نوع آخر من التفكير الفلسفي التاريخي الذي يضع في حياته عند التعرض لمشكلة أو ظاهرة ما بمهمة الوصف ووضع الحلول كل متغيرات الواقع التاريخى الفاعلة والمؤثرة في المشكلة سواء ما هو ظاهر

وراهن منها أو ما هو كامن وقابل للظهور والفعل والتأثير عبر عملية التطور الزمني .

وينصب هذا النسق الفلسفي الصهيوني المكون من مقولات رئيسية ثلاث على وصف علاقة الفرد اليهودي بالعالم الخارجي ثم علاقته بفكرة الوجود اليهودي الكلي ثم علاقة هذا الفرد والوجود الكلي معاً بالأرض العربية على نحو يجعل الحل متضمناً في الوصف نفسه ومنبثقاً على نحو منطقي صوري عنه [١] .

وفيما يتصل بالعلاقة الأولى علاقة الفرد اليهودي والأقليات اليهودية بالعالم الخارجي تتجه المقولة الصهيونية الأولى إلى وصف مشكلة اليهود في المجتمعات الاقطاعية وصفاً معادياً للطريقة العلمية النسبية في ادراك وقائع التاريخ وقياسها . فتسعى إلى تصوير هذه المشكلة على أنها مشكلة أبدية أزلية غير قابلة للتحول أياً كانت مرحلة التطور الاجتماعي البشري فهي مشكلة نابعة من غريزة بشرية اختص بها البشر من غير اليهود تسمى معاداة السامية .

وعلى هذا الاساس يصبح سوء النية والعداء والتربص باليهودي صفات أصيلة في غير اليهود تدفعهم إلى الفتك باليهودي والتنكيل به مع أول فرصة تتاح لذلك . وبالتالي يصبح الحل في نظر المقولة مكوناً من فرعين .. أولهما :ان ينفصل اليهودي عن المجتمعات غير اليهودية ويتجمع مع سائر اليهود في اطار خاص يسيجهم ويقيهم .. وثانيهما : أن يتخلى اليهودي عن موقفه المسالم وأن يتسلح بالعنف ويبادر به كنوع من الوقاية التي تقطع على الآخرين محاولة السبق باغتياله .

أما فيما يتصل بالعلاقة الثانية علاقة اليهودي بنفسه وبالوجود اليهودي الكلي .. فإن المقولة الثانية تتجه إلى وصف وجود الأقليات اليهودية في المجتمعات المختلفة وصفاً يجافي وضع هذا الوجود التاريخي .وهنا يصبح هذا الوجود المتوزع إهداراً لما تسميه المقولة بالتاريخ اليهودي الواحد ونفياً وشتاتاً .

---

(١) أنظر لاستيعاب أكثر تفصيلا لهذا التخليص الفلسفي كتابات المفكرين الصهاينة . أنظر على سبيل المثال .. نصوص من الفكرة الصهيونية مركز الأبحاث الفلسطيني رقم ٢١ من سلسلة كتب فلسطينية .

وبالتالي يصبح الحل المنطقي ضرورة نفي النفي ـ لم الشتات . وفي هذا يصبح الوجود اليهودي المتجمع بمثابة الذات العليا المطلقة التي يتحرك نحوها وفي سبيلها وجود اليهود كأفراد وجماعات وبدون هذا الذات يفقد الفرد والجماعة مغزى وجودهما كيهود .

وفيما يتصل بالعلاقة الثالثة .. علاقة الفرد والوجود الكلي معاً بالأرض العربية .. فإن المقولة الثالثة تتخطى الواقع التاريخي الفلسطيني الذي يجزم بحق الشعب الفلسطيني في أرضه باعتباره تجسيداً لخلاصة التطور السلالي والحضاري على هذه الأرض في امتدادها الزمني البعيد .. وتأتي المقولة مستندة إلى أسطورة دينية (أسطورة الوعد الإلهي لبني إسرائيل بامتلاك فلسطين للأبد) لتنشىء علاقة مطلقة إلى الأبد وإلى الأزل تربط بين كل من ولدته إمرأة يهودية وبين الأرض العربية برباط تسميه المقولة حق الملكية التاريخي .

ولأن المقولة تستند إلى أسطورة – وبناء الأساطير بطبيعته مطاط وقابل لاستيعاب أية اضافات أو زيادات – فإن هذه المقولة تكتسب مطاطية ومرونة الأسطورة في تحديد الرقعة الجغرافية التي تشملها أرض إسرائيل التاريخية هذه .

فهي تبدأ بفلسطين دون الضفة الغربية عندما لا يكون في الإمكان غيرها وتسمى ها آرتس أو يسرائيل أو (ارتس يسرائيل) وعندما تسمح ظروف الاستخدام الامبريالي بمزيد من التمدد الجغرافي في المنطقة العربية تفرز المقولة صفات تابعة لعبارة أرض إسرائيل هذه فتصبح ارتس يسرائيل هجدولاه أي أرض إسرائيل الكبرى أو ارتس يسرائيل هشلماه أي أرض إسرائيل الكاملة ـ ويظل في حوزة المقولة الأسطورة دائماً افراز صفات جديدة تابعة توائم الظروف المتغيرة من حيث امكانيات التمدد والانكماش الجغرافي .

تشبع الأدب العبري الحديث إذن بهذه المقولات الزائفة المجردة منذ البداية وراح يصطنع أساليب التعبير الفني عنها .. فظهر أدب الرواية التاريخية التي تسعى إلى إحياء الحياة العبرية القديمة وظهر أدب التراث الذي يسعى إلى تمجيد تراث الحياة اليهودية المقفلة في الجيتو باعتباره الحصن الذي وقى الشخصية اليهودية من التحلل والذوبان .. وظهر أدب المقاومة اليهودية الذي يهدف إلى خلق نموذج الصهيوني المقاتل .. وظهر أدب النكبة الذي يؤكد على المعنى الغريزي لحالات الاضطهاد ضد اليهود ـ وظهر أدب الارتباط بالأرض الذي يرمي إلى تأكيد مقولة الملكية التاريخية .. وغير ذلك من أساليب التعبير

الأدبي المحكومة في انبثاقها عن المقولات الصهيونية الثلاث والعاملة في خدمتها وتأكيدها في نفس الوقت .

وعندما أنشئت إسرائيل كان ذلك علامــة على صواب المقولات وقدرتها على فرض نفسها على الواقع .. ومن هنا واصل الادب العبري بعد قيامها السير في نفس الدروب التي شقها له أدب الاحياء القومي اليهودي كما يسمى . وعبر الاحتكاك بالواقع العربي اكتسبت المقولات معاني متعينة جديدة وانعكست هذه المعاني بالتالي في المرآة الادبية .

فقد وجدت المقولة الأولى – مقولة العداء الغريزي للسامية – في ظواهر الرفض والمقاومة العربية اثباتاً مزيفاً لصوابها .. ومن هنا أصبح العربي في صفحة المرآة الأدبية وحشاً لا سامياً جديداً وأصبحت مبادرة الدروع الإسرائيلية إلى اغتياله ضرورة إنسانية وتاريخية لوقف محاولات إبادة اليهود ..

ووجدت المقولة الثانية في هذا التصوير بالتالي مبرراً لثباتها في الرؤية الأدبية ومن هنا أصبح تدعيم الوجود اليهودي الكلي وتجميع سائر (المنفيين) ضرورة دفاع ذاتي فوق كونها ضرورة تاريخية .

ووجدت المقولة الثالثة أرضاً متعينة ترتبط بها .. ومن هنا أصبحت فكرة الوطن المجردة في المرآة الأدبية حقيقة واقعية تستوجب الارتباط بها والذود عن تاريخها .

هكذا أصبحت المقولات المجردة حقائق متعينة محسوسة وبالتـالي أصبحت الرؤية الأدبية أكثر تماسكاً في التعبير عنها باستنادها إلى الحقائق الملموسة .

وتمضي الأوضاع الادبية الغالبة على صورتها هذه حتى تقع حرب يونيو ١٩٦٧ لتأتي في نتائجها المباشرة بدعائم أوسع تعيناً للمقولات الصهيونية الثلاث .

فالعرب هم الذين بادروا بالحشد للحرب وهو اثبات لنزعة معاداة السامية والرغبة في إبادة اليهود .. غير أن العرب هزموا هزيمة نكراء وهذا اثبات لمقدرة اليهودي على التحول عن موقف الاستسلام للاضطهاد إلى موقف البطش بالأعداء اللاساميين وقهرهم ..

والأرض العربية قد أفسحت مزيداً من رقعتها للدروع الإسرائيلية وهذا تأكيد على قابلية الواقع الجغرافي للاستجابة لمقولة أرض إسرائيل الأسطورية .. ومن هنا أطلت

الصفات التابعة الكامنة في غلاف الاسطورة فأصبحت أرض إسرائيل كبرى فيمصطلح بعض القوى ، وأصبحت كاملة في مصطلح البعض الآخر ..

والوجود اليهودي قد أثبت جدارته في الذود عن التاريخ الموهوم (وتوفير الأمن المطلق لمن يلحقون به) .. وهذا موقف يكسبه بالتالي أهلية استقطاب مزيد من الجاليات اليهودية في العالم لتفيد منه ويتدعم هو بها ..

وتحت تأثير هذه الوقائع الجديدة المدعمة لمقولات الوعي الزائف الصهيوني اندفع الادب الاسرائيلي في حالة من الحمى الهستيرية يؤكد رؤاه الاساسية .. وشهد هذا الادب طوفاناً جارفاً وسريع الاستجابة من الكتابات الشعرية والقصصية تصوغ الوقائع في اطار المقولات ..

فلم يكن الاديب الاسرائيلي في حاجة آنذاك للتمهل في استيعاب الوقائع .. فإطار الرؤية والتمثل حاضر وجاهز ممثلاً في المقولات وما على الاديب إلا أن يحشر هذهالوقائع الجديدة داخل هذا الإطار في الشكل الفني المطلوب تبعاً لقدراته الحرفية ومهاراتهفي الانتاج الأدبي .

وشهدنا في الادب العبري الإسرائيلي ذلك السيل الجارف من كتابات البطولة العسكرية للمحارب اليهودي وكتابات التغني بعودة العصر الذهبي لأورشليم الموحدة وبانتصار دواد المقاتل اليهودي الذكي نحيل الجسد على جوليات العملاق اللاسامي الغبي وبتحرير الأرض التاريخية من الغزاة المغتصبين وعودتها إلى حيازة أصحابها ورثة مملكة سليمان ..

وبالطبع كان لا بد وأن تشحب في الاعمال الادبية مقولة التهديد اللاسامي في جانبها الوصفي وأن ينشط جانب الحلول فيها .. فلقد انكسرت الموجة الجديدة من التهديد اللاسامي وتم انجاز الحل بتحول اليهودي إلى موقف القوة والبطش والسبق إلى اغتيال الاعداء .. ومن ثم أصبح هـذا الموقف الجديد موضع التأكيد والابراز الأدبي احتفالاً به وتثبيتاً لوجوده في وعي الفرد والجماعة .

غير أن الاحداث لم تمهل الادب الإسرائيلي طويلا ليواصل تقديم كرنفالات وزينات الاحتفال بوقوع المعجزة واكتمال خلاص (الشعب) والارض وانعتاق الفرد من ضعفه وتراجعه ..

ذلك أن حرب يونيو قد أدت فيما أدت إلى موجة نشاط عسكري فلسطيني داخل الأرض العربية المحتلة وداخل أماكن الاستيطان اليهودي وراحت الموجة تنمو وتتزايد على نحو مطرد ورافقها في هذا النمو والاطراد نشاط حرب الاستنزاف المصرية على حافة القناة .

واكتسبت الحرب الفلسطينية – المصرية طابع النشاط اليومي المستمر لمدة ثلاثة أعوام (٦٨ – ١٩٧٠) ونتيجة لهذا النشاط بدأ معدل القتلى الإسرائيليين يرتفع وأصبح سقوط القتلى على نحو يومي سمة ملازمة لطابع الحياة الاسرائيلية مما زرع احساساً عاماً بالإرهاق والألم بين الناس .

ولم يكن أمام الأديب الإسرائيلي إلا أن يستشعر حالة الإرهاق هذه وأن ينفعل بأحاسيس الحزن والألم .

وبالطبع فإن مقدار الاحزان والآلام لم يكن في حوزته أن يحدث تحولاً في منظور رؤية الأديب ولا في نوع وعيه المحكوم بالمقولات الصهيونية الثلاثة .

ذلك أن حجم الخطر الخارجي لم يكن ينبىء بقدرته على تحطيم الانجازات العسكرية الإسرائيلية التي تمثل براهين على صدق وثبات مقولات الوعي الزائف وقابليتها للتحقق الواقعي ؛ولا كان هذا الخطر ينذر بإمكانية تحطيم الدرع العسكري الإسرائيلي الذي يوفر لهذه المقولات قوقعة آمنة تنمو في داخلها وتتمطى .

ولقد كان وما زال ثابتاً على مستوى الحكم التاريخي ان مقولات الوعي الزائف العرقية أو الشوفينية .. إن تمكنت في مجتمع معين واكتسبت قوة تصديق نابعة من تعينها في الواقع نتيجة لضعف الأطراف التي تتصدى لها .. أصبح من العسير انكسارها بفعل حركة الجدل الداخلية في المجتمع وأصبح انكسارها أو تراجعها يتطلب تحريكاً من الخارج يتمثل في ضربة تنهي استجابة الواقع لتصوراتها الزائفة أو تنذر على الأقل باقتراب وامكانية هذه النهاية .«ولعل تجربة الوعي الزائف النازي أصدق برهان على صحة هذا الحكم ذلك أنه لم يكن يمكن لمقولات التفوق العرقي الجرماني وجدارتها في السيادة على الآخرين أن تنكسر بفعل حركة الصراع الداخلية في المجتمع الألماني طالما كان الواقع الخارجي يستجيب لهذه المقولات ويفسح حيزاً متزايداً لفتوحات الدروع الألمانية وانتصاراتها » .

ومن ثم فإن وقوف الأديب الإسرائيلي عند حد الاستجابة الموضعية للآلام والأحزان التي كانت تثيرها عمليات الإرهاق الفلسطينية المصرية في أعقاب يونيو ١٩٦٧ واتجاهه نحو صياغة هذه الآلام والاحزان عبر اطار المقولات الصهيونية .. إنما يمثل استجابة منطقية تتفق مع حجم الضغط الخارجي . فلم يكن في تلك الحرب ما يوحي بامكانية انهاء استجابة الواقع الخارجي في المنطقة العربية لمقولة أرض إسرائيل أو نسخة أرض إسرائيل الكبرى أو الكاملة المعدلة من هذه المقولة . ولا كان في هذه الحرب ما يوحي بمقدرتها على اقتحام الدروع الإسرائيلية وتهديد مقولة التفوق القتالي اليهودي .

كان هناك خطر يتمثل في سقوط عدد محدود من القتلى على نحو يومي وتبديد لإحساس الطمأنينة المعاشي لا أكثر ولا أقل .

وبالتالي كان لا بد وأن تنشط في وعي الأديب الإسرائيلي مقولة عداء السامية في جانبها الوصفي لتفسير هذه الآلام والاحزان .

وترجم الشعراء والقصاصون الخطر اليومي والمقولة الزائفة في نوعين من الكتابة (أحياناً عديدة ما يمتزجان في العمل الواحد) ، نوع يعكس مرارات الأحزان والاوجاع ومشاعر التأسي لمن يصابون أو يقعدون أو يقتلون أو يصابون باليتم أو الثكل ويبدي نوعاً من الاحتجاج ضد واقع الحرب والعنف وما يؤدي اليه من اشجان معبراً عن أمله في تجنب ويلاتها الكريهة وتبعاتها الثقيلة على الناس،ومعبراً عن يأسه من بلوغ الأمان المطلق دونما أي رؤية تاريخية تضع الحرب وما ينجم عنها في اطارها الحقيقي باعتبارها نتيجة لموقف الطرف الصهيوني في خلق أصول النزاع .

ولو استخدمنا لغة البحث العلمي الاجتماعي (في وصف هذا الموقف الأدبي) لقلنا ان هذا النوع من الرؤية يمثل تعاملاً امبريقياً مع ظاهرة الحرب العربية الصهيونية (أي انه يبحثها في ذاتها منفصلة عن الواقع العام الذي انتجها) ولو استخدمنا مصطلحاً أقرب إلى لغة النقـــد الأدبي .. لقلنا ان هذا الشعر يمثل نوعاً من الاستجابة الموضعية لوقع الآلام والاحزان .

أما النوع الثاني من الكتابة الادبية الذي استجاب بها الادباء لاوجاع الحرب الفلسطينية المصرية .. فهو نوع يتجه إلى تفسير هذه الحرب وآلامها عبر المقولة الصهيونية الاولى . وهنا يصبح المحارب الاسرائيلي القتيل أو الجريح ضحية بريئة تفتك بها غريزة معاداة السامية وتصبح ظواهر المقاومة الفلسطينية المصرية للاحتلال موجة جديدة من موجات معاداة السامية تتصل بتاريخ هذه الموجات وتنبثق عن قانونه .

أي أن الاديب الإسرائيلي في محاولته إيجاد تفسير تاريخي لهذه الحرب قد لجأ إلى منظور المقولة الزائفة التي تقدم تفسيراً زائفاً يقضي ببراءة المقاتل الإسرائيلي ووقوعه قرباناً بريئاً على مذبح العداء لليهود .

وكما ذكرنا قبلاً فلقد كانت استجابة البراءة الزائفة والاحزان الموضعية أمراً متفقاً مع حجم الخطر الناجم عن الحرب المصرية الفلسطينية وإمكانياتها في الضغط على غلاف الوعي الصهيوني الزائف .

الوعي الزائف والأدب وحرب أكتوبر :

أما فيما يتصل بحجم حرب أكتوبر .. فإنه من الواضح أنها استطاعت في المرحلة الاولى الهجومية منها أن تثير في المجتمع الإسرائيلي احساساً عميقاً بالخطر وأنبأ مسارها في تلك المرحلة بامكانية الطرف العربي على اجتياح الدروع الإسرائيلية وكسر جدران القوقعة . وهو الأمر الذي أدى إلى اهتزاز حقيقي في قاعدة الوعي الصهيوني التي تتربع عليها المقولات الزائفة .

فقد ارتعشت مقولة المحارب الصهيوني الذي تحول عن موقف الانكسار إلى موقف البطش بأعدائه واكتسب جدارة في ألا يهزم . واهتزت مقولة الأرض التاريخية الكبرى والكاملة وبات واضحاً أن الواقع الجغرافي في حالة تمرد فعالة ترفض الاستجابة الدائمة للمقولة وأحكامها . وتزعزعت مقولة الامان المطلق الذي يوفره الوجود اليهودي الكلي لمن يلتحق به من اليهود .

ورغم هذا ومع كل الاهتزازات الأخرى التي أصابت بنـــاء الحياة الاسرائيلي .. استمر الادب فيِنفس الاستجابة السابقة الناتجة عن واقع الخطر الجزئي ومنظور المقولات الصهيونية .. دون أن تطرأ على رؤاه الغالبة تحولات كيفية تصحح رؤيته الزائفة لطبيعة الصراع مع العرب .

وليس أمامنا في الحقيقة من تفسير لهذا النوع من الاستجابة إلا أن تكون كل هذه الاهتزازات في أوضاع الحياة الإسرائيلية والارتعاشات في قاعدة المقولات الزائفة بمثابة اضافات كمية لم تبلغ القدر الكافي لاحداث تحول كيفي في اوضاع الحياة الإسرائيلية سواء في مستوى الوجود المادي بها أو مستوى الوعي فيها .

ويبدو هذا التفسير لنا صحيحاً في ضوء مسار المرحلة الثانية من حرب أكتوبر وما أحدثته من موازنة لمرحلتها الاولى على المستوى العسكري وما أدت إليه بالتالي من تحييد ارتعاش المقولات الصهيونية كنتيجة للمرحلة الاولى ووضع حد لمداه .

ذلك ان المرحلة الثانية من الحرب وما اتسمت به من معارك تمكنت فيها الدروع الإسرائيلية من وقف تقدم الهجوم العربي ثم القيام بعمليات اختراق مضادة وواسعة لخطوط الجيوش العربية المهاجمة .. أدت بالإسرائيليين في العمق اللاشعوري إلى حالة من الثقة في دروعهم العسكرية وقدرتها على صد الغزو الخارجي .. الامر الذي حافظ على قاعدة الوعي الصهيوني الزائف متماسكة رغم ارتعاشها ورغم حالة الثورة العامة على التقصير العسكري في المرحلة الأولى الذي تم استيعابه على انه حدث عارض وليس قاعدة يمكن أن تنبىء بمسار المستقبل .

ولو أن المرحلة الثانية من هذه الحرب اخذت سمة الأولى من حيث قوة الاندفاع الهجومي العربي ومقدرة اكتساح الدروع الإسرائيلية وإزاحتها عن مساحات أبلغ دلالة من الأرض .. لتصدعت قاعدة الوعي السائدة نتيجة لترسيب إدراك بأن الخطر ما عاد خطراً جزئياً وأنه قابل في جولة لاحقة لأن يكون خطراً كلياً ماحقاً وأن الوضع يتطلب نوعاً آخر من الرؤية والتفكير، ولحدث بالتالي تحول كيفي في منظور الرؤية العامة لظاهرة الحروب التي يشنها العرب ومدى ارتباطها بأصول النزاع وموقف الصهيونية اللاأخلاقي واللاتاريخي فيه ولانعكس هذا بالتالي في الرؤية الأدبية الغالبة .

ولكن لأن هذا لم يحدث بل وتبع عدم حدوثه منحى عربي نحو التسليم بإسرائيل والإعتراف بوجودها داخل حدود آمنة .. فقد استعادت المقولات الصهيونية اتزانها بعد الارتعاش ، بل واكتسبت قوة تصديق جديدة نابعة من قدرتها على فرض نفسها على الواقع الخارجي لدرجة اجبرته في النهاية على قبولها والتسليم بحقها في التمين الواقعي الآمن والمضمون .

ورغم هذا التطور الذي حدث في صالح قاعدة الوعي الزائف وتثبيتها .. فإن وقع الآلام كان مستمراً وفداحة الخسارات البشرية والمآسي الشخصية كانت ما تزال ماثلة .. وكان لا بد أن يتعامل الأدب مع واقع الأحزان مستنداً إلى مقولاته الصهيونية في تفسير ما وقع .

ومن هنا استمرت في الأدب الاسرائيلي حتى الآن تلك الاستجابة المكونة من شعبتين .. شعبة التألم والتوجع والحزن الموضعي وشعبة البراءة الزائفة في تفسير ما حدث وحشره في اطار المقولات الصهيونية .

فصل تطبيقي

بين قصائد (الاحزان الموضعية) في هذا الكتاب .. يطالع القارىء القصيدة الاولى بعنوان (الحرب المقبلة، ١٩٦٨) .. ومن خلال صور الاحتجاج ضد العنف والحرب والفزع الواردة بالقصيدة قد يتصور القارىء أن الشاعر رافض للمقولات الصهيونية وأنه متمرد ضد أصول السياسة التي اتبعتها الصهيونية تجاه العرب ..

فالقصيدة تكشف في شكل واضح عن معنى رفض صناعة الحرب والصبغة العسكرية للحياة وما تستوجبه من تبعات تفرض على الناس الخوف والحزن والفزع وتحذر من الويلات الحاضرة للحرب ومن مراحل العنف المقبلة .

غير ان القارىء إذا ما التفت إلى الفقرة الاخيرة من القصيدة وإذا ما انتبه إلى صورة الجملين الاسودين اللذين يتبادلان الحقد ويرشف كل منهما من فم الآخر مياه الرعب .. لاكتشف أن الرؤية التي تحكم الشاعر رؤية موضعية لا تتجاوز الاستجابة لوقع الآلام إلى تأمل أصول الصراع ودوافع اثارته .

فليس الجملان سوى طرفي الصراع . والشاعر يختار رمز الجمل للاشارة إلى كل منهما على اساس تصوره أن العرب الساميين المنحدرين من أصول صحراوية لا يجابهون اليوم سوى العبريين الساميين المنحدرين من نفس الاصول .

ومع ما في هذا من خطأ تاريخي حيث أن الصهيونية ليست تعبيراً عن امتداد سامي سلالياً أو حضارياً فإن الخطأ الاهم في هذه الصورة يكمن في وضع الطرفين في وضع متساو فكلاهما يبادل الآخر الحقد والرعب . من منهم المعتدي ومن منهم المعتدى عليه ؟

لا توحي لنا الصورة . وتبقى الرؤية التي تحكم القصيدة موضعية من حيث احتجاجها ضد الحرب وأحزانها دون أن تشير إلى طريق ما لتجاوزها .. ودون أن تشير إلى الطرف صاحب المسئولية في خلق النزاع وما ينجم عنه من حروب .

وبين اشعار (الاحزان الموضعية) يطالع القارىء القصيدة الاخيرة تحت عنوان (مجانين ، ١٩٧٤) وهي الاخرى توحي في بنائها الظاهري بأن الشاعر صاحب موقف راديكالي معاد للصهيونية ..

فالفقرة الاولى منها تشير إلى موقف القوى الصهيونية المؤمنة بالعنف طريقاً نحو تحقيق الهدف وتملكه والفقرة الثانية تشير إلى موقف من يدعون إلى الأخذ بطريق التفاهم مع الخصوم ونبذ أساوب العنف . والفقرة الثالثة تشير إلى موقف من سئموا الموقف في مجمله وقرروا الإنفصال بالرحيل عنه .

والفقرة الرابعة تشير إلى موقف الحالمين أو المتدينين الذين يتوقعون زوال الآلام عبر التدخل السماوي ..

والفقرة الخامسة تشير إلى الموقف الواحد الذي يكتنفهم جميعاً وهو موقف القلق والاسى الذي لا يفارقهم .

غير أن هذه القصيدة التشريحية لموقف القوى المختلفة في إسرائيل تقف عند حد وصف هذه القوى في صور شعرية .. على نحو قريب من الحياد .. أما الإشارة الموحية بالطريق الصحيح إلى تجاوز موقف القلق والأسى .. فنحن لا نجدها وأما الرمز إلى الطرف العربي في الصراع واظهار موقفه العادل .. فنحن كذلك لا نقع عليها .

ولا يبقى في مقدورنا إلا أن نتقبل القصيدة الأولى والقصيدة الأخيرة في اطار رؤية الأحزان الموضعية رغم حدة الاحتجاج البادي في كل منها ضد معاني العنف واسالة الدماء .

أما القصائد الواقعة في نفس القسم بين هذه القصيدة الأولى وتلك الأخيرة فهي أبلغ تعبيراً عن رؤيتها الموضعية .. سواء تلك التي تأخذ منها اتجاه التعبير المباشر عن التأسي والتوجع لوقع الآلام ، أم تلك التي تأخذ معنى التطلع إلى معاني السلام والامان على نحو عام لا يشار في سياقه إلى الطريق الموضوعي للوصول إلى هذا السلام والامان .

ولسنا نعتقد أن ادراك هذه القصائد في سياقها المضموني الآمي والحزين يمكن أن يحول بين القارىء وبين اكتشاف الرؤية الموضعية القاصرة التي تنبثق عنها .

وبين قصائد (البراءة الزائفة) يطالع القارىء القصيدة الأولى تحت عنوان (احساس، ١٩٦٩) ويستطيع القارىء أن يلاحظ مدى الاتساق الشديد بين المقولة الصهيونية الأولى في جانبي الوصف والحل وبين الرؤية الشعرية التي تحكم القصيدة وبناءها ..

فالواقع الراهن يشيع في الجو المحيط بالشاعر رائحة نفاذة .. رائحة جثث يهودية تستثير في ذاكرته كل تاريخ العداء لليهود .. ولا ينفصل الواقع الراهن عند الشاعر عن ذلك التاريخ القديم ..فهذه الجثث تجيء لتكثف المذاق المرير لتاريخ الاضطهاد وتستكمله.

ويتنازل الشاعر عن الافاضة في سرد وقائع ذلك التاريخ المديد ويفضل أن يرجع بقارئه إلى نقطة بداية هذا التاريخ فيما بين النهرين في أرض بابل وآشور ويقصد بالطبع احداث السبي البابلي .. وبعد أن يؤكد نقطة البدء هذه ويضع ملاحظة شعرية تفيدعدم انقطاع موقف المعاداة لليهود منذ تلك النقطة الزمنية الأولى وحتى ظهور النازية وافران الغاز في اوشفيتس .. تنتهي عملية الوصف التاريخي للمشكلة اليهودية بالنسبة له .. وتبدأ مهمة وضع الحلول اللازمة لمواجهة الموجة اللاسامية الجديدة والراهنة .. ويأتي الحل موافقاً في دقة متناهية للحل الذي تقدمه المقولة الصهيونية في مستواها الفلسفي .. (ليحيا نبذ السلبية .. كلماتي .. لتكن كلماتي فيالق اشواك .. الخ) .

وبعد أن يقدم الشاعر الحل المتمثل في ضرورة التحول عن وصية (لا تقتل) والتمسك بمبدأ (اقتل حتى لا يقتلوك) .. ينهي قصيدته بدعاء مؤثر على لسان الأمهات اليهوديات يلعن فيه اللاساميين سفاكي الدماء .. ويناشد الرب أن يضع نهاية لذلك التاريخ القديم وامتداده الراهن الذي يسفك دماء أبناء اسحق ويقدمهم ذبائح على مذبح الوثن اللاسامي.

هكذا تقدم القصيدة التفسير التاريخي لواقع الصراع الحالي وما يثيره من معاناة في الحياة الإسرائيلية . تفسير محال إلى منظور المقولة الصهيونية على نحو يتناءى كلية عن النظر إلى واقع الصراع وأصوله التاريخية الموضوعية .

أما القصيدة التي تحمل عنوان (نهاية ليلة، ١٩٧٤) فهي الأخرى تجسد رؤية البراءة الزائفة أشد ما يكون التجسيد .. فالقصيدة تبدأ بفقرة تصف حالة السكون المقدس

الذي لا يتخلله إلا نبرات البوق في المعابد .. والناس هنا (أي الاسرائيليون) يقفون في حالة من التضرع العميق والبراءة الكاملة يؤدون صلاتهم ويتلون التلاوات المقدسة في يوم الغفران .

حالة كاملة من البراءة والسكينة .. يقطعها فجأة نبأ الاغارة الوحشية فيتدافع الناس من المعابد إلى ساحات القتال حيث المشهد مفزع وخفافيش الموت تحلق وسكونه البارد المغاير لسكون المعابد الدافيء الخاشع يحط على النفوس .

التاريخ يسعى إلى تكرار نفسه .. ويقصد إلى تقديم الشعب المقدس ضحية وقربانا تماماً كما شاء التاريخ الديني من قبل أن يقدم اسحق ضحية وقربانا.. غير أن راحيل زوجة يعقوب أبي الاسباط العبرية لا تستسلم هذه المرة فهي الاخرى تطل بوجهها من تحت رمال الزمن ورماده وتقطع تلاوتها من كتاب الصلاة لتلقي بكلمات من نوع جديد .. انهـا ترفض أن يقدم أبناؤها أضحية وقرابين على مذبح التاريخ المادي وتتحول إلى لبؤة غاضبة تحمي جراءها وتذود عنهم .

هكذا يقدم الشاعر تفسيره لما حدث في أكتوبر . والعرب الطرف المستتر في القصيدة والفاعل فيها في نفس الوقت ليسوا في هذا النوع من التفسير إلا وثنيين يمارسون عقائدهم البدائية في ذبح اليهود وتقديمهم قرابين على مذبح الغرائز الدموية .

وفي مقدور القارىء أن يكتشف بسهولة مدى التطابق بين الرؤية في قصيدة (احساس، ١٩٦٩) وهذه القصيدة ومدى تطابق الرؤية الواحدة فيها مع المقولة الصهيونية الاولى.

أما القصيدة التي تحمل عنوان (أغاني أرض صهيون ١٩٧٤) فانها تتميز بتركيب الرؤية والبناء الشعري .. فهي تقدم المقولات الصهيونية الثلاث في حالة من التشابك والاتساق الهندسي الداخلي .. وهذه هي حالة المقولات في نسقها الفلسفي كما أشرنا إلى ذلك قبلا ..

فالشاعر يستهل قصيدته بالتغني بمعنى الموت في سبيل الارض ويضمن الفقرة الاولى عبارة تفيد هذا المعنى ينسبها إلى أحد قادة الحركة الطليعية الصهيونية المقاتلة في فلسطين في مستهل هذا القرن .. وهنا يؤكد الشاعر حلاوة وضرورة الاستبسال في القتال حتي الموت دفاعاً

عن الوطن المتعين والذي اكتسب ملاط بنائه صلابة وتماسكاً يفوقان صلابة وتماسك الاحجار. (مقولة الارض التاريخية + مقولة الوجود اليهودي الكلي) .

فهذا الوطن (الفقرة الثانية) هو القلعة الآمنة التي يستطيع فيها اليهودي وفيها دون غيرها أن يمارس حياة عادية مطمئنة دون تصيد أو ارهاب أو اضطهاد لأدنى خطأ ، فيها يستطيع اليهودي أن يرتكب الاخطاء الطبيعية دون أن يضيع وأن يبكي ويخون دون أن يلقى مصير الهلاك الذي يلقاه في أي بقعة أخرى من الارض .

ها هنا الامان والمحيط البشري الذي لا ينبذ فيه اليهودي إن قطع علاقته بامرأته أي إن قطع علاقاته القريبة .. فإنه سيظل مع ذلك مقبولاً من المجتمع حيث يجد آخرين ينتمي إليهم وينشيء معهم وشائج قربى جديدة دون أن يتعرض للنبذ والرفض الذي يلقاه في أي مجتمع آخر يحاول فيه تجديد انتمائه وصلاته ونلاحظ مدى اتساق هذه الرؤية مع موقف مقولة معاداة السامية في جانبها الوصفي الذي يفيد حتمية العذاب اليهودي في المجتمعات العالمية أو في جانب الحل منها والذي يفيد أن الوجود الكلي اليهودي هو شرط الامان الوحيد .

وفي ختام القصيدة يعود الشاعر فيؤكد على معنى الاستبسال في سبيل الارض حتى الموت .. فكنوز هذه الارض ليست من المعادن الطبيعية بل هي من عظام الموتى اليهود الذين قاتلوا في سبيلها ليحققوا لها الوصول إلى عصر المسحاء .. عصر الخلاص اليهودي المطلق ..

الامر الذي يعني أن الطرف الآخر في المواجهة ليس سوى ذلك العدو اللاسامي الذي يحاول أن يقطع طريق شعب في التزاوج مع أرضه .. نفس الرؤية التي تقضي بها المقولات الصهيونية .

ولا شك أن القارىء العربي سيكون في حوزته اكتشاف الرؤية التي تحكم سائر القصائد في هذا القسم دونما محاولات ايضاح زائد ومتكرر من جانبنا .

أما فيما يتعلق بالقسم القصصي من الكتاب فقد آثرنا أن نلحق تعقيباً ببعض النماذج ليقيس القارىء عليها سائر النماذج .

قسم النصوص

١ ـ أشعار الأحزان الموضعية .

٢ ـ أشعار البراءة الزائفة

٣ ـ مقولتا الأرض التاريخية ومعاداة السامية في الرواية القصيرة .

٤ ـ مقولة معاداة السامية في القصة القصيرة .

٥ ـ الاحزان الموضعية في القصة القصيرة

٦ ـ قصص المعارك .

اشعـار الاحزان الموضعية

الحرب المقبلة

قصيدة ١٩٦٨

يعقوب باسار

الحرب المقبلة .. ننشئها .. نربيها
ما بين حجرات النوم .. وحجرات الأولاد
النحاس آخذ في الاصطباغ بالسواد
ونحن في فزع من الاقتراب منه .

★ ★ ★

ذراع الكهرباء تتحرك
على محورها الملفوف بالصمت
تجاه الحرب التي تحظر
على أحاديث المطابخ .
في عتمة الحجرات ..
نسمع وقع خطاها
ونحن مقيمون على اغفاءة الظهيرة .

★ ★ ★

وفي قاع العيون
جملان في لون الليل البهيم
يرشف كلاهما من فم الآخر
مياه الرعب الخضراء
ذلك لأننا نستنبت
في تأن وثقة
زهرات الحديد للحرب المقبلة
ما بين حجرات النوم .. وحجرات الأولاد .

صلاة على المصابين

قصيدة ١٩٧٠

اسحق شاليف

رب المصابين الساكنين في الجبس
رب المصابين من يتنفسون الأكسجين
رب النفوس التي تلفظ أنفاسها
كجمرة .. ساعية إلى نهايتها ..
رب النفوس التي فوق أسرتها
أكياس الدم ارجوانية االلون معلقة ..
والتي قطرات الدم السائلة في الأنابيب
بالنسبة لها .. كساعة تضبط حياة الزمن ..
جلّ يا رب للنفوس التي تعيش
ما بين عقاقير التهدئة وعقاقير التنويم
ما لا يقدر على تجليته للأرواح سواك .
جلّ الغاية من أعمالك :
الغاية من المشلول والمبتور
الغاية من ساق معلقة بمسمار
في عظمها .
جلّ يا رب .. جلّ .. أفصح .

* * *

عندما يخلو جزء ما تحت الغطاء
وينقص شيء ما هناك
كأنه جذع قد اقتطع
ينخسف الغطاء في ذلك المكان
لأن تحته لا يوجد سوى الهواء .
رب الأجساد الساكنة في أسرتها
مجمدة دونما برد .. مكبلة دونما قيود
رب الشباب الذي قضى عليه
بالنضوج فوق الكراسي المتحركة ..
ورب الشبان الذين قضى عليهم
بالموت . في قبر هو حشيتهم
وتحت نصب هو ملحفهم ..
قل لهم يا رب على الأقل كلمة
اطلب لهم الغفران .

ضيق عابر

قصيدة ١٩٦٨

شوشانه بيلوس

صلاة طفل في الحقل
تنادي على الميت
تحكي عن الظلم من تحت
شجرة قديمة
في مكان ليس من ينتبه فيه
لمرأى قدمين صغيرتين
تزلان منزلقتين في جنبة الحقل..
بين ظلال محتشدة واصوات
تبعث الخراب في مدارك رقيقة .
قوّم في نفسك أصابع
تعلمت الآن أن تتشابك
مرتعدة في طقس فظيع ..
عدّل في نفسك إحساساً
يهاجمك ساعة الانفراد
كألسنة من لهب يلفح اللحم ..
فبهذا يمتنع الحزن واحساس الحداد .

★ ★ ★

إن الأب الذي يورث إبنته الحساسية
يعلم أن الوقت غير مناسب البتة
للأحزان .. والكلمات المتكسرة المكسورة .
إن جنون اليأس والاحباط يغرسان
في نفسها أحلاماً حول واقع ما
في أن كانت لها غاية ومصير
من العار أن يضيما
بينها الآن مشاهد الطبيعة ميتة
ومرئيات سقيمة ذابلة
تترى متلاحقة في نفسها .

★ ★ ★

سلام أيها الفرح السليب ..
شمس تجاهد أن تضيء
عبر زجاج قاتم اللون مترب ..
طفولة أمدها قصير .
أيام عديدة ملأى
بانكسار القلب .. بالمرارة
تحل بالاحزان
أما قليل الكمال .. قليل التمام
فمخالف لهذه الايام
فهو كالضياء الذي فجأة
فوق الربى ..
ينطوي ويتبدد .. قبل حلول الظلام .

الضوء الذي فوق البحر

« في ذكرى شهداء المدمرة إيلات »

قصيدة ١٩٦٧

بنحاس بلدمان

خبا الضوء فوق البحر
حيوات أبنائي يا إلهي !!
في الرمال القديمة ..
حديد بارد
وذكرى الدم السائل
فوق البحر .
وتسأل فتاتي :
ربما كانت هذه الظلمة
كسوف شمس وقد جاء في غير موعده ؟
كلا !
كلا يا فتاتي ..
لأن أمام عيني .. جثث أبنائي
كالصواري منتصبة ..
لو توانت العين لحظة عن رؤية ورد
وغلالة على وجهك الطاهر يا فتاتي
لاحمرت حتى دم الورد
حلية موت أبنائي
يا إلهي !

ثلاث قصائد

١٩٦٨

حدفاه هركابي

صمت ووجل
شارع متوهج قاس
كغريب عن الوعي خرج .
قمر صريح يلامس
جسدي .
فجاءة يتحول إلى معول
مملق مشحوذ يبرق .
الطفل في حضني
مقرور مبلل
« دعيه في الزاوية »
« غطيه بالرداء »
وصدى يبتلعه صدى .
« لكن » .. « هيا »
« انتظري » .

●

رباه ..
الظلمة إلى هذا المدى موحشة
افق اسود كلوحة على جبيني ..

كم علي أن أسقط
كم علي أن أتراجع
فما أكثر الكواكب ضدي .

●

وآنذاك ..
يبدأ الإنسان خروجاً عن وعيه
الآخرون .. عنه يعلمون
غير أنهم في أي مرة
معه لا يكونون .

●

وبعد ذلك من هنالك
طردوني ..
هكذا .. بأقصى حقدهم
أبعدوني .
وأنا ...
لم يعد لي ما أرجع إليه
لا مدينة أبعث فيها حياتي
ولا رقعة أرض
لدفني في مماتي .

أشعار اعتزال

قصيدة ١٩٦٨

يهودا عميحاي

(أ)

أنا أعتزل .
لولدي عينا أبي
ويدا أمي
وفمي .
لا ضرورة لي ..
شكراً جزيلاً
بدأت الثلاجة تزوم تأهباً
لسفرة طويلة
كلب غريب يبكي لفقد شخص
آخر .
أنا أعتزل .

(ب)

دفعت ضرائب لكذا وكذا من الخزائن
أنا مؤمن على تماماً .
لي ارتباطات تعامل مع كل الخزائن .
أي تغيير في حياتي سيكلفهم مالاً كثيراً .
أي حركة من جانبي ستحل بهم الألم

موتي سينزل عليهم بالخراب .
وصوتي يمضي مع السحب .
يدي الممدودة تحولت إلى ورقة : وثيقة تأمين أخرى .
انني أرى العالم خلال زهرات سوسن اصابتها الصفرة
لأن شخصاً نسيها
بجوار النافذة .

(ح)

افلاس !
إني أشهر العالم كله
على أنه رحم
من هذه اللحظة .. أتحلل من
ملكيتي لنفسي واودعها داخله:
كيما يتبناني .
إني أشهر رئيس الولايات المتحدة
على أنه أبي
وأشهر رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي
على أنه راع يحمي أملاكي
وأشهر الوزارة البريطانية
على أنها أسرتي
وأشهر ماوتسي تونج
على أنه جدي .
كلهم ملزمون بمساعدتي !
اني اعتزل .
إني أشهر السماء
على أنها الإله .
كي يعملوا لي جميعهم معاً
ما لم أصدق أنهم سيعملون .

راكض

قصيدة ١٩٧٤

دوف حومسكي

يركض بسرعة تصيب بالدوار
(يبدو لي : أنه أنا)

•

لا يتعثر
لا يبطىء
لا ينجرف مع الريح
التي تهب في اتجاه
معاكس ..
يركض .. إلى الأمام
إلى بعيد ..

•

يصبح فجأة نقطة
ضئيلة صغيرة متضائلة .

•

متى يعود ؟
متى يعود ؟

•

اني انتظر في جميع المحطات
على التوالي
لحظة عودته .

الامير الصغير يصيبه الهرم

قصيدة ١٩٧٥
يعقوب باسار

ربما كان الأمر هو ذا ..
وصلت إلى نقطة التشبع ..
فعلت ما فعلت وما عاد هناك
ما يلزمني بالمواصلة .
أعطيت الكلمات ما للكلمات ، وللحب
ما للحب . أما لنفسي ؟
كنت شاعر المملكة ..
بها اثنان يحكمان في الليل وواحد في النهار .
عندما أنام – أكون أنا من يحلم بي .
وفي النهار .. لا توجد للحلم بقية .
في المساء يصعد الملك ويضيء نوراً بالمصابيح
المعلقة على سحاب منخفض .
والنار مثل الرجل محبوسة
في زجاجة معزولة

البوابة لم تنفتح

قصيدة ١٩٧٥

يحنئيل هازاق

لم تنفتح البوابة لأخي في
يوم الغفران ..
بل راحت تنقفل
راحت تنقفل ماضية
على محاورها الثقيلة
وأنا أجاهد لوقف حركة الحديد
وهي تطبق على أخي من كل
صوب ،
وإن كانت هذه قوة جاذبية التربة ،
تجتذب أخي كأنها امرأة ،
وترفعني لأواصل التحليق كالقمر
الصناعي والدوران حولها
فإنني أنحب ..
فأنا أحد أبناء نصل ملعون
مضروب بالتربة ، يدور
ويدور ،
وأخي ما زال ينظر من خلف
كتفي وعيناه تضحكان
لمن يحلم ،
ويصمت هو إذ يرى كيف
أفرك قدمي كلا منهما بالأخرى.

كم كنت صبية

قصيدة ١٩٧٥

اورا ليف رون

أنظروا كم هي آثار نهش الإنسان
في ..
كم كنت صبية .
فجوات تغطي نصف جسدي
والمياه تعبر خلالي والأيام
وجميع السنابل وجبال السوسن .
أسد مصاب يقف مثخناً بالجراح
وقد لحق به الهزال
ومن شريان مقطوع
تتدفق نكبة .

كيف تقطعت الدروب

قصيدة ١٩٧٥
يحنيل حازاق

كيف تقطعت الدروب
بتنا ذئاباً خلف شجيرات
مربدة اللون في وديان مهجورة
نمضي منتحبين ..
من نهاية البيداء إلى نهايتها
أرض ،
أرض إسرائيل ..
بوجه معتل بالصفرة
مليء بشقوق الأنهار الجافة
تطل علينا من أعلى ككتاب صلاة
ساكن ..
وكيما لا نصل فإننا لا نصل ،
كيف تقطعت السبل وأصبحت
جداول جافة .

أقنعة الجد البيضاء

قصيدة ١٩٧٤
ايتسيك مانجر

علق المساء على صواريه أقنعة الجد البيضاء
من بين شفتي الجد الزرقاوين تتناثر ذابلة
ليال خريفية .
ومع بهجه اصوات فروع الأشجار الحزينة
الجافة ..
يزدهر حزن الأوراق الذابلة المتساقطة ..
أحمر اللون .

●

على حصانه الأبيض يركب فلاح على حافة
الأفق ..
على كتفيه منجل فضي .. ساخن وثقيل
تكشفه لعيون جذوع الشجر ..
اقمار الخريف المنسحبة في رتابة ..
وخلفه غبار ضباب كثيف .

●

وشفتا الجد الزرقاوان تتحركان في

تمتمة ثقيلة .. تفهم بصعوبة :
« أيها الفلاح .. بمنجلك الفضي الذي
على حافة الأفق ..
قطعت زهرات الحدائق كلها ..
فما جدوى العيون إذن
وقد اختفت الألوان من
الحدائق . ؟ »

●

يركب الفلاح في بطء على حافة
الأفق ..
ومن صدره الواسع كثيف الشعر
تفوح رائحة الحشائش المجزورة .
يضع يده كبوق على فمه
ويصرخ إلى أعلى .. حتى ترتعش
صواري المساء المربدة .. وتهتز
أقنعة الجد البيضاء وتدور عيونها
في مآقيها ..
« جزرت بمنجلي كل الألوان
في الحدائق ..
لم أدع سوى الحزن لكي يزهر
وتحت استاره القاتمة تشتعل
آلاف الالوان .. التي لم تفك
رموزها ..
لكن شبح العمى والموت يسكن
اهدابكم .. »

●

الفلاح يركب في بطء على حافة
الافق ..
ومن خلف ظهره تسقط على
الحقول ..
غيوم المساء ..
إلا أن عيني تريان في وضوح
بديع :
أقواس قزح مختارة ..
ترف على حقول المساء .

مجانين

قصيدة ١٩٧٤
ايتسيك مانجر

رجل جالس يحدق بعينيه ..
يرى كيف تتضفر الخيوط معاً .
لتغزل رداءً قرمزياً ..
تكسو جسده العاري ، وتنحني أمامه
في صمت ..
يبتسم الرجل ويقول : انا الملك .

●

أما الثاني فيهيل على رأسه التراب
والرماد ويصرخ في غضب :
« على العنف قام عرشك ..
ومصيره أن يسقط بالعنف ..
رداء مملكتك ملوث بالدم ..
وسيلوثه دمك أيضاً ..
اسمع كلماتي ..
فأنا نبي الرب . »

●

والثالث في أسى يبتسم !
« ستذوي عظمتك أيها الملك ، أيها النبي
في ضجيج الزمن سيختفي جرس ملكك ..
ستنسج الحياة من كليكما معاً ..
دودة تعيش إلى الأبد . »

●

« انظر .. النجم الذي يخفق هناك
من بحر الليل والسماء ،
في دائرة الخلود هو ،
وهو الذي سيقودنا من الفناء
إلى الخلاص ..
يقول الرابع وهو يبتسم
« تعالوا نؤمن . »

●

صامتون كلهم .. يلقون ظلالهم
على الدار ..
وعلى الحائط يرتعش القلق
يضطرب مع نفسه ..
وعبر النافذة .. يطل الأسى
ويبتسم له في هدوء قائلاً :
إنهم إخوتي .

عندما تقول : حياتي .

قصيدة ١٩٧٤
دوف حومسكي

عندما تقول حياتي
ماذا تعني ؟ ..
هل تعني الأماني المشتعلة
كمشاعل خفية في غابة أبدية ؟
هل تضع في الحسبان
كل الطرق المقطوعة
التي خططت في تدقيق
أن تضيئها جيداً ؟

●

بالمناسبة أثناء الحساب .. حاول
أن تحذف ..
أيامك الحزينة
ولياليك المفزعة
وتأمل الباقي ..
تجده غاية في القلة .

●

من المؤكد أنك رغبت تحت
غطاء النسيان ..
أن تزرع خلفك سراً
وورود الراحة والفرح
رغم أنفها .

●

عندما تقول .. حياتي
يكون واضحاً لك
عندئذ ..
ماذا تعني .

اريد رجلا حكيما

قصيدة ١٩٧٤
حدفاه هركابي

أريد رجلا حكيما
منذ ستمائة عام
وأنا ماضية في التجوال ..
أمر بأنوار البحر
والحيتان ..
وبالأرض وكل ما فيها ..

* * *

ورجال يأتون نحوي
وفي أيديهم أصوات ورياح
وأصداء .

* * *

بعيداً .. بعيداً ..
أرى .. مخاوف
وأصوات حداد

وحطام نحيف
يعلو من الغابات
ويرسم أشباحاً .

* * *

لكن دائماً ، أبسط موتي
على كومة من الشمس كبيرة
ويبدو لي أن أحلم بدمه .

* * *

أريد رجلاً حكيما
ولا أريد شيئاً عداه.

أريد رجلا بلا قوة

قصيدة ١٩٧٤
حدفاه هركابي

أريد رجلا بلا قوة
يأخذني بكل قلبه
ويأخذ نفسي له
كما يشتهي ويروق له
يملك مقاليدي .. برقة
بحب ليس له مثيل
من أول السماء إلى
نهايتها ..

* * *

أريده يسكن معي
في كل دروب الشمس
في كل زوايا الشمس
في كل أطرافها ..
يريني الخير ..
والشر .. وكيف
يبزغ النور

وكيف تهب الريح
الرقيقة ..

* * *

أريد رجلاً بلا قوة .
السلام أمر هو الغاية
ولا غاية له ..
لذا .. فإنني أقول
الحزن هو مجرد حزن
والألم ليس سوى الألم .
حتى الجبال يمكن تحريكها
رغم قدرتها على الرفض .

* * *

حتى الجبال يمكن أن تنفض .
أحياناً حينما أرى ، كيف
تنتهي أرض ..
وكيف تبدأ أرض أخرى
أحلم بالسكون وبكل
أسبابه ..
غريب أن حجراً مالحاً
موضوع في وسطها ..
وأن أعشاباً برية
وحشية ..
تنبعث من كل أرجائها .

* * *

أريد رجلاً بلاقوة
يأخذني بكل قلبه

اشعار البراءة الزائفة

احساس

قصيدة ١٩٦٩
اسحق بولاق

أحس بروائح قوية
روائح جثث ..
روائح لحم في ضرام عنيف
من الزيت يحترق ..
يشوى على صدر فرن من الرمال
يزيد من رقعتها مصدر عال .

* * *

جثث ...
من أجل تكثيف المذاق
المرير .. في التاريخ
الحي الملموس .

* * *

كلا .. لست في حاجة
لشرح أحداث ..
بالتوتر المأسوي

مشحونة ..
الحديث عن البداية
أفضل عندي من بسط
ما تم وما انقضى .

* * *

سداد الحسابات في ظني
فيما بين النهرين بدأ
هناك .. ألقى رب ابراهيم المهزوم
إلى نيران الآتون .

[ملاحظة شعرية :
بالمناسبة ، استكمل الآتون وحفظ
على مر الأجيال
منذ أيام ما بين النهرين وحتى معتقلات أوشفينتس]

ومنذ دمرت أوثان عمورة وسدوم
وأبناؤه بانتظام
تحت شعار « لا تقتل »
يقتلون .

* * *

ليحيا نبذ السلبية !
كلماتي ..
لتكن كلماتي .. فيالق
اشواك ..
لتسقط أركان عالم
منحط بزئير جبار .

* * *

بعيني رأسي .. شاهدت
في يقظة أو في منام
ما يشبه تمثالاً منتصباً
يداه إلى أعلى مرفوعتان
إنه دعاء الأمهات :
« ملعون هو من يبعث أولادنا
إلى مذابح الأوثان .
القاتمة .. الحمراء ..
اللهم ..
الأبناء فارحم .. والآباء فارحم
وضع نهاية لتقديم إسحق
ذبيحة وقربانا » .

الى متى

قصيدة ١٩٦٩

يعقوف رمون

فجر الخلاص من عل
يتنزل ..
والفداء ملفوف بالضياء .
المعجزات .. مقبلات
بهيات .. في جلاء ..
كألوان الطيف
على قوس قزح
محمولة بين السحاب

★ ★ ★

بين المعجزة وأختها
ظلال تمر ..
ظلال .. بأنات الثكالي
مشبعة .. تحمل في طياتها
الجراح .
أشبالنا .. زهرات جيلنا
مع كل صباح .. عبر القناة

يتساقطون .. يذوون
كأعواد زرع أخضر
من جذورهم يقلعون .

★ ★ ★

رباه !
من نوافذك .. تشهد آلام الخلاص
كثيفة .. مكثفة
ونحن .. بين مرور معجزة وأختها
نحصي موتانا .. وقلوبنا تسأل
إلى متى ..
إلى متى يظل يومنا المأمول
على دمانا يسير ؟

طريق فتى

قصيدة ١٩٦٩
اسحق شاليف

من هضبة الجولان إلى الوادي
من وادي الاردن إلى القطاع
ومن هناك إلى شرقي القناة
إلى أن عادت الكتيبة ثانية إلى
الهضبة ..
كان هذا طريقك .. طريق فتى
في أرض النيران الكبيرة .

* * *

كنت ابنا لأرض النيران
واحد كله منها
لفحته بقيظ حرارتها
وشق طريقاً في حرمون .
من تحت جواربك تسللت
حبات الرمال والحصى
وهرول أمامك طائر الحجل
وانتفض تحت قدميك ثعبان

وقبع في الليالي إلى جانب خيمتك
وخلع جلده هناك

* * *

أصابك الكد قبل أن تفقد نضارتك
وعبرت الوادي المالح
حيث الأرض التي تذوي
كل زهرة عليها وتسحق في الغد .
أرض تأكل أبناءها
أرض تحرق بناتها
أرض في صدر صحفها
وجوه كانت حتى الأمس
تتنفس .

* * *

عرفتك ادغال تحف
على نهر الأردن .. في أم سوس وأم شرط
حيث يرقد رجال وعيونهم ترقب النهر .
عرفتك عيدان القصب الساكنة
وخضرة مدقات بركام القاذورات
مفعمة .
مواضع يموت فيها الرجال
الذين تتشقق نعالهم أولا ..

* * *

اكتشفت بعين فاحصة
مداخل مغارات مظلمة ..

بددت بجهاز التسديد في سلاحك
اشباحاً تبرز وتظهر .
رأيت سحب الدخان
في الماء .. تجاه بور توفيق .
عبرت الجولان وبيسان
قدما و شرقا صاعقاً .

●

حتى هنا وصلت .. يا فتى
حتى هنا الانطلاق والاقتحام
الغبار والعرق والألم
وتمزق صمامات القلب
والأحلام .. والحنين
والتفكير ..
واحصاء ما تبقى من أيام
إلى أن يتم التحرير .

●

حتى هنا حملتك أيامك
حتى هنا تصل الطرق
حتى هنا تمتد الطرق وتأتي .
انتهت رحلة العربة نصف المجنزرة
وسيارة الجيب .
وينتهي المدق وعلامات الطريق .
وبعد قليل يبدأ الطريق من هنا
على نقالة الموتى العسكرية ..
ها أنت قد وصلت إلى النهاية

التي اسمها .. الطريق إلى الرب ...

•

وها هي الأكاليل على رأسك
ورأسك في الرمال الرخوة
وأسنان تعض على الشفاه
وصمت يعلو كالجبال
وقداس جنازة طويل
وثلاث دفعات رصاص
تنطلق في الهواء ...

•

نهاية ليلة

قصيدة ١٩٧٤

وبينما صوت البوق يتردد
ايذانا بانتهاء النهار
تتدافع فجأة من داخل صفحات
كتاب الصلاة ..
نداءات هامسة ..
وتتساقط من على الأكتاف
عباءات الصلاة ..
إلى هناك ..

•

إلى قلب المعمعة
منخز في مواجهة
منخز ..
وقطعة من الصلب
في مواجهة صلب
الارض تتلوى
والرمال والهضاب تميد
في صلاه فزع ..

رب العالم ..
عجل بنهاية الطريق .

●

خفافيش هائجة تتخبط في الهواء
تحلق بلا صوت ..
الزمن الذي انكسر ..
سكون جد مغاير
لما سار قبله من سكون .

●

كوكب وكوكب من القار
نورهما خطير وشحيح
وعلى مبعدة من هنا
تعمل فوهات البنادق
تنفث من أفواهها
الرعب .

●

وثانية (أحقاً يعيد التاريخ نفسه)
عينا عجل خاويتين في بلاهة
ضحية عالم
وكل شيء أصم .
وثانية تجتر الارض
وتأخذ سمة القسوة
ورواحيل أمنا راكعة
في صلاتها ..
دونما بكاء .
تلقي لريح الليل بشذرات
السبات ..
وجه تكلله الشقوق

يطل من مرمدة يتصاعد منها
الدخان ..
وفجأة تنتصب قامتها
وتلقى ثانية بالكلمات
لبوءة تحمي جراءها
كلا .. لن يعيد التاريخ
نفسه

•

كفت النجوم عن إرسال ضوئها
خفافيش هائجة تحلق دونما صوت ..
الزمن الذي انكسر ..
سكون جد مغاير لما ساد قبله
من سكون ..

•

تحجرت الكلمات في الحلق
التهاب النفط .. مشهد يصر على
الإزهار ..
القلب في المعارك ..
المعارك التي في القلب

كلمة الرحل البسيط

قصيدة ١٩٧٤

يهوشع طن بي

كل شيء يتواثب .. يتراقص .
كالنار المندلعة ولا تخبو
كالملائكة التي تترنم في
الهزيع الأخير من الليل .
كالعصافير التي تتفزز
في عصبية لحظة مغيب
الضياء ..
تلك العصبية التي تصيب
كل الأحياء عند الإعتام
فليس بين الأحياء من يشعر
بالسكينة عند الاعتام ..
كل ذي حياة ينظر في المرآة
المتواثبة ..
والكل يتفزز ويتواثب ..
كالكائنات الصغيرة الدقيقة
التي تظهر خلف عدسة المجهر
كالنار التي اندلعت في

البيت المقدس .
فلم يعد من الطمأنينة شيء ..
الجبال ترقص كالآلهة
كل الأشياء تهرول فى جنون
سنوات مجنونة كاسرة
أجيال مجنونة كاسرة
الناس يخرجون من جميع
المحطات ..
الكلمات تخرج صراخاً :
اهتفوا .. اهتفوا
الجميع يتواثبون
كل شيء يرتجف
كل شيء يزبد
كالأرض تدور حول
نفسها
كالحبلى تتلوى وهى تلد
كخط الأنابيب
الذي يلقي بالماء على النار
التى اندلعت فى البيت المقدس
النار المندلعة .. ولا تخبو
وما عاد هناك من الطمأنينة
شيء ...
الناس يخرجون من جميع
المحطات ..
وما من محطة نهائية ..
والشبان يحتمون من النار
بأكوام الملح ..
ويلعقون ..

فهذا هو طريقهم لبناء
البيت المقدس ..
والفتيات..رقيقات .. نقيات الابدان
ينزلن ممدودات الأيدي
غلمان وفتيات ينزلون يردون
حفرة الماء الأسود
غلمان وفتيات .. تجمدت وجوههم
من هول آلام الخلاص ..
والكلمات تخرج صراخاً :
امضوا فى الحياة
احملوا الكلمات إلى نساء
يتصاعد نحيبهن ..
احملوا الكلمات إلى حيث
صراخهن ..
اضربوا موعداً لكل السكان
اقذفوا الماء على النار
التي امسكت بالبيت المقدس
نادوا الملائكة ..
أن تترنم في الهزيع الأخير
من الليل ..
فالامل في مجيء المسيح
في مجيء الخلاص ..
أبداً لا ينقطع .

اغاني ارض صهيون

قصيدة ١٩٧٤
يهودا عميحاي

على الكلمات الاخيرة التي لفظها طرومبلدور [١]
ما أحلى الموت في سبيل أرضنا . بنوا الوطن الجديد ،
مثل نحل الحقل في مجموعات مجنونة .
حتى ولو لم تكن هذه كلماته ،
أو لو أنه قالها ثم اختفت
اظل مكانها محفوراً كالكهف .
فاق الملاط الاحجار صلابة ..
هذا هو وطني ..
الذي يمكنني فيه أن أحلم دون أن أسقط
وأن أرتكب أعمالاً سيئة دون أن أضيع
وأن أهمل امرأتي دون أن أصبح معزولاً
وأن أبكي دون خجل وان اخون وأكذب
دون ان اتعرض للهلاك ..

●

---

(١) أحد القادة اليهود الطليميين المقاتلين في فلسطين في أوائل القرن ..

هذه هي الارض التي غطيناها بالحقول
والغابات ..
ولم يكن عندنا وقت لتغطية وجوهنا
فهي عارية بتقلص الحزن وتقطيبات
الفرح .

●

هذه هي الارض التي يسكن الاموات
تربتها ..
بدلاً من الفحم والذهب والنحاس
وهم الوقودُ لمجيء الخلاص .

مقولتا الارض التاريخية
ومعاداة السامية في الرواية
القصيرة

العشب الاحمر يشتعل في بطء
النهر الاخضر يتدفق للأبد

بنحاس ساديه

بدت من خلال النافذة الـــتي كان يقف إلى جوارها افشالوم بعض أشجار الزيتون وسياج يحيط بفناء ، ومجموعة من الأسطح الآجرية. كان قمر منخفض أصفر مغلف بالضباب يسدل ضوءه الشاحب خارج النافذة لم تكن الريح تتحرك وكان الهواء الساخن اللافـح محملا بمذاق الغبار .

الصمت مخلق :

راحت افيجيل تتطلع إلى الظلمة من فوق كتف افشالوم وهي تقف خلفه تكاد تلامسه.

كانت النجوم القليلة التي تلوح خلف الضباب تومض في شحوب في سكون .

كانت كأنها ترقبها وتنظر اليها .

على حين غرة قالت افيجيل : انني .. انني أشعر وكأن النجوم جميعاً تنظر إلي الآن. ولم يجب افشالوم . انقضى بعض الوقت. مدت ذراعها فلمست يده بأطراف أصابعها نظر اليها فسحبت يدها وقالت هامسة :

– تعال نخرج ..

– إلى أين ؟

– إلى أي مكان .. نذهب خارجاً .

ـ إلى أي مكان ؟

ـ ليس هاماً .. نذهب إلى أي مكان .

ـ أي مكان به أعشاب .. إلى أي نهر .

ـ لكن .. ليس هنا أي نهر في القدس .

ـ صحيح .. ليس هنا أي نهر .

تحركا على مهل وخرجا من الحجرة . كان الممر غارقاً في الظلام .. لكن خيطاً من الضوء الأصفر الباهت كان ينفذ من حجرة الخياط صاحب الشقة عبر فتحة الباب الموارب وتمتمة خافتة تتردد .

توقفا للحظة عن السير .

فزع الموت حمل بي رعشة تتولاني . تمتم الخياط المسن فيما يشبه النواح .

انه يتلو المزامير .. قال افشالوم وكأنه يفسر لها .. واصلا السير ..

خرجا من الممر وهبطا على السلم الحديدي الدائري .

لم يكن في العطفة المواجهة للبيت .. كائن حي واحد. كانت البيوت الواطئة المعتمة تقف وكأن كلا منها يستند إلى الآخر في سباته .

كان القمر المنخفض قد توارى خلف الأسطح وتسربل كل شيء برداء من الظلام الثقيل الساخن .

في تلك اللحظة اقترب آتيا من عل من جهة الجنوب سرب يضم ستة أو سبعة طيور صفراء سود الأجنحة من فصيلة الكراكي . كانت تطير على هيئة رأس سهم في اتجاه الشمال وهي تنهب آفاق الفضاء في سكون وسرعان ما ابتعدت وابتلعها الظلام.

عندما خرج افشالوم وافيجيل من الازقة المتداخلة المتشابكة كحروف الكتابة العربية .. كانا قد وصلا إلى سوق « محنية يهودا » القفرة ، سارا وسط الطريق بين الأرصفة الخالية والحوانيت المهجورة ، لم يكن هناك سوى عدد قليل من مصابيح الطريق

مضاء ينشر مساحات ضئيلة من الضوء الخافت . كانت بعض القطط المتباعدة تنقب هنا وهناك في أكوام الزبالة في طرف السوق ،وإلى جوار شارع يافا وعلى مدخل أحد البيوت جلست عجوزان على قطعة سجاد بالية واحداهما تتحدث في صوت مكدود :

ان هذا الفتى يعمل في المكتب منذ عام .. وهو نائب مدير ممتاز .

مرا بها وعندما وصلا إلى شارع يافا انحرفا يميناً تجاه وسط المدينة . سارا على مهل والصمت يخيم عليهما .. متقاربين حتى كانت يداهما تتلامس كل بضع لحظات،عندما عبرا ميدان همرجماه اتجها شمالا ودلفا إلى عطفة ضيقة طويلة يحدها حائطان حجريان رماديان يكشف عنهما ضوء حائل . في جزء من سماء العطفة كانت تسممه بعض الأشجار تغطي العطفة كالسحاب، عندما بلغا هذا الجزء أطبق عليهما الظلام ثانية بدرجة حالت بين افشالوم الذي ادار رأسه في تلك اللحظة إلى افيجيل وبين رؤية ملامح وجهها .. وعندئذ سألها ..

ـ فيم تفكرين يا افيجيل ؟

ـ انني لا أفكر .. فقط شيء ما يقول في داخلي شيئاً ما .

كان صوتها يحمل رنة غريبة ربما مثل رنة الفرح ... رنة لم يفهمها أفشالوم .

وبلا قصد ارتسمت بسمة خفيفة على شفتيه . شعرت افيجيل ببسمته فرأت أن من واجبها أن توضح له ..

قالت : شيء ما من داخلي يغني .. لكن دون نغم.

ـ بماذا يغني ..

ـ انه يغني هكذا ...

«العشب الأحمر يشتعل في بطء ـ النهر الاخضر ـ النهر الاخضر يتدفق ـ النهر الاخضر ـ النهر الاخضر يتدفق للأبد .

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ ليس بعد ذلك شيء فما قلته يتكرر ثم يتكرر

ـ هذا لطيف .

كان من الممكن في تلك اللحظات ادراك انها في سعادة الأطفال .. وكان من الممكن سماعه ، هو يطري الأغنية التي يغنيها شيء ما « بداخلها » .

عندما وصلا إلى طرف العطفة حيث يضيء أحد مصابيح الطريق توقفت وانحنت وبدأت تحل أربطة نعليها .

خلعت أحد نعليها ، ثم خلعت الثاني وحملتها في يدها .

ـ هل سيري حافية أمر صعب ؟

نظر اليها جزلاً بعض الشيء ومتردداً بعض الشيء وكأنه يبحث مدى الصواب في الأمر . استقرت نظراته على وجهها . وجه نحيف إلى حد يبدو وكأنه مشحون بالألم. شفتان ممتلئتان .. مكتنزتان تقريباً . لونها كلون فاكهة صفراء نادرة . عينان صافيتان مشرقتان . موجتان من الشعر الاصفر تنسدلان على كتفيها . عندما وقع الضوء الشاحب الرقيق المنبعث من أحد مصابيح الشارع على وجهها .. بدا له وجهها جميلا ذا جمال عميق وحشي بدرجة جعلته لا يقدر .. على رفع عينيه عنه لبرهة طويلة .

نكس نظراته فرأى قدميها العاريتين القويتين اللذيذتين . لاح بذهنه ان بها شيئاً وثنياً قال :

ـ لماذا تريدين السير حافية ؟ أتشعرين بالحرارة لهذه الدرجة ؟

ـ ليس إلى هذه الدرجة ولكني أريد أن أحس .

ـ ان تحسي ؟

ـ ان احس بالتربة .

ـ ليس هنا أي تربة .. ليس هنا سوى الطريق .

ـ صحيح ليس هنا تربة .

واصلا سيرهما .. قالت : لكنني أشعر أحياناً اني أستطيع أن أحس بالتربة تحت الطريق .. ليس دائماً .. لكن أحياناً .

ـ متى مثلا ؟

ـ الليلة .. الليلة أستطيع . ساد الصمت بينهما .. بعد لحظات سألت أفيجيل :

ـ أحقاً تظن انني مضحكة ؟

ـ لماذا ؟

ـ لانني أتحدث دون منطق

ـ لا

ـ نعم . لكنك لا تسخر مني لمجرد انني اختك . لكن فلتعلم ان لدي منطقاً .

ـ انني أصدقك .

ـ انني عندما أفكر يكون لدي منطق . غير انه عندما أبدأ في الكلام تتخذ الافكار فجأة كل أنواع أشكال .. أشكال الاعشاب مثلا .

ـ ألهذا أردت الذهاب إلى مكان به أعشاب .. إلى مكان تكونين فيه مهمومة .

ـ ربما

ـ لكنني أفهمك .

ـ نعم . ولذلك جئت اليك . وساد الصمت ثانية .

ـ هل نسير طويلا ؟

ـ لماذا تسألين ؟ هل تعبت ؟

ـ كلا . كلا .. مطلقاً . لكنني أردتك أن تقولي لي .

ـ لماذا ؟

ـ لانك إذا قلت نسير طويلا ، فاننا نسير طويلا . وإذا قلت نقصر السير قصرنا السير .

لكنه لا يقول شيئاً . فقط يأخذ نعليها من يدها ويحملها بأحد أصابعه ويمضيان على هذا الحال لفترة دون كلمة واحدة .

هما الآن يسيران في شارع الانبياء . على ناصية شارع « الربى قول » وأمـــام مقهى « باط » وقف شخص بجوار جذع إحدى الأشجار العالية وكأنه في حالة تربص . كان من المستحيل تمييز وجهه في الظلام لكنه بـــدا كأنه شاب نحيف غاية في الطول لم يعره افشالوم اهتماماً ، إلا ان افيجيل لسبب ما أخذت بعض الشيء عند مرورها إلى جانبه ..

سارا إلى بعيد .. عندما لاحت لهما قبـاب المعبد الروسي التي تشبه حبات البصل سألها افشالوم :

– قولي لي يا افيجيل .. ما هو هذا « العشب الأحمر » ؟

– أي عشب أحمر ؟

– العشب الذي في أغنيتك .

– ليست هذه بأغنية .. انني لم أدع انني الفت أغنية .

– إذن .. العشب الذي في قصيدتك .. انني لا أفهم ما هو.

– لكنني أفهم .

– اشرحي لي إذن .

– لا .

لم لا ؟

ابتسمت أفيجيل وقالت .. لأنك أنت الآخر تخفي عني أسراراً .

أية أسرار ؟

في هذه اللحظة كانا يجتازان ساحـــة الروس . عند وصولهما إلى المعبد توقفا برهة متحيرين بين الاتجاه إلى شارع يافا أو التوجه صوب منطقة الأشجار وصوب حديقة دار البلدية . ..

وأخيراً صوبا ناحية الأشجار .

قالت افيجيل :

عندما وصلت إلى حجرتك كانت الشمس آخـــذة في الغروب .. وعندما دخلت

رأيتك راقداً على السرير وعلى وجهك .. على وجهك ضوء ما . ربما كان ذلك ضوء الغروب . جلست في صمت ورحت أرقبك وأنتظر صحوك .

جلست ساعة وربما أكثر . كان غريباً أن أرى وجهك دافقاً بالحياة على تلك الصورة التي بدأ بها . في البداية كان مقطباً تكسوه سحابة من الكدر .. بل وغير للحظة رداء السخط والفزع حتى ارتعبت وكدت أوقظك . بعد ذلك .. أذكر أن تعبيرات وجهك اتخذت سمة التفكير كما لو كنت تصغي لشيء ما وتقول شيئاً ما . وفي النهاية خيم على وجهك تعبير رائع من .. من الرضا والغبطة .. لكنك نمت كل ذلك الوقت . أحقاً كنت نائماً ؟

– كلا .

– كنت يقظاً إذن .. أكنت تتظاهر بالنوم ؟

– كلا .

– صمتت افيجيل لحظة كما لو كانت تفكر في الأمر . جلست على حجر تحت إحدى الأشجار .

وأخيراً قالت .. إنني أستطيع أن أفهم هذا .

جلس افشالوم إلى جوارها على الأرض .. على العشب الجاف قالت :

احك لي عما كان يحدث لك بينما كنت راقداً مغمض العينين ؟

– أحقاً تريدين أن تسمعي ؟ .

– نعم .

– سأقص عليك . بدأ الأمر على النحو التالي :

علمت أن فتاة كنت أعرفها تقيم في دار للدعارة على ساحل البحر من تل أبيب . كان وقع الخبر أليماً على نفسي .. وعلى الرغم من أنه لم تكن لي جريرة فيما حدث للفتاة فقد حدثتني نفسي بضرورة الذهاب لانقاذها من ذلك المكان . فقمت متوجهاً إلى هناك .

قالت افيجيل التي كانت تصغي في اهتمام بالغ .. على ما بدا على وجهك من سخط كان في تلك اللحظة .

لم يجب افشالوم .. وواصل حديثه : وصلت إلى المكان ساعـــة الغسق بينما كان الساحل مقفراً تماماً .

رأيت بيتاً قديمـاً من طابق واحـد تـآكل طلاؤه الأخضر بفعل الرياح المالحة . لا أذكر ماإذا كانت على القرب بيوت أخرى أم لا .. ولكن على أي حال فمن داخل ذلك البيت وحده . كان ينبعث ضوء أصفر حائل . كان الضوء خارجاً من باب دكان صغير لبيع السجائر وأدوات الكتابة ، ويبدو أنه كان غطاء لبيت الدعارة . كان هناك ضوء آخر غاية في الضعف . ينبعث من بين فتحات الشيش في أعلى السطح حيث كانت الفتاة هناك كما فهمت .

دخلت إلى الدكان . كان يجلس خلف منضدة البيع رجل يهودي خائر القوى . رأسه ملقاة على صدره وعيناه مغمضتان. كان يتظاهر بالنوم إلا أنني أدركت انه يرمقني بنظرات إحدى عينيه التي يفتحها بدرجة بسيطة .

انقضت فترة من الوقت وكل منا ينظر إلى الآخر بهذه الصورة ، كان يدرك السبب الذي من أجله جئت . غير اني لم أكن أخشاه على الاطلاق . ظل يتجاهلني إلا أنه في النهاية فتح عينيه وقال :

ماذا يريد السيد ؟

أجبته بأنني أريد شراء ظرف كي أرسل خطاباً إلى فتاة. اهتز هزة خفيفة لدى سماعه أسلوبي الساخر وخاصة كلمة فتـاة فلقـد كانت تحمل تهديداً واضحاً . قدم لي كراسة صغيرة لم أطلبها ولم تكن بي حاجة إليها . وضعت على منضدة البيع ورقة مالية من فئة خمس ليرات .

قال الرجل إنه ليس لديه فكة ، وخرج يستبدل الورقة بعملات أصغر . كان قصده واضحاً لي .. فلقد ذهب ليستنجد براعي المومسات. كنت أعلم أن حرباً قاسية تنتظرني.

خرج في خطى سريعـة منفرة . ولم أضع أنا وقتاً فأسرعت بارتقاء السلالم المؤدية إلى أعلى السطح ، عندمـا وصلت رأيت انه لا باب هناك بل مجرد حاجز . أزحت الحاجز جانباً فانكشفت أمام عيني حجرة غاية في الصغر ذات مظهر بائس.. بها سرير وصندوق

ومنضدة صغيرة عليها كوب به بعض الورود الذابلة . كانت الحجرة بكل ما فيها ملفوفة في رداء من الضوء الباهت المائل إلى الحمرة ينبعث عن فتيلة مصباح صغير من مصابيح الجاز .

والفتاة .. سألت افيجيل هامسة : الفتاة : كانت تجلس على الكرسي . وجهها إلى الشباك وظهرها تجاهي .

عندما دخلت لم تتحرك وظلت جالسة كما هي.. منحنية بعض الشيء ورأسها مائلة على صدرها. اقتربت منها ، وعندما درت حولها ووقفت في مواجهتها رأيت دماً يغطي رقبتها ويديها وثوبها. وعلى الأرضية كانت السكين التي طعنت بها حتى الموت ملقاة تحت قدميها.

شملتني حالة من الذعر . خرجت من الحجرة اتخبط بين اليمين واليسار. حتى وجدت نفسي على سطح البيت .

كان الليل قد اسدل ستره وساد الظلام التام . من أسفل كان يرتفع هدير البحر وشظايا الزبد تتناثر إلى أعلى .

لكن من فوقي انبسطت سماء تطفح بفيض من النجوم .. فيض لم أر مثله من قبل ، وفي طرف السطح وقف شخص يستند إلى السور .. عرفت انه الراعي .

– الراعي ؟

– راعي المومسات .. لكن لسبب ما سميته بيني وبين نفسي الراعي فور رؤيتي له.

– غريب .

نعم .. ولكن لم تكن في ذلك أية غرابة في تلك اللحظات . لقد كان كل ما حدث قبل رؤيتي له وما حدث بعد ذلك واضحاً ومفهوماً فهماً غاية في العمق . حدث كل شيء ، كما لو كان وفاء بقدر ، كان كأنه .. كأنه صلاة .

– نعم . قالت افيجيل في همس .. أعتقد انني أفهم هذا .

عندئذ اقتربت منه. لست أعلم ما إذا كنت في تلك اللحظة أنوي نزاله. ربما نعم وربما لا . لم أكن أعلم ما إذا كان هو القاتل حقيقة . لم أكن أعرف حتى ذلك الوقت أموراً

عديدة وكان علي أن أعرفها . عندما اقتربت منه وجدته شاباً كإبن الثلاثين. كان يقف وهو يدخن سيجارة في هدوء . أشار إلي بيده أن أنظر إلى النجوم وكأنه يشير إلى شيء مملوك له أو على أي حال شيء قريب إليه للغاية .

رفعت عيني ونظرت إلى النجوم : بدت كبيرة ، بصورة عجيبة ، قريبة للغاية ، براقة ، منها الأزرق ومنها الأصفر ومنها الأحمر . لبعضها ذيول هائلة من النور وجميعها دافقات بالحياة .. تسكب ضياءها في كل اتجاه .. تختلط وتمتزج وتتفجر لتملأ فضاء الكون كله .

وقال الشاب : هذه سوسنة الرب .

ولم أجبه فأضاف :

إن الأوراق تتفتح .. النجوم تتباعد.. الكون يصل الأزهار إلى غايته، تعود زهزة الرب إلى الانحباس .

حينئذ يعود كل شيء من جميع الأبعاد اللانهائية ليتوحد في نقطة واحدة . يتجمع كل شيء في ذاته .. في قلب السوسنة . كل الأشياء التي ضاعت وكل الأوقات التي انقضت وكل ما كان وكل من كان ، كل ما ذهب .. يعود وكل ما انتظر يصل وكل ما أعطي يؤخذ وما مات يبعث ..

لأن الكل واحد .

أصغيت إليـــه وعندما أنهى كلامه أدار وجهه عني وعاد يحملق في النجوم . كان وكأنه ينتمي إلى عالمها .

واستدرت أنا سائراً وعندما وصلت إلى مدخل الحجرة توقفت ونظرت إلى الداخل . وعندئذ رفعت الفتـاة رأسها في بطء وفتحت عينيهـا ونظرت إلي وعلى محياها ابتسامة سعادة مشرقة .

صمت افشالوم .. كانت افيجيل تجلس غارقة في أفكارها وهي ترسم بإصبعها دون وعي خطوطاً على التراب . وفي النهاية قالت في همس :

– من كانت تلك الفتاة ؟

لم يجب افشالوم .

– لقد قلت إنك كنت تعرفها .. إذن فأنت تعرفها .

– ألم يكن ذلك مجرد حلم .

– إنني أعرف من هي .

– إذا كنت تعلمين فلماذا تسألين ؟

– كي تقول لي .

ولم يجب افشالوم ..

– افشالوم .. هل هذا صحيح ؟

– نعم ..

في تلك اللحظة وبصورة فجائـية رفعت افيجيل رأسها كما لو كانت حيواناً يتسمع صوتاً غريباً . نظر اليها افشالوم .

– انظر .. همست .. انه يقف هناك .

– من ؟

– الشاب .

وفي الحقيقة كان شخص ما يقف إلى جوار جدار المعبد . كان يقف في الظلام .. لأول وهلة كان يبدو كظل أو كبقعة كبيرة .. لكنه بتدقيق النظر فيـه كان يمكن تمييز شكله كرجل . ربما كان شاباً طويل القامة صلب العود .

كان يقف دون حراك ولم يكن وجهه ظاهراً .

– هذا هو الفتى الذي كان يقف إلى جوار الشجرة أمام مقهى باط..همست افيجيل!
– كيف عرفت ؟

– لست أدري .. هيا بنا نذهب .

- ومالك وإياه ؟ ليقف كما يشاء .. قال افشالوم في دهشة .

- لست أعلم .. في الحقيقة لست أعلم .. قالت وهي تنهض من مكانها .

وعندما خرجا من ساحة الروس توجها يميناً ومرا أمام مبنى البريد المركزي ووصلا إلى شارع يافا .

كانت هناك بعض واجهات المحال ما تزال مضاءة بينما بدا في الشارع بعض عابري السبيل . تلكأت افيجيل أمام بعض الواجهات .. أمام واجهة محل المجوهرات ، وأمام واجهة محل للقبعات .

فجأة طلبت من افشالوم « أن يختفي بها فيقدم لها أي نوع من الحلويات العربية » .

- أين أجد لك الآن حلوى عربية ؟

- ان بحثنا .. وجدنا .

- انك بذاتك حلوى عربية .. قال افشالوم .

أجالا النظر فيما حولها . كانت كل المحال مغلقة . من ناحية ميدان صهيون كانت تنبعث بعض الأضواء الملونة . بعضها ثابت وبعضها يضاء ويطفأ كل حين . لكن هذه الأضواء كانت لوحات اعلانات على أسطح بعض المباني بينما بدا الميدان نفسه مهجوراً خالياً .

وعندما وصلا إلى ميدان « عدياه » رأيا محلا واحداً مفتوحاً رغم الساعة المتأخرة . بدا كأنه بوفيه أو مقهى صغير وضوء غير جريء .. ضوء كهربائي ينتشر أمام مدخله .

عندما دخلا إلى المحل وجدا نفسيهما في حجرة ضيقة بها منصة للبيع وثلاث أو أربع مناضد صغيرة . خلف منصة البيع وقف صاحب المكان . رجل هرم متيبس يلبس صدرية . كان يقف صامتاً وكأنه قد زرع في مكانه وعيناه الضيقتان تحملقان في غير اكتراث ، بل وفي بريق ساخط في جوف الفضاء . إلى إحدى المناضد جلس رجلان وامرأتان من أبناء الطوائف الشرقية . كان الرجلان في حوالي الأربعين أو أكثر بقليل . كانا يجلسان وكل منهما ينظر إلى الآخر في صمت . كان كلاهما أصلع الرأس مستديراً وقد ارتسم على وجهيهما تعبير مطموس الملامح . أما المرأتان فكانت كل منهما ترتدي فستاناً

وردياً وكانتا أصغر بقليل من زوجيهما . كانت كل منهما تجلس في مواجهة الأخرى على أحد طرفي المنضدة وهي تنحني تجاه الأخرى وحديث في صوت يقظ يدور بينهما .

في تلك اللحظة كانت إحداهما تقول : هل تذكرين الإبن الذي كان آتياً لزيارة أبيه والذي كان شكله مربعاً ؟

– نعم .. قالت الثانية .. ما شأنه ؟

– لقد تغير .. إنه الآن لا يشبه أباه بوجه عام .

في عمق الحجرة وإلى المنضدة الأخيرة جلس منفرداً رجل مسن في حوالي السبعين من العمر .. نحيف .. عظامه بارزة .. عظمتا وجنتيه مشقوقتان وشاربه دقيق .. كانت أمامه زجاجة من العرق لم يبق بها الكثير وكوب من الماء . ربما كان تاجراً من أبناء الطائفة اليونانية أو البلغارية . كانت تبدو عليه علامات الثقة في عظمته الشخصية كان منتصباً في جلسته وعينـــاه مغروستين في زجاجة الشراب وهو يتمتم أو يغني في صوت خفيض .

في إحدى الزوايا كان يتكور على أحد المقاعد قط رمادي .

اشترى افشالوم لافيجيل كوباً من اللبن ونوعاً من الفطير المغموس بالعسل . أقرب الأشياء بالمحل للحلوى العربية .

بينما طلب لنفسه كوبـــاً من القهوة وجلسا إلى المنضدة المجاورة لمنضدة التاجر المسن . لعقت افيجيل العسل بلسانها وفتتت الفطيرة إلى قطع صغيرة راحت تضعها على مهل في فمها بينما انهمك افشالوم في احتساء القهوة .

كانت هناك ذبابة كبيرة تحوم في بلادة في فضاء الحجرة وتصطدم بين الفينة والأخرى بأحد الجدران فتتلكأ عليه كالمذهولة ثم تعود إلى التحويم . من الخارج وخلف الفترينة الزجاجية كانت الظلمة سائدة ولم يكن من اضاءة سوى لافتات النيون الملونة تضيء هنا وهناك بلا معنى . فلم يكن بالخارج أحد . أما في الداخل فقد كان نور وكذلك نوع من الحرارة يشمل الجالسين .

حتى افشالوم وافيجيل اللذان كانا قد دخلا على الفور أحسا وكأنهما يستقبلان بروح الأخوة من الجالسين .

في تلك اللحظة كانت الامرأتان تتحدثان في مسائل صحية . قالت الأولى :

– إنني كما يقولون .. حساسة جــداً . عندما آكل الموز تظهر في جلدي على الفور بقع حمراء . استغرقت في التفكير برهة ثم عادت تقول :

– أنت حساسة جداً .

أومأت الثانية برأسها ولم تجب بشيء . لم يكن يتردد في المكان سوى طنين الذبابة المحومة وتمتمة التاجر المسن . فجأة قال أحد الزوجين للثاني :

– الأتراك .. هم الأتراك . لا يفهمون شيئاً . كنت مسافراً على إحــدى السفن التركية . طلبت أوراق اللعب فأحضر الجرسون ماء . قلت له .. أوراق لعب . فأحضر لي خبزاً . أحضر لي كل الأشياء عدا ما كنت أريد .

قال الثاني .. كل شيء لديهم .. ايكمال (معناها في التركية خبز) . المترجم .

– ايكمال ؟

– ايكمال .

وخيم الصمت مرة ثانية . تناول التاجر المسن جرعــة من العرق وبدأ يغني لنفسه في صوت خفيض وبانفعال سعادة .. تجشأ وأخرج من جيبه علبة صغيرة تناول منها قطعة من السكر راح يمصها ثم عاد يغني .

ومضى ثم عاد يغني .

ومضى وقت على هــذا الحال . وفجأة فتح الباب في بطء ودخل رجل إلى المحل . كان رجلاً في حوالي الستين .. قصير القامة مجعد الوجه وعلى رأسه طاقية حائلة اللون . كان سرواله أكبر من مقاسه . وعلى الرغم من أنه كان محزوماً بحزام فقد بدا وكأنــه على وشك السقوط . كانت تحلق على وجهه ابتسامة حية . من هيئته فهم الجمع انه حارس ليلي في المنطقة .

عندما دخل اختلفت الأمور بعض الشيء . فقد سارع صاحب المحل الذي كان واقفاً حتى هذه اللحظة في جمود وعدم اكتراث وقــدم للضيف على الفور بعض الخيار

المخلل ثم ألحق به كأساً من الصودا . تناول الحارس قطعة من الخيار وكأنه يتناولها سهواً ثم تكلم موجهاً حديثه إلى صاحب المكان وحده متجاهلاً بصورة كاملة سائر الحاضرين .

– ماذا تقول إذن في الأمريكيين « بتوعك » ؟

لم يدرك صاحب المكان الذي استيقظ إلى حد ما من ذهوله ما الذي تشير اليه عبارة الحارس . راح الحارس يقص مجموعة معقدة من الأخبار التي سمعها من الراديو قاطعاً بأن الأمريكيين هم الذين « يحركون القدر » فيما يرويه من أحداث . كان يتكلم بحماس شديد دون أن يتراجع عن رأيه .

انهم يريدون أن يبيعوا كل شيء لناصر كي يتوددوا إليه .. هذا الكنيدي .. صديقك .. آه ؟ أنظر أي أصدقاء لك .

كان صاحب المكان فيما يبدو معتاداً على مثل هذه المناقشات مع الحارس وكان يبدو عيياً ثقيل اللسان ولذا كانت تظهر عليه دلائل الحيرة . حاول أن يلقي المسئولية في تلك الأحداث على وزير الخارجية راسك غير ان محاولته اثارت حمية الحارس بصورة أكثر :

– راسك .. تراسك ! انك لا تعرف ماذا تقول .. انه مجرد صفر . مجرد منفذ للأوامر .

كان قد أتى على الخيار . رفع كأس الصودا وتناول جرعة كبيرة ثم واصل حديثه . سأشرح لك سياسة الأمريكيين .. وراح يتحدث في هذا الموضوع فترة من الوقت واجابه صاحب المكان بما أجاب . ثم انتقل الاثنان بعد ذلك إلى الحديث عن محاولة جرت في الليلة السابقة للسطو على محل للمجوهرات في المدينة .

في تلك اللحظات أصبح حديثهما هادئاً يحمل رنة التأسي . وفي النهاية نظر الحارس في ساعته وافرغ ما تبقى في الكأس في حلقه دفعة واحده ثم خرج من حيث أتى .

طيلة الوقت .. كان الحاضرون يتسمعون الحديث فيما عدا التاجر المسن الذي لم يتعطف على المتحدثين ولو حتى بنظرة وبقي جالساً كما كان وعيناه مغروستان في

الزجاجة الموضوعة أمامه وهو يغني بنفس الصوت الخفيض . تجشأ وتناول قطعة من السكر . استقرت عيناه على الفتى والفتاة الجالسين إلى المنضدة المجاورة . بدا كما لو كان لم يلاحظ وجودهما من قبل . جعل يتأملها بعينيه الهادئتين المشحونتين بالكبرياء للحظة طويلة ثم لاح على محياه ما يشبه ظل ابتسامة . فتح علبته ثانية ونظر فيها بتدقيق .. اختار قطعة من السكر قدمها إلى افيجيل وقال :

ـ خذي .. فهذا طيب .. ضد الزكام . واقي للحلق .. ضد كل شيء .

ابتسمت افيجيل ووضعت قطعة السكر في فمها .. رد الرجل لها الابتسامة بمثلها وعندئذ سألته في لطف أن يترجم لها معاني الكلمات التي كان يتغنى بها . بـدا ان طلبها قد بعث فيه احساساً بالارتياح والرضا .

إنها أغنية اسبانيولية .. لادينو هي أغنية يغنيها الشباب . يقولون :

في الساعة السادسة مساء سأذهب .. مع رفاقي .. « مع رفاقه » .

وأمام شباكك سأقف .. « سيقف أمام شباك فتاته » .

وسأعزف على الماندولين . « سيعزف على الماندولين » .

ارتسمت ابتسامة رقيقة على وجه الرجل المسن المتكبر ولزم الصمت بضع لحظات وكأنه غارق في أفكار بعيدة ثم واصل شرحه للاغنية :

الآن يشرح الفتى لماذا يعزف .. ظلموني ظلماً فادحاً .. « يعني حساده » .

أشاعوا انني مت .. راحوا يشعلون الشموع « يعني شموع الذكرى لمن يموت غير انه لم يكن قد مات » .

وسلبوني الفتاة الحلوة « سلبوه .. سلبوا الفتى عندما كانت نائمة عنده » .

« أي أنهم سرقوها دون أن يشعر .. هكذا فعلوا به » .

في هذه اللحظة مرت افيجيل يدها وأمسكت بذراع افشالوم .. فنظر اليها مشتاقاً لرؤية شحوب وجهها .

ـ أنظر إلى الخارج .. همست .

التفت تجاه الشارع غير انه لم ير شيئاً .

لقد كان نفس الرجل الشاب .. تمتمت .. لقد نظر الينا .

– لماذا شحب وجهك . قال افشالوم .

– وهل شحبت ؟

– نعم . وكل هذا لأن شخصاً نظر اليك لحظة ؟

– كلا . وإنما لأنه ذو شفتين حمراوين .

– شفتين حمراوين .

– نعم . استطعت الآن أن أرى وجهه . كانت شفتاه مكتسيتين بالحمرة .

– غريب .

– ربما طلاهما بأحمر الشفاه . لم تكونا هكذا من قبل .

– ماذا تعنين بقولك .. من قبل ؟

– لست أدري .. لقد رأيت وجهه من قبل لكن لا أذكر أين ومتى ربما .. ربما منذ بضعة أيام .

نظر اليها افشالوم متفكراً . خرج صاحب المحل من خلف منضدة البيع ، وراح يدور على الجالسين . دفعوا له ونهضوا من أماكنهم وبينما هم في طريقهم للخروج بدأ يضع الكراسي مقلوبة على المناضد .

في البداية خرج الموظفان وزوجتاهما وبعدهم التاجر المسن وفي النهاية خرج افشالوم وافيجيل .

انبسط الميدان أمامهما مهجوراً خالياً . حتى الغريب صاحب الشفتين المطليتين بالحمرة لم يظهر في أي من أركان الميدان . لا هو ولا غيره .

سارا على مهل تجاه الشرق . وعندما وصلا إلى حي « نحلت شقعاه » دخلا إلى عطفة مظلمة . كانت العطفة ضيقة وطويلة كالممر . ظلت افيجيل مضطربة لفترة ، ولكن عندما بدأ افشالوم يضاحكها تبدد ضيقها دفعة واحدة .

كان افشالوم يسائلها مضاحكاً عمـــا إذا كان لذلك الشخص الغريب ذيل وقرنان بالإضافة إلى شفتيه المحمرتين وربما أنف صناعية كذلك .

كان السكون العميق الذي يلفهما من كل اتجاه يسدل عليهما ستاراً من السحر الغريب . كان يغشاهما نوع من الجزل المتزايد . نظرت افيجيل إلى افشالوم وطلبت اليه أن يخبرها ما إذا كان الوقت غير متأخر . ثم بينت له انها لا تنوي على الاطلاق العودة إلى البيت لكنها تريد فحسب أن تعرف الساعة .

قال افشالوم .. الساعة طيبة وموفقة .

– كلا .. قل لي الحقيقة .

نظر في راحة يده فلم تكن لديه ساعة ثم قال .. الواحدة بعد منتصف الليل .

– الواحدة بعد منتصف الليل .. قالت في فرح.. إن هذا ما كنت أعتقده بالضبط. نظرت في ساعتها على ضوء النجوم الباهت ثم قالت :

نعم الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . كيف عرفت ؟

– من راحة يدي .

هل تعلم انك إنسان مضحك ؟

– نعم .

لكن موافقته لا ترضيها .. فتقول.. كلا إذا كنت إنساناً مضحكاً فإن هذا علامة على انك إنسان غير مسئول . ومـــا دام الأمر كذلك أعد إلي نعلي . فمن المحقق انك ستضيعها .

في هذه اللحظة توقفت في منتصف العطفة المظلمة الغريبة ، وبدأت تضحك .. تماماً كالأطفال . وفي النهاية يقول افشالوم إنها إذا لم تتوقف عن الضحك كمن « قرصته ذبابة مجنونة » فإنه يمضي ويدعها وحدها في الظلام .

– كلا . إنك لن تتركني .

– سأتركك .

– كلا لن تتركني .. قالت وهي تضع ذراعها في ذراعه .

– حسناً . إذن تمسكيني بالقوة .

ليس هذا من الحكمة . عندما نقابل شرطياً سأقول له فيخلصني .

– ربما لا يعرف الشرطي العبرية .

– إذن أخاطبه بالاشارة .

– اعمل لي اشارة صغيرة إذن .

باعدا السير وخرجا من المطفة ووصلا إلى حديقة المدينة . على يسارهما وعلى مساحة معينة كانت تمتد جبانة المسلمين . كانت تربض هنا وهناك بضع شجيرات قائمة وتنتصب مجموعة من الأشجار قصيرة القامة وفي الوسط يمتد طريق واسع مترب .

قال افشالوم .. نعم إنني أريد أن أعمـل لك شيئاً . ليس اشارة . إن الاشارة لا تساوي شيئاً . كنت أود أن أقدم لك هدية . بعد اطراقة لحظة سألها :

– هل أنت في حاجة إلى الصاق شيء ؟

– الصاق شيء ؟

– نعم إن لدي لاصق في الحجرة . اشتريته بسعر رخيص .. أنبوبـة .. يلصق كل شيء .. الخشب .. الجلد .. الزجاج .. ربما انكسرت لك مرآة صغيرة كان تقريباً يحفزها على القبول .

غير انه لم تكن بها حاجة لالصاق أي شيء فراحت تضحك وضحكاتها ترن .

وتردد في أنحاء الحديقة المهجورة .

– كلا .. لم تكن هذه فكرة موفقة .. لكنني أستطيع أن أعمل لك شيئاً آخر .

– ماذا ؟

– أركبك على ظهري من هنا وحتى نهاية الحديقة .

ـ لكنني لا أريد الركوب .

ـ خير لك أن تفعلي .

ـ لا .

يمضيان في السير ..

ـ لو كنت تستطيع الطيران لوافقت .

ـ إلى أين تريدين الطيران ؟

ـ أريد الطيران إلى اسبانيا .. إلى سبيلبا .

ألم أقل لك مرة انه يمكن أن يقبض عليك هناك .

ـ إذن نطير إلى لندن .

ـ ما الذي تريدين رؤيته في لندن ؟

ـ أريد رؤية معرض تلك المرأة « اسمها إيه دي » . يقولون ان هنـــاك تماثيل من الشمع لكل أنواع الناس .

جعل افشالوم يفكر قليلا ثم قال : نعم ولكنني لا أستطيع الطيران .

ـ ليس مهماً . قالت وهي تلمس ذراعـــه في رفق . لا تحزن . خير لنا أن نسير فحسب . هكذا مجرد السير في الليل . فلنسر أكثر .

ـ إلى أين ؟

ـ حتى نصل إلى أي مكان .

بعد اطراقة قصيرة قالت .. ما اسم هذا المكان ؟

ـ حديقة الاستقلال .

إذن نواصل السير حتى نصل إلى أي مكان .

لكنهما بعد أن قطعا مسافة من الطريق وعلى مقربة من باب الحديقة تراجعت عن رأيها وقالت :

يوجد هنـــا عشب .. تعال نجلس . وأضافت في لهجة تفسيرية .. من المحقق ان الأعشاب حزينة الآن في الليل. ستسعد إذا بقينا هنا قليلاً .

جلسا على العشب إلى جوار الطريق في صمت .. من مكان ما كان ينبعث صفير صرصار ومضى بعض الوقت على هذا الحال .

قالت .. قص علي قصة .

ـ لست أعرف قصصاً .

ـ انك تعرف وانا أحب القصص .

فكر افشالوم بضع لحظات ثم بدأ يقص :

في ذات مـــرة كانت هناك ثلاثة دببة . الدب الأكبر والدب الأصغر والدب الأوسط ..

كلا .. إنك تتحدث كما لو كنت طفلاً بسيطاً ..

وساد الصمت .

تسطحت افيجيل على ظهرها وهي تقول : رأيت أمس في الحلم طبقاً طائراً كبيراً كله من الفضة . كان اليوم جميلاً مشرقاً واقترب الطبق وهبط تجاهي وعندما وصل إلى الأرض انفتحت به طاقة ورأيت رجلاً خلف المنصة وعلى المنصة أطباق مليئة بالفطائر والكمثري وفواكه متنوعة . أخذت بعضاً من كل صنف وعلى الفور عاد الطبق الطائر فحلق وابتعد حتى بدا كنجمة صغيرة لامعة .

أغلقت افيجيل عينيها وبدت وكأنها قد نامت . لكنه بعد مرور بعض الوقت سألت في تمتمة :

ـ كم تظن الساعة الآن ؟

ـ لست أعلم .. انظري في ساعتك .

ـ لكنني لا أريد أن أفتح عيني .

ـ لماذا ؟

ـ لأنني أرى وجهك هكذا .. أرى وجهك طيلة الوقت.

مدت له يدها .. قرب يدها وجهه مدققاً النظر في عقارب الساعة . تصل إلى أذنيه دقات الساعة ، يدها مسترخية في يده والساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل .

فجأة أفاقت افيجيل وهبت واقفـــة . جعلت تصيخ السمع . وزاحت تنظر فيما حولها دون أن ترى شيئاً عدا بضع أشجار هنا وهناك ، وافشالوم ينظر اليها مشدوهاً .

قالت في صوت خافت .. أشعر انه هنا .

ـ من ؟ انك مريضة بالأوهام يا افيجيل .

ـ كلا انه يختبىء .. ربما خلف إحدى الأشجار .

ـ سأبحث عنه .. قال افشالوم وهو ينهض من مكانه .

ـ كلا . دعه . فلنذهب نحن من هنا .

ـ ماذا . ألست خائفة ؟

ـ بلى .. ومع هذا فلنذهب .

ـ إلى أين ؟

ـ نذهب بعيداً .

سارا على الطريق المتجه جنوباً . لم يلتقيا بأي شخص طيلة سيرهما . كل فترة من الزمن كانت تمر إلى جوارهما سيارة . في البداية كان سيرهما في شوارع متسعة وطويلة وبعد ذلك دخلا إلى حي مشتجر بالحواري الضيقة .

وبعد مرور ساعة كانا قد تجاوزا الأحياء السكنية ووصلا إلى منطقة الخلاء . على أحد جانبي الطريق كانت تسحق بمجموعة من أشجار السرو ومن خلفها بستان وعلى الجانب الآخر كان ينبسط حقل مقفر : إلى جوار الطريق كانت تمتد قناة ري مليئة بالأشواك ، وشجيرات السنط . انحنى افشالوم على قدمي افيجيل وألبسها نعليها . ثم أمسك بيدها ووثبا معاً فوق القناة ، وراحا يخطوان على أرض الحقل . من اتجاهات مختلفة ومن جوف الظلام كانت تتردد أصوات الصراصير والجنادب في نغمة رتيبة عنيدة .

أخذ سطح الأرض الخالي من أي أثر لطريق أو مدق يرتفع بصورة تدريجيـــة .

وصلا في صعودهما إلى الهضبة وتجاوزا انبساطها ، ثم بدآ في الهبوط . بالتدريج كان المنحدر يزداد وعورة وحدة في انحداره . كان المنحدر يهبط إلى خندق ضيق مزروع بالصخور والشجيرات . خندق ظل يطول ويمتد أمامهما وكأنه سرداب . لم يكن هناك طريق آخر يقود إلى أعلى .

ولأنهما لم يكونا يريدان العودة من حيث أتيا فقد كانا مضطرين إلى الهبوط في الخندق. مضيا على هذه الصورة زمناً طويـــلا بين أسوار الصخور المنتصبة عن يمين وعن يسار . كانت الأرض تحت أقدامهما مفروشة بالجذور المتشابكة وامامهما كانت مجموعة مشتجرة من الأغصان النباتية من بـــين الصخور تسد الطريق وتغلقه . من فوقهما كانت تظهر بعض النجوم المضيئة بينما غمر الظلام ما حولهما. فجأة انبعث من داخل الأغصان طائر مفزوع. ثم ما لبث ان اختفى .

– هل ترين طريقك يا افيجيل ؟

– نعم يا افشالوم

جعلا يشقان طريقهما ، يتعلق بهما غصن تارة وتعترضهما صخرة تارة أخرى .

– إلى أين نذهب يا افشالوم ؟

– إلى الامام

– حسناً يا افشالوم .

الآن بدأ الممر يتسع ويأخذ في الصعود ، أصبحت الأغصان أقل تشابكاً وبدت السماء فوقهما أكثر اتساعاً . بات السير أكثر سهولة .

بعد فترة من الوقت خرجا من الممر ..

تسلقا سلسلة الصخور واعتليا بضع درجات حجرية فبلغا قمة الهضبة .

ساراً فترة طويلة في صمت خلال المنطقة المنبسطة المليئة بالأحجار الصغيرة والشجيرات الشوكية . من حولهما كانت الجبال شامخـــة كالظلال الثقيلة .. منها البيضاوي ومنها المستدير . من داخل الجبال كان ينبعث عواء ابن أوى وكأنه صوت ضحك كئيب ،

غريب ، مجنون . لكنه كان ضعيفاً آتيا من بعيد وسرعان ما انقطع . بعد قليل من السير لاحت لهما في جوف الليل اضواء باهتة قليلة .

ـ هل هذه هي القدس يا افشالوم ؟

ـ كلا .. القدس خلفنا اننا نتجه جنوباً .

ـ هل تميز الاتجاهات بالنجوم ؟

ـ نعم . أنظري .. هذه نجمة الشمال والنجم القطبي خلفنا .

من فوقهما ومن قبة السماء كانت النجوم تضيء في هدوء وشحوب .

كانت كل نجمة عالماً بذاتها .. عالماً بعيداً معزولاً غامضاً .

ـ اذن فما هي هذه الأضواء ؟

ـ ربما كانت بيت لحم .. انها تبدو كالعروس المحلقة على سطح الأرض متعالية إلى السماء ..

ـ لماذا كالعروس ؟

ـ لأنها تتحلى باللآلىء .

عندما وصلا إلى ركن الهضبة شعرا بالتعب فتوقفا . كان يحيط بهما بستان صغير مهجور به بضعة أشجار من التين والزيتون بضع كرمات متناثرة .

ـ نحن الآن وحدنا .. قال افشالوم .

هل يمكن أن نكون قد عبرنا الحدود ؟

ـ يمكن .

ـ إذا وقعنا في يد العرب فهل يقتلوننا ؟

ـ ربما يقتلوننا .

ـ نعم . ومع ذلك فان هذا لا يهمني الليلة . انني لم اكن بمثل هذه السعادة قط .

في تلك اللحظة ظهرت جماعة من الكراكي آتية من الجنوب ومصوبة إلى الشمال . كانت أكبر قليلا من تلك التي ظهرت لهما من قبل . كانت تضم حـــوالي اثني عشر طائراً .

كانت الجماعة جزءاً من القافلة المرتحلة إلى بلاد الشمال وقد تفرقت إلى جماعات عديدة صغيرة تطير على مسافات متباعدة دون أن تخشى أن تضل واحدة منها الطريق . ظلت الكراكي تحلق في سكون ، حتى اختفت في جوف الظلام .

انقضى بعض الوقت . زحف شيء ما بين الشجيرات ربما كان حـــرباء .. وقف افشالوم وافيجيل متلاصقين وهما ينظران في صمت إلى أعماق الليلة الساحرة التي تكتنفهما، كانا يصيخان السمع للهدوء .

بدا لبضع لحظات ان كل ما يدور ليس سوى حلم .. حلم عميق . لمس افشالوم بلا وعي ذراع افيجيل باصبعه كما لو كان يريد أن يحس بأنها حقيقة إلى جواره .

ابتسمت هي . علها فهمت .

ـ هل أردت أن تراني ؟ سألت في صوت خفيض .

ـ متى ؟

ـ قبل ،انتظرت طول الليل طلوع الفجر لأنني كنت أريد رؤيتك .

ـ لكن لماذا كنت تعتقد اني سآتي مع طلوع الفجر .

ـ لم أكن اعتقد انك ستأتين .

انتظرت طلوع الفجر لأنني لم أكن استطيع رؤيتك الا عند طلوعه .

وعندما طلع الفجر ذهبت إلى حديقة البلدية ...

ـ نعم ولم أكن أنا هناك ..

ـ نعم عندما وصلت إلى الحديقة بدا كل شيء يتألق بالنور في بطء . عندئذ ظهرت الزهور التي في الحديقة وهو ما كنت انتظره طيلة الليلة . كانت هناك ورود صفراء

وحمراء وزرقاء ووردية .. غير أن نظري تركز على وردة كبيرة بيضاء كالثلج كان في بياضها الرائع بريق لا أستطيع وصفه بالكلمات ولا يمكن فهمه .. بريق كأنه علامـــة عميقة سريعة وثنية .. علامة لاحظتها مرة في احدى لوحات ليوناردو .. لوحة العذراء مع وليدها وأنا المقدسة . في تلك المرة لم تجذبني وتشد انتباهي وأنا أطل في اللوحة .. هيئة الوجوه المبتسمة المتألقة ولا حتى المنظر الطبيعي الخيالي المحيط بهما بل شدني ـ ولعل هذا غريب ـ فحسب منظر قدم العذراء .. البيضاء .. العارية ...

كان احساسي وأنا أقف في الحديقة في تلك اللحظات .. لحظات التنوير .. لحظات السكون .. لحظات تجدد الكون هو نفس احساسي بينما كنت أرقب قدم العذراء .. دققت النظر في تلك الوردة البيضاء ولمستها أصبعي فرأيت ...

ـ ماذا رأيت ؟

ـ رأيتك يا افيجيل .. رأيتك أنت .

ـ كلا . لا تقل هذا يا افشالوم .

همست في صوت مختنق .مدت يدها إلى وجهه وكأنها تريد أن تسكته لكنها دون وعي راحت تداعب شعره .. تلمسه ثم تتراجع عنه . كانت يدها كالضالة لا تعرف ماذا تفعل . اكتنفها الصمت لحظات طويلة بعدها قالت في همس ..

ـ نعم .. قل لي ماذا رأيت .

رأيتك يا افيجيل .. كنت أنظر إلى داخل الوردة وكأني أطل داخل عينيك داخل نفسك . انك جميلة يا افيجيل .. جميلة ونقية كالوردة .. كالفجر الذي أضاءها .. كالماء الذي سقاها ..

لاحت الدموع في عينيها . امسك وجهها بين يديه فأحس بمدى سخونة وجنتيها . احس برائحة جلدهـــا وشعرها المسكرة . كانت شفتاها ترتعشان وعيناها المشرقتان تطفحان بتعبير من الألم والرضا في نفس الوقت . كانت بكل ما فيها في تلك اللحظات جزءاً من حلم .

مدت ذراعيها فطوقت بها جسده وبعينين مغمضتين وفي بطء وعذوبة وانقياد احتضنته . وقفا هكذا برهة طويلة . بعد ذلك فتحت عينيها وعندما نظرت في عينيه تمتمت : ان روحي تحتضن جسدك الآن يا افشالوم .

وفجأة بدأت ترتعش . أراد أن يطمئنها فضمها اليه وجعل يداعب شعرها وكتفيها العاريتين في رقة .

أحس بأنفاسها الحارة على وجهه وعنقه وسمعها تتمتم بكلمات مختلفة ... كلمات غريبة ربما قالتها في أوقات أخرى وطفت الآن على سطح ذاكرتها المضطربة .

عدوت طول الطريق .. طول الطريق اليك .. في الشوارع .. لا تدعني اذهب عنك ثانية .. لا تدعني أذهب مطلقاً .. سأكون لك .. سأكون معك دائماً .. انني أحبك .. انك بداخلي .. انك تتدفق داخلي كالنهر .. وتشتعل .. تشتعل داخلي كالعشب سأحضر لك زهوراً .. سأحضر لك زهوراً حمراء .. زهوراً زرقاء وصفراء سأحضر لك ثمرات .. حينما تذهب سأكون .. دائماً سآتي اليك ودائماً ستجدني .. ان نزلت إلى الماء سأكون في الماء .. ان قطفت ورقة شجر سأكون في ورقة الشجر .. ان اكلت خبزاً سأكون في الخبز .. ان فتحت الشباك في الليل سأكون في الظلام ..

تحول حديثها إلى همهمة غير مسموعة ثم انتهى إلى الصمت . ولم يقل هو شيئاً فقد أدرك انه لم يعد يمكن الحديث بالكلمات . في بطء خفت الرعشة التي تولتها . كان وجهها يواجهه باشعاعات من نشوة العرفان .

خلعت قميصها وسوتيانها في بطء والقتها على الأرض . بدت لافشالوم في وقفتها عارية الفخذين والصدر مديدة القامة قوية لذيذة وكأنها تنطوي على شيء ما من صورة آلهة وثنية .

وكما لو كان في حلم بسط يده يريد أن يلمسها غير أنها برقة لا توصف امسكت بيده وبعد ان طبعت عليها قبلة تركتها لتهبط .

ظل افشالوم واقفاً في سكون . جثت تحت قدميه .. أمسكت يديه بيديها والصقت شفتيها بهما . راحت تلثمها في لهفة وصمت .. قبلات طويلة متكررة .

من حولهما كان كل شيء ملفوفاً في الظلام .. كان جسدها العاري .. جسدها المشع الوضاء هو الشيء الوحيد الساطع في جوف الظلام .

التصقت شفتاها الملتهبتان براحة يديه للحظة . كانت كأنها تنطوي على بعض من جوهر اللانهائية . جذبته في ترفق اليها فركع إلى جانبها واحتواها بين ذراعيه . ضمها إلى قلبه . قبّل ما بين عينيها وفمها ورقبتها وقدميها الوثنيتين. بعد ذلك تمددا على الأرض بين الأعشاب الذابلة وشجيرات السنط .

من فوقهما وفي كبد السماء كانت تمر في تلك اللحظات جماعات جديدة من الكراكي . أعناقها منحنية ورؤوسها مصوبة للامام تفرد أجنحتها ورؤوسها مصوبة للامـــام تفرد أجنحتها السوداء . بينما سيقانها ملتصقة وممدودة للخلف . كانت تبحر في بحر الظلام السماوي كظلام قامة كبيرة داخل الظلمة الشاحبة .

مرت أسراب وأسراب من الكراكي متتابعة متلاحقة .

كانت هذه الأسراب فيما يبدو قوام الجماعة المهاجرة الرئيس . أما ما كان قد ظهر منها قبل ذلك فلم يكن سوى طلائع للقوة الأساسية . على فترات متباعدة كان يتردد صوت أشبه بنداء قصير .

وفيما عدا هذا كان السكون مخيماً ، من أسراب الكراكي ما كان صغيراً يضم خمسة أو ستة طيور ، ومنها ما كان يضم عشرين أو أكثر .. غير انهم جميعاً كانوا يتحركون على شكل رأسي سهم صوب هدف لا يحيدون عنه .

مرت رؤوس الهام الأولى على ارتفاع عال .. ابتعدت واختفت في الظلام وجاءت أخرى وابتعدت واختفت ، ومرة ثانية وصلت رؤوس سهام جديدة تسبح على أمواج الصمت والظلام تشق طريقها إلى الامام وكأنها رسل أو مبشرون ترف فوق الهضاب والوديان .. فوق الحقول والأشجار .. فوق الأرض الغارقـــة في السبات إلى بعيد تجاه الشمال .

فجأة اعتدلت افيجيل كالمذعورة . بين الأشجار وعلى مسافة ما ظهر شخص، رجل

كأنه شبح الفرع وقد تولد من العدم . لم يكن وجهه ظاهراً في الظلام ، الا ان افيجيل عرفته على الفور . كان ذلك هو الشاب ذا الشفتين المسوحتين بالحمرة . كيف وصل إلى هنا ؟ هل يمكن أن يكون قد تعقبهما في تكتم متخفياً على طول الطريق؟ والأمر الغريب انه لم يقف ساكناً ، بل كان يتحرك وكأن به رعشة أو كأنه يتقيأ .

ومع ذلك فان صوتاً لم يصدر عنه .

تصور افشالوم للحظة ان ما يراه ليس سوى خداع بصر..غير أنه أدرك أن الأمر غير ذلك . كان شخص الرجل واضحاً جلياً للعين وعلى بعد حوالي عشرين خطوة منهما . نهض افشالوم على مهل وانتصب على قدميه .

لا تقترب منه . همست افيجيل .

– عله مريض ؟ تساءل افشالوم .

وفي تردد اتجه نحوه ، وقبل أن تستطيع افيجيل التي سارعت بارتداء قميصها ان تستوقفه كان قد ابتعد عنها بضع خطوات . رأته وهو يسير في الظلام إلى مـــا بين الأشجار مقترباً من الشخص الذي أصبح يقف وكأنه قد سمر في مكانـه دون حركة أو صوت .

لم يستغرق ما حدث هناك في الظلام بين الأشجار إلا لحظة غاية في القصر ولم يكن واضحاً لافيجيل من المكان الذي تجلس فيه .. ففي لمح البصر بدا الشخصان وكأنهما يمتزجان في جسد واحد غير واضح المعالم .. تحرك شيء ما ثم انبعث صوت غامض قبيح وتلته آهة خاطفة . انسل أحد شطري الجسد بين الأشجار واختفى كأنه لم يكن. أما الثاني فقد انحنى فجأة وركع على الأرض ... قفزت افيجيل على قدمها وقلبها يدق في وحشية وهرولت إلى المكان وعندما انحنت على الأرض رأت أفشالوم يجلس منكمشاً دون حراك . يداه مسيبتان ورأسه ملقى على صدره . كم كانت جلسته هذه غريبة .

نادته افيجيل فلم يجب

تحرك شيء ما بين الأشجار وانبعث من نفس المكان صوت كأنه فحيح صادر إما عن

حنجرة كائن بشري ، أو عن حنجرة حرباء ... ركعت افيجيل على ركبتها ووضعت يدها على كتف افشالوم . مست أطراف أصابعها شيئاً لزجاً . كان ذلــــك دماً . خيط رقيق من الدم ينشع ويسيل من تحت عظمة الترقوة على صدره وذراعه .

لم يكن ذلك الا ان السكين قد أصابت أحد الشرايين .. سرت الرعشة في جسد افيجيل كله وتولاها الفزع . ظل الدم يفيض ليس في غزارة ولكن دون توقف . ما الذي كان عليها أن تفعله ؟

ضغطت بأصبعها على الجرح لتقلل من فيض الدمــــاء فسال الدم على أصابعها .. على راحة يدها .

كانت تعلم ان ذلك ليس اسعافاً للمريض .

خلعت عنه قميصه مزقته خلقاً وحاولت أن تضمد صدره .. فجأة سرت رعدة شديدة في جسد افشالوم ، وفي بطء وجهد غاية في العسر مد يده اليسرى فأمسك بذراع اخته وبدا ينهض من مكانه . في النهاية نهض ووقف وخطى خطوتين أو ثلاث للامام في تراخ ..

توقف ودفعة واحدة وبلا صوت مال بجسده ليسقط بين ذراعي اخته . أمسكت به بكل قواها وأرقدته في ترفق على الأرض . تمدد على ظهره يتنفس في بطء دون أن يتأوه ، أو يصدر صوتاً . كان يرقد وعيناه مفتوحتان ، ينظر اليها في صمت .

ما الذي كان عليها أن تفعله ؟ نظرت اليه ونظرت فيما حولها متحيرة . من حولهــا كانت تمتد رواب وهضاب .. حقول وصخور وأدغال والصمت والظلام مخيمان . بينما هي في حيرتها إذا بنباح كلب ينبعث من مكان ما غير قريب وغير بعيد . أفليس هـــذا دليلاً على وجود مستوطنة .. على وجود أناس في مكان قريب ؟ عليها أن تصل اليهم وتنشد المساعدة وتحضرهم إلى هنا . أو على الأقل يمكنها ان تحضرهم إلى هنا . أو على الاقل يمكنها ان تحضر بعض الماء لتغسل به الجرح وترطب وجهه وتسقيه .. فلا شك انه غاية في الظمأ .

ربما كانت هناك على مقربة من البستان بئر مهملة . ربما كانت هناك بعض المساكن

خلف هذه الهضاب . لكنه كان من العسير رؤية شيء أو معرفة شيء . تكرر النباح ؟ اتجهت افيجيل إلى الناحية التي صدر منها الصوت . مرت على سور من الحجارة ووصلت إلى منطقة من الصخور مليئة بالأحجار الصغيرة التي بدت رمادية على ضوء النجوم الخافت، تعثرت قدماها في حجر فانقطع سير حذائها . ألقت به وراحت تعدو حافية إلى بعيد .. لكن ما هذا .. من أين انبعث الصوت ؟

فلقد تردد النباح ثانية ولكن من اتجاه آخر هذه المرة . توقفت افيجيل في مكانها تتسمع في تردد . بدا لها ان الصوت قد جاء من الجانب الآخر .. من ناحية تل قاتم مغطى بالشجيرات .

اتخدعها اذناها ؟ أو ربما كانت هذه أصداء تتردد وتأتي من اتجاهات مختلفة ...

دارت على عقبيها وعادت فعبرت البستان . مرت أمام افشالوم الذي كان يرقد ساكناً وجرت صوب التل .

أصابتها الشجيرات الشوكية بجروح في ساقيها غير أنها لم تشعر بذلك . لم يكن بد من الاصطدام بالأشواك وهي تقفز هنا وهناك .. لكن .. إلى أين يؤدي هذا الطريق اللاطريق ؟

لم يكن يمكن تمييز شيء على بعد عشر خطوات . ولم يكن أمامها سوى مجموعة من الأشجار القصيرة القاتمة تعلوها شجرة زيتون وحيدة منفلقة على هيئة قرنين تتدلى منها الخصلات . ظلت تثب مواصلة سيرها .

فلم يعد نباح الكلب يتردد لم تبق أمامها أية علامة تسير على هداها . أليست بسيرها هذا تضل في هذا التيه من الأشجار والظلام ؟ .. كان عليها أن تخرج من هذا المكان وأن تصل إلى أي مكان مأهول . ولكن أليست هي في ابتعاد عن المكان المأهول بدلاً من أن تقترب منه ؟ .. لم تكن في حقيقة الأمر قد ابتعدت عن البستان الا بحوالي مائة خطوة أو أكثر بقليل .. إلا أن الظلمة طمست تفكيرها . اختلفت الظلمة ، طمست تفكيرها .. اختلفت الأشكال في نظرها واضطربت المقاييس وبدا لها بعيداً ما كان قريباً . وصلت الآن تقريباً إلى قمة التل .. يمكنها الآن رؤية ما في الجانب الآخر من أعلى . مدت يدها

لتتعلق بأحد الأغصان الجرداء في شجرة الزيتون وإذا بنظرها يقع فجأة على الشاب .

كان واقفاً في مواجهتها إلى جوار الشجرة تماماً وكان هناك شيء لا يصدق في مرأى وجهه الذي كان غاية في القرب وظاهراً في وضوح تام ..

كانت الحمرة قد اختفت من على شفتيه وابتسامة تفيض عليهما .. ابتسامة خجل .. ابتسامة الاعتذار كان يبدو معهـا على وشك أن يتفوه بكلمات حييـة .. كان الموقف مرعباً وانقضت دقيقة تقريباً والاثنان يقفان في تحجر .. وعندئذ وقـع الأمر الذي لا يصدق فلقد راحت الابتسامة تتسع على وجه الفتى أكثر وأكثر لدرجة الضحك لكن دون صوت . ضحك عقيم مصطنع بصعوبة ، انفرجت شفتاه وتمتم: اغفري لي .. ربما . خطا في تردد خطوة صغيرة للامام .. أغفري لي .. عاد يكرر .. ربما تريدين .. أن تجلسي .. على .. معطفي ؟

وفي هذه اللحظة أهتزت كمن يفيق من حلم . تراجعت خطوة أو خطوتين وبدأت تعدو على المنحدر : لم يتعقبها الرجل . بدا فقط وكأنه يتمتم ببضع كلمات . وراحت هي تعدو تجاه البستان الذي كان يبدو وكأنه الشيء الوحيد الواضح البارز في الطبيعة المحيطة مطموسة ومحتشدة الملامح .

عندما وصلت وجدت افشالوم راقداً في مكانه عيناه مغمضتان كأنه غارق في النوم . انحنت عليه ونادته ففتح عينيه في بطء ناظراً اليها . كانت تعلم جيداً أنه لا ينبغي لها أن تدعه ينام فربما لا يصحو بعد ذلك إلى الأبد . عندما ينفلق الصباح سيتغير كل شيء .. ستظهر عن قرب أو عن بعد أية بيوت أو طريق أو مدقات . وحتى ذلـك الوقت لا ينبغي له أن ينام . انحنت عليه وبدأت تداعب شعره وجبهته بأصابعها . كان يبدو في تلك اللحظات غاية في البعد . وربما كان يستحيل الوصول اليه بعد ذلك . لم تكن تحس بأنفاسه تقريباً .

كانت يداه مقرورتين . وحاولت افيجيل أن تدفئهما بالتدليك . كانت تتحدث اليه طيلة الوقت ، تهمس في اذنه :

لا تنم يا افشالوم .. لا تنم الآن .. بعد قليل يطلع الفجر يا عزيزي وتشرق الشمس

.. الشمس يا افشالوم يا حبيبي .. كلا لا تقفل عينيك .. أنظر يا افشالوم .. هل تراني ؟
.. انني افيجيل .. أنظر إلى أعلى ان السماء مليئة بالنجوم . انها تنظر اليك يا افشالوم
.. انها لا تريدك أن تنام .. كواكب كثيرة كما حكيت لي .. حمراء وصفراء وزرقاء
.. انني أذكر كل شيء سواء عن الكواكب أو عن الزهور .. لا تنم يا افشالرم .. في الصباح أحضر لك زهوراً .. هل تذكر انك قلت لي انني زهرة بيضاء ؟ كنت أريد أن أبكي لكنني لست بكاءة .. سأحضر لك زهوراً في الصباح .. سأحضر لك زهوراً . سأحضر لك شيكولاته ومياهاً وعصير ليمون .. أتريد عصير ليمون يا افشالوم؟سأحضر لك كل ما تريد .. ان شفيتك يابستان الآن .. هـــا أنا أرطبها .. الآن ارطبهما بلساني .. ها أنا قد لعقتهما .. أليس هذا مضحكاً حقاً ؟ إنني كالكلبة .. انني أعرف انك تريد أن تضحك كما ضحكت عندما قذفتك بوسادة .. هل تذكر تلك المشاجرة التي وقعت بيننا في حجرتك وكيف وقعت ؟ وكيف تظاهرت أمامي بأنك قد هزمت ؟ انني أعلم انك تظاهرت فحسب كي تضحكني .. لأنك تحب أن تضحكني يا افشالوم . انك مثل أبي . وأنا مثل طفلك العبيط .

لذا لا تنم الآن يا افشالوم .. لا تنم .. بعد قليل يطلع الفجر .. سيأتي أناس .. سيعالجونك . سيضعون لك اليود والضمادات فتصبح معافي .. وسأشتري لك انا كل أنواع الأشياء . كل ما تريد .. علك تريد أن أغني لك أية أغنية يا افشالوم ؟ سأغني لك العشب الأحمر . العشب الأحمر يشتعل في بطء ـ النهر الأخضر – النهر الأخضر ـ كلا ليست هذه أغنية فليس لها لحن . سأغني لك أغنية أخرى عن العشب . انني أعـــلم انك تحب الخضرة يا افشالوم .. عشب أخضر .. بحر أخضر .. نهر أخضر أحقاً تسمعني يا افشالوم ؟ سأغني لك .. ها هنا وسادة العشب حريرية .. ها هنا ينبت عشب .. ها هنا ينبت عشب .. ها هنا وسادة عشب بهذا القدر حريرية . ها هنا ينبت عشب رقيق وعال .. أحقاً تسمعني يا افشالوم لا تظن انني أبكي فهو الندى يتساقط .. ندى السحر .. ندى غزير يتساقط على عيني ألست تعلم انني لست بكاءة .. فقط لا تنم يا افشالوم .. لا بد أن تظل يقظاً . بعد قليل يبزغ الفجر . وبعد ذلك ـ بعد ذلك تشرق الشمس . ها هو الوقت يمضي .. ان الساعة الآن ـ سأنظر فوراً في ساعـــتي . انني لا أستطيع أن أرى الآن بسبب الندى .. لكنني سأرى فوراً . لن أسألك كم الساعة .

فليست لديك ساعة .. وفوق هذا فأنت تهذر دائمـــاً . ستجيبني أن الساعة طيبة

وموفقة . ها أنا الآن استطيع .. أحقاً تريد أن تعرف الساعة بدقة يا افشالوم؟ سأقول لك بدقة متناهية : الساعة .. الساعة .. كلا لم أعد استطيع ثانية .. بعد قليل الآن ادفئك قليلاً يا افشالوم ان يديك باردتان يا افشالوم ذلك لأن الهواء يصبح بارداً ورطبا في السحر .. هذا طبيعي . ولكن بعد قليل عندما تطلع الشمس ستدفأ .. ان الشمس ستدفئنا جميعاً .. ستدفيء الأرض والأعشاب والزهور . كلنا سنصحو وسنقف ونلبس ثياباً ملونة . فقط انتظر قليلاً . من العسير عليك أن تتنفس الآن انني اسمع هـذا لو استطعت ان أعطيك هوائي .. ان أعطيك كل شيء . ألست أنت أنا يا افشالوم .. وألست أنا انت وسأكون لك دائماً وستكون لي . وسآتي اليك دائماً وستجدني..

فقط لا تقفل عينيك من فضلك يا افشالوم . ألست ولداً طيباً . ولداً مجتهداً . أنت تعرف كيف لا تقفل العينين . حسناً إذا كنت حقاً مضطراً فلا بأس .. انني أعلم ان هذا سيكون لدقيقة فقط . لكي تستريح قليلا . رب انني تعبة للغاية . انني الأخرى أريد أن أغلق عيني لدقيقة . يبدو لي أنني نمت للحظة . ما كان ينبغي أن أفعل ذلك. الا ينبغي علي ان ارعاك يا ولدي . أي نوع من الأمهات انا فأنام . يبدو لي أنني قد حلمت جاء بعض العازفين من البحر . واحـد معه دف والثاني معه ناي والثالث .. رقص .. رقص الثالث .. ما أجمل الألحان والأردية الملونة كالأشجار .. كالأزهار .. انك الآن صامت .. صامت هكذا .. انك .. ولكنك ما عدت ترتعش .. الآن يطلع الفجر .. العصافير تغرد .. الندى يتساقط .

عينان ثقيلتان للغاية .. مقفولتان .. انني أطفو. سأرقد قليلاً بجانبك يا افشالوم. هل توافق حقاً ؟ هكذا رأسي على صدرك .. انني أطفو .. اطفو ..

تعقيب

تمثل الرواية القصيرة السابقة نموذجاً رمزياً للكتابة الأدبية الصهيونية .. فيها يحاول الكتاب بث توحد صوفي في نفس قارئه بالأرض العربية عبر منظور مقولة الأرض التاريخية .

وهو يستمد رموزه وتراكيب الحدث في القصة من الموقف الراهن المباشر دونما استخدام رموز تراثية أو خوض صريح فيما يسمى بالعلاقة التاريخية ويجسد الشخصيات الثلاثة الأساسية في القصة ذلك البناء الفلسفي الذي تقوم عليه المقولة .

افيجيل الأرض تتطلع إلى افشالوم (الشعب اليهودي) الذي تصلها به وشيجة الدم . هي محروسة منه بلا إرادة منها أو منه .. لكنها لا تنشغل عنه ففي أعماقها تتردد دائماً أغنية التوحد به .. أغنية العشب الأحمر .. الأغنية تدوي في باطنها رغم الأضواء الحائلة والرياح الساخنة والدور الواطئة القائمة الغارقة في السبات. والقمر الأصفر الباهت. وكلها تمثيلات أدبية لما يقال صراحة في وصف حالة الأرض المقدسة عبر ما يسمى بسنوات النفي اليهودي. هي لا تيأس من عودة افشالوم .. فالنجوم البعيدة التي تومض من خلف الضباب تشدها إلى خيوط الأمل وطيور الكراكي القليلة المهاجرة .. رمز طلائع الهجرة اليهودية .. تبشرها بقرب وصوله .

افشالوم الشعب .. راقد بين اليقظة والمنام تطالعه رؤيا التوحيد بأفيجيل التي التحقت بدار الدعارة وفقدت طهارتها .. لأنها تعيش في كنف العرب .. يعيش افشالوم وأمل تطهرها من الدنس يحدوه ويراوده تجسده له رؤيا تطهرها بدمائها عندما تذبح لتبعث نظيفة من جديد .. أي عندما تغسلها الدماء من آثار العرب فيمكن بعد ذلك أن يتم التوحد .

وخلال مسيرة افشالوم وافيجيل في الطريق الطويل .. نحو اللحظة المرجوة لتحقق الرؤيا يظهر لهما الشخص الغريب المفـزع يعترض المسيرة ممثـلاً للطرف العربي . الشخص الغريب يظهر متلصصاً عن بعد .. متربصاً مراقباً في الظلام .. وتجري أحداث رامزة عديدة على طول الطريق تغذي احساس التقارب .. فرؤيا التوحد تزداد اعتمالاً في نفس افشالوم رغم وحشة الطريق واقفاره . هو يتطلع إلى تحقيق الرؤيا يشده ويحفزه مـا في قدمي افيجيل من فطرة وثنية قدسية . يقطع الاثنان أشق مراحل الطريق وعورة حيث تنتصب الصخور وتزداد المنحدرات حدة والأغصان المعوقة اشتجاراً .. ومع ما في هذه المرحلة من مشقة فإن افشالوم يؤكد اصراره على الالتصاق بأفيجيل فيما يرويه من رؤيا جديدة يشاهدها فيهـا داخل الوردة البيضاء قدسية ناصعـة تجذبه وتصاعده من وجده الصوفي بها ..

وفي نهاية الرحلة يصلان إلى منطقة البستان المستوية الهادئة الآمنـــة حيث يتم لهما التوحد ممثلاً في اتصالهما الجنسي ..

ولحظتها تعبر فوقهـــما أسراب الكراكي المهاجرة في قوتها الأساسية اشارة إلى تمام الاستيلاء على الأرض وتدفق موجات الهجرة اليهودية اليها .

غير ان السعادة لا تكتمل .. فأثنـاء عمليـة الاتحاد الجنسي يظهر الشخص الغريب ويندفع نحوه افشالوم في اهتمام فيتلقى منه طعنة تصيبه بجرح ينزف في استمرار ولكن دون غزارة .. اشارة إلى امتداد الصراع والاستنزاف العربي .

ومع ذلك يقول الكاتب ان الأرض لن تتخلى عن الشعب، وستظل تحتضنه في حنان رغم امتداد الليـل والوحشة . فهي على ثقـة من أن الصباح سيطلع وسيأتي آخرون يؤيدونه ويضمدون جراحه التي احدثهـا الشخص المبهم كيما تحل ساعـة الفرح والألوان الزاهية والنجوم الساطعة والأزهار البهية .

على هذا النحو تترجم مقولة الأرض التاريخية القاضية بحق الملكية المطلق بين الأرض العربية والصهيونية في شكل فني وتتداخل بهـا مقولة العـداء اللاسامي الساعي للقضاء على اليهود .

مقولة معاداة السامية
في القصة القصيرة

مآخذ الشيطان على فاوست

ش. د. بونين

الديكور هنا سحاب وضباب ، نفس الديكور الظاهر في افتتاحية (فاوست) والذي يبدو كنوع من المحاكاة او الصياغة الأدبية الفنية لسفر أيوب . ضياء هادىء ينبعث من داخل السحاب ، كأنها الشمس على وشك الشروق وقد توسطتها صوره بطريقة مهيبة كتلك التي نراها في لوحة (خلق الإنسان) لميخائيل انجلو . خلف الضباب يمكننا أن نلمح بصعوبة الشخصية الأولى المتربعة في إطار العرش الالهي المغلف بالضباب .

زرافات الملائكة تأتي متتابعة لتمثل أمام الشخصية الأولى . تقع الملائكة في أسار الدهشة إذ تكتشف ان من تمثل أمامه ليس سوى النائب . يتخذ القادمون الأماكن المحددة لهم ، نقاب الدهشة ينحسر عن وجوههم ليكسوها ثوب من الجمود والاذعان .

يبدو الشيطان أكثر الجميع دهشة .

انه لا يحاول أن يحد من اندهاشه ، لا بد أنه سيثور معرباً عن موقفه بوضوح . غير انه لعجب الجميع – فيما عدا النائب – لا يفعل ذلك .

ما زال الشيطان على حالته الأولى . ضائقاً متبرماً لأنه لم يجد أمامه سوي النائب ولكن يبدو ان دهشته الكبيرة لم تكن بالقدر الكافي لاخراجه عن صمته .

سأله النائب عن الرجل الذي يتعذب منذ سنتين في أو شفيص (معسكر الاعتقال النازي لليهود خلال الحرب العالمية الثانية) .

فأجاب : هناك رجال كثيرون يتعذبون منذ سنتين في أوشفيص .

قال النائب : أعني الرجل الذي لا يكف عن الاستشهاد بسفر أيوب .

أجاب الشيطان : هو لا يستشهد بسفر أيوب كله ، إنه لم يستشهد بإجابة (أيوب) خلال العاصفة . بل انه لم يستشهد بما قاله اصحاب أيوب .

قال النائب : خبرني عنه على الرغم من ذلك .

وهنا وقع تحول مفاجيء في الحديث ، فقد سأل الشيطان النائب قائلاً : اليس يهمك في العالم كله سوى ذلك الرجل ؟

وتباطأ النائب في الاجابة واستطرد الشيطان :

وذلك الطفل ابن الثامنة الذي فر من يدي أمه والجلادين على حد سواء وقفز من فوق الأسوار الحادة المدببة ونجح في الاختفاء عن أعين الجلادين الذين استغاثوا بموقع أوشفيص. فأعلن الموقع حالة التأهب إلى أن قبضوا على الطفل واقتادوه في تجلة بالاحترام (حيث كانت قلوبهم تخفق له بالاحترام) إلى غرفة الغاز . هذا الطفل لم تره ؟ ألم يكن أمام عينيك ؟

وتباطأ النائب في الاجابة .

وراح الشيطان يتحدث عن أوشفيص وعن عنابر التعذيب وعما يدور هناك .

وصمت النائب ولم يجب .

كان الشيطان مندفعاً في ثورته مع علمه الواضح بأنه لا جدوى من الثورة لذا أنهى حديثه بقوله انه عائد إلى اوشفيص ليواصل اداء مهمته .

نظر الية النائب نظرة فاحصة وطلب منه أن يحدثه عن مهمته في أوشفيص وعما وجد انه يستوجب التصحيح هناك من وجهة نظره الشيطانية . امتلأ فم الشيطان ببسمة كبيرة ثم تقلصت خطوط وجهه لترسم تعبيراً من الانفة والنفور لم يكن واضحاً من المقصود به ، النائب الجالس على العرش الالهي ، أوشفيص وجلادوها أم ضحاياها . لا أحد يعرف . وعاد النائب يتساءل !

أوشفيص ؟ ماذا ستفعل في أوشفيص ! وساد صمت راح يتضخم ويرتفع حتى تحول إلى حاجز ينصب ما بين النائب والشيطان .

في نهاية الفصل الرسمي من الاجتماع قامت جوقة من الملائكة بإنشاء البيتين الأخيرين من الجزء الثاني من (فاوست) في أصلها الألماني .

تقدم الشيطان مبدياً اعتراضه على إلقاء أشعار في اللغة الألمانية لغة الجلادين .

وراح يقدم أمثلة عديدة من التعبيرات السامة الجارية على ألسنة الجلادين في الألمانية بل أوضح أن لديه ما يأخذه على كبير شعراء الالمانية ذاته .. أرهف النائب سمعه ليستنبىء ما عند الشيطان من مآخذ على معشوقه غوته العظيم .

قال الشيطان انه يعاف قراءة مشهد (فاوست) الذي يقدم فيه غوته وصفاً لفاوست وهو ينـــام على بساط مزركش من الزهور ، بينما ثلة من الملائكة والمخلوقات السماوية الرقيقة ترف من حوله وهي تغني أغان وألحان سرية تنفذ خلال حجاب نومـــه لتكسبه مذاقاً حلواً وتصبغ أحلامه بألوان زاهية .

تعجب النائب من احساس الشيطان هذا وتساءل عن سببه . غير ان الشيطان أصيب بالدهشة لهذه المساءلة أفلا يدرك النائب بداهة ما ينطوي عليه التتابع المباشر بين المشهد السالف والمشهد أو المشاهد الـــتي تصور قتل أربعة أشخاص على يد فاوست ، ذلك من قصور في معايير الفن والذوق والجمال والأخلاق على حد سواء ؟

بغض النظر عن الظروف وعن دور الشيطان نفسه في هذه الجرائم – إلا بعد فضيحة من زاوية الذوق والفن والجمال والأخلاق ، أن يعامل الشاعر قاتلاً على هذا النحو فيهيء له بساطاً من الزهور ينام عليه ويدعو اليه جماعات من الملائكة تهدهده بألحان سماوية ؟!

وفاقت دهشة النائب كل حد ، كانت الدهشة تملك زمام نفسه للشاعر الذي تصرف على هذا النحو ، وللشيطان الذي أبدى هذه المآخذ على الشاعر . على هذه الصورة انتهى اجتماع الشيطان مع النائب .

فيما يلي مذكرة تضم تلخيصاً موجزاً للاجتماع السابق ونضيف بعض المعلومات اليه .

صعد الشيطان ليمثل أمام العرش ، لم يجد أمامه سوى النائب يجلس على العرش .

دهش الشيطان ولم يدهش . دهش لأن غريباً يجلس على العرش ولم يدهش بعد أن رأى ما حدث في الأرض .

توقع أن يسأله النائب عن ذلك . غير أن النائب لم يسأله . تعجب لأن النائب لم يسأله على الاطلاق . ولم يتعجب بعد أن رأى النظم والعادات الجديدة في السماء .

حقيقة كانت الملائكة بضة ممتلئة ، إلا أن قبة السماء - كأي لوحة أرضية – كانت قد فقدت بعض رونقها وحال بهاؤها . تساءل الشيطان في دخيلة نفسه .. ماذا ومن بقي لي هنا في السماء ؟

انتابه احساس بالتأفف من نفسه ومن كل ما يحيط به هناك ولذا عمد إلى اختزال الاجتماع بقدر المستطاع .

أحاط بـه الملائكة وراحوا يتفرسون فيه وكأنهم جماعة من الريفيين يستقبلون أحد أحد أبناء قريتهم وقد عاد من رحلة طاف خلالها بكبريات المدن . كانت عيونهم البريئة الواسعة معلقة به ، وبقدر ما كانت عيونهم البريئة الواسعة معلقة به ، وبقدر ما كانت تشع معاني البراءة كانت تطفح بحب الاستطلاع . وفي الحقيقة كان الشيطان ميالاً لأن ينقع غلتهم ويروي ظمأهم إلى أخبار الدنيا . ولكن ما لديه من أنباء لم يكن مما يصلح لهم . ويبدو أن النائب نفسه لم يكن مستعداً لسماع هذه الأنباء ولو من قبيل الذوق وحده .

لقد كان بكل ما فيه نتاجاً لثقافة عصر النهضة . كان يبدو كنسخة من أحدث لوحات ميخائيل انجلو . نسخة جانبهـا التوفيق إلى أبعـد الحدود إذا لم تعد في أحط دركات الفشل . صورة بطريقية هرمة ، علها بدت مغلفة بالضباب لضعف الضوء المنبعث من القبر السماوية ، حتى لم يعد يضيئها ويظهرها سوى بياض شعرها الذي يكشف عن هرمها .

راح الشيطان يسأل نفسه .. ما لصاحب هذه الصورة .. هذا اليهودي القديم الذي تحول إلى المسيحية والأنباء التي أحملها ؟ كيف سيتلقاها ؟ ماذا سيكون تعليقه عليها . إن شأن هذا اليهودي شأن شاهد القبر الحجري الموضوع على قبره .

وماذا يعني حجر الشاهد من الأنباء الجديدة التي تصل كل لحظة من (أوشفيص) أو من عنابر الاعتقال ؟

على حين فجأة اهتزت قبة السماء ثم انهارت على الشيطان ، واختفى العرش الالهي واختفت الشخصية التي كانت تتربع عليه ووجد الشيطان نفسه داخل أحد عنابر المعتقلين وقد صور في هيئة معتقل جائع مصاب بالدوسنتاريا وأكوام من الحشرات تزحف على جسمه وتتغذى على دمه .

راح الشيطان يحك رأسه الحليق ويحادث نفسه ، يا للشيطان ! متى أمكنهم حلق شعري ؟ أو لم يسعهم على الاقل أن يلقوا علي بالماء فيزيلوا عفونة جسدي وعفن الخرق التي ألبسوني . نظر إلى ما يغطي جسده من أثمال وراح يحاول انتزاعها بما تحمله من حشرات في حنق من على جسده ولكنه لم ينجح . ليكن إذن ما يكون . فنحن الآن في عام ١٩٤٤ والألمان على أعقاب الهزيمة ولن تمتد الحرب لأكثر من سنة أو سنتين أو حتى ثلاث . وخلال هذه الفترة سيكون أمامي متسع من الوقت للتأمل والتدبر . إنني أرى على البعد شيئاً ما ، شيئاً يكاد الا يكون إنساناً . فلأقترب منه .

صيدلي كان له ولدان . سمم ولديه قبل أن يبعثوا بهما إلى أوشفيص . سمم نفسه كذلك غير انهم استطاعوا انقاذه . تناولت امرأته السم هي الأخرى وماتت . في نفس اليوم أرسل إلى أوشفيص ضمن الشحنة الأخيرة من يهود الجيتو . وصل هناك وحيداً . لم ينظر حوله ولم ير أحداً ممن يحيطون به .

عندما وقف أمام الضابط الذي أشار اليه بالاتجاه ناحية اليمين ، تحرك إلى اليمين دون أن يعني بالنظر إلى الرجال والنساء والأطفال الذين وجهوا ناحية اليسار .

في ذلك الوقت لم يكن يفهم معنى أن يوجه المرء إلى اليمين أو إلى اليسار .

بعد ذلك وجد نفسه وسط مجموعة لم يشعر ان له بهم أي صلة .

في ذلك الصباح المصيري عندما وجد امرأته وطفليه موتى ووجد نفسه على قيد الحياة ، لم يتعجب لأن الجهود التي بذلت لاعادة الأربعة إلى الحياة لم تنجح إلا بالنسبة له ، ولم يدن الآخرين لأن الجهود لاعادة الحياة إلى امرأته وطفليه لم تنجح - إن شيئاً من هذا لم يطرأ له على بال ، قال كان ذاهلاً دهشاً دون أن يدرك معنى أو تفسيراً لذهوله ودهشته . كان حوله رجال مستغرقون في العمل بينما كان هو وحيداً في عزلته عنهم . حزموا الجثث ونقلوها أمام عينيه وهو معها .

ومن المقابر نقـــل هو والمشيعون إلى عربة الحيوانات المتصلة بمؤخرة القطار . قضى نهاراً وليلة في العربة حتى وصل القطار إلى أوشفيص . كان الرجال المكدسون وقوفـاً في العربة يخمنون طيلة الوقت وجهة القطار على أساس ما يمر من مناظر يشاهدونها من خلال القضبان .

فقط وقبل أن يطلع الصباح امكنهم أن يدركوا أن القطار يقترب من أوشفيص .

ظهرت آثار الجري خلال طرقات أوشفيص الملتهبة على من يعدون وعلى من يسوقونهم على حد سواء .

كان رجال الفرماخت والا س . س يسوقون أفراد الشحنة مذ نزلوا من عربات القطار في صفوف يضم كل منهـــا خمسة دون ابطاء أو وقفـــات للراحة . ولولا أسوار النباتات الوارقة الخضراء الـتي تسبح في طرقـات أوشفيص لما لقيت العيون هي الأخرى فرصة للراحة . على الأقل كانت العيون في راحة . كانت الشفاه المتحرقة تمتد إلى الأوراق اليانعة الرطبة وتنجح أحياناً في لمسها بينما السيقان تعدو على وهم اطفاء جذوة الظمأ المتأججة في الحلوق .

بعد نصف يوم من الركض أمر الجمع بأن يتوقف على مقربة من الحمام . كان قد فقد قبعته خلال الجري . وكان العدو والقيظ والضربات التي تلقاها على وجهه ورأسه قـد أصابته بالذهول الكامل وخنقت الآلام في جسده قبل أن يبدأ احساسه بها . وبينما كان وعيه يستيقظ كان بعض الرجال يزحفون من حوله من الاعياء . وعلى مقربة كانت عائلات عديدة مكدسة بعجائزها ونسائها وأطفالها داخل أكشاك مقوسة ، بينما الأطفال ينفذون إلى خارج الأكشاك ليلعبوا حولها .

لقد كان أولئك جميعاً في غرف الغاز والأفران ولكنهم لم يكونوا يعرفون .

كذلك لم يكن الصيدلي يعرف .

مشهد واحد كان يلاحقه سواء في وقت العمل أو خلال وجوده في العنبر . ذلك مشهد الاطفال وهم يلعبون في انتظار دورهم لدخول غرف الغاز .. على أي حال لم يكن مصير ولديه كمصيرهم .

قطع عليه الشيطان تفكيره وبادره بالقاء السلام . رد الصيدلي السلام وراح يحدج الشيطان بنظرات كأنه يقول .. من أنت . أجاب الشيطان على سؤاله الصامت اجابة أبعد ما تكون عن السؤال فقال :

لم يحدث ان طرأ على ذهني مثل هذا التفكير .

الصيدلي : ماذا إذن ؟ هل كان ينبغي أن آتي بهما إلى أوشفيص ؟

الشيطان : هل أنا بديل عن الرب كي تسألني عن ذلك ؟

الصيدلي : ما دام الأمر كذلك فلماذا تقول انك لم تفكر مثلي قط ؟

الشيطان : أردت أن أقول انني لم أجرب موقفك قط .

الصيدلي : إذن لا تناقش صاحبك حتى تجرب موقفه .

رأى الشيطان بين المعتقلين صبياً . اتجـه اليـه وانحنى عليه وجعل يتأمل وجهه الشاحب برهة .

ـ أيها الفتى .. أيها الفتى .

فتح الفتى عينيه .

ـ من يناديني ؟

شاهد الشيطان جراباً مليئاً بالخبز معلقة برقبة الفتى .. سأله لماذا لا تأكل .. علك غير جائع ؟ كم عمرك يا فتى ؟

الفتى : ثماني عشرة .

الشيطان : ثماني عشرة ؟ ان مظهرك كابن الرابعة عشرة .

الفتى : كنت كذلك يوماً .

الشيطان : كان الحال طيباً .. أطيب من الآن على أي حال .

الفتى : انني أصغر من أن أعيش على الذكريات . انني أحيا ولا أفكر إلا في الماضي القريب الذي يرجع إلى شهر أو شهرين .

منذ متى وأنت في أوشفيص ؟

الفتى : منذ حوالي ستة أشهر .

الشيطان : هل جئت وحدك ؟

الفتى : . حدي ؟ مع الأسرة جميعها . أخذوني وحدي للعمل . أما الباقون فقد ذهبوا . انني أعيش هذه الحياة الكريهة دون ذكرى واحدة . كل ما لدي احساس بالقرف والغثيان يتملكني من الصباح إلى المساء . لا بد أن أتخلص من هذا الإحساس . ألديك حبة أو شيء ما يزيل هذا الاحساس الكريه غير المحتمل .

الشيطان : ماذا حدث لك أيها الولد ؟

الفتى : ولا ؟ انني في الثامنة عشرة . لقد أخذني ضابط الـ س. س من حفل عرس لاعمل مساعداً وبستانياً وخادماً في بيته .

كانت زوجته منفرة .. ولكن كانت لديه بنتان رقيقتان ، غاية في البراءة والنقاء . كانت المرأة تشبعني ولكنها كانت منفرة .

بعد ذلك استبعدني من بيته وضمني إلى جماعة . كانت الجماعة تقوم بأعمال مختلفة . أما أنا فقد قصرني على أعمال الحدائق . كان واجبي الأساسي أن أرعى اسوار النباتات.

كنت أعود كل مساء إلى الجماعة لأبيت معها في الكوخ . كنت أرى الصفوف الممتدة تتجه إلى الأفران . كنت أراهم جميعاً من بعيد خلف أسوار السلك ،لم تكن أحاديثهم وصرخاتهم – ان كانت لهم أحاديث وصرخات – تبلغ سمعي . كانوا يبدون لي كقوم يذهبون إلى النزهة ، نزهة لا تنتهي .

كل يوم كان هناك من يذهبون للنزهة . رجال من جميع البلدان ومن كل الشعوب .

كثيراً ما تمنيت لنفسي أن أذهب معهم للنزهة حتى نهايتها . لم يكن احساسي في ذلك الوقت أفضل منه اليوم . بل لعله كان أفضل . على الأقل كنت أشعر انني واحد من أولئك الذين كنت أرافقهم ثم أودعهم . كنت أستقبلهم وأرافقهم ثم أودعهم كواحد منهم كأني قريب لهم .

على احساسي المعتل الآن يرجع إلى مرضي وضعفي . في ذلك الوقت كنت سليماً معافى . كما قلت لك كان ضابط الس. س يشبعني انه كان يعطيني مما يطعم .

كنت أعمل وفي نفس الوقت أنظر وأراقب ما يجري على بعد ، وبمرور الوقت أصبح النظر والمراقبة عسيرين على نفسي وتحولا إلى احساس بالغثيان .

تقيأت عدة مرات على العشب ، ولعل ذلك لأنني كنت آكل حتى أشبع ، وعندما كنت أتذكر وأتصور منتهى رحلة أولئك السائرين الذين لا تنتهي صفوفهم إلى الأفران .

هل رأيت طابوراً من النمل الأسود ؟ انه يسير ممتداً دون أن ينتهي تماماً كهؤلاء الرجال من العجائز والضعاف والأقوياء والأصحاء والصبية المعافين .

في إحدى المرات وجدني ضابط الس. س وقد تقيأت الطعام الذي اعطاني إياه على العشب الأخضر المرتوي .

« انك أخضر ومرتوٍ كهذا العشب » .. راح يردد هذة العبارة وهو يدق جسدي ووجهي بحذائه في عنف وقسوة حتى فقدت وعيي . ولم أعد إلى الكوخ للنوم . بحثوا عني ووجدوني غارقاً في القيء والدم . سكبوا علي الماء .. كثيراً من الماء .. أجبروني على أن ألعق القيء والدم لأنظف العشب الأخضر الذي رويته بقيئي ودمي . ولم يرض ضابط الس. س عما فعلوه بي وعما لم يفعلوه ..

هكذا لم أعرف للحياة سوى وجه واحد انني أصغر من أن أعيش على ذكريات وعلى ماضٍ يرجع إلى سنوات، أعطني بعض الماء . إنني جائع ولكن لا أستطيع أن آكل إن اللقمة تنغرس في حلقي كالوتد وإذا ما ابتلعتها خرجت من الناحية الأخرى قبل أن أشعر بحاجتي إلى ذلك .

إن هذا هو وجه الحياة الوحيد .. فهل لها وجه آخر ؟ إنك لا تفعل شيئاً سوى انك تحملق في .. هل أنت تقيسني أو تدرسني ؟ لو لم يكن والداي قد ماتا لأتيت معهما بعمل عنيف لأنهما أنجباني .

الشيطان : يا فتاي .. يا فتاي ..

الفتى : هل حدث ان لاطفتني من قبل ؟ .

إن ملاطفتك تشبه ملاطفة ضابط ال س. س خلال الأيام الأولى من خدمتي إياه .

الشيطان : لست ضابط ال س. س.

الفتى : إذن يمكنك ..

واستغرق الفتى ابن الثامنة عشرة والذي يبدو وكأنه في الرابعة عشرة فى سبات عميق .

تعقيب

تمثل هـــذه القصة (مآخذ الشيطان على فاوست) نموذجاً فنياً مركباً لأدب مقولة معادلة السامية في جانبهـا الوصفي .. وفي ضوء التنوير الذي نقدمة بشأنها سيكون في مقدور القارىء اكتشاف طبيعة القصص القصيرة التالية الداخلة في نفس القسم فهي جميعاً أقل تركيباً وأشد تسطيحاً في التعبير عن اتجاه المقولة .

من المعروف ان الشيطان في سفر أيوب يلعب دور الشر.. والسفر من كتابات التأمل اليهودية المتأثرة بروح الحكمة والتفلسف اليوناني خلال فترة الحكم اليوناني في الشرق . وهو يناقش مشكلة شرخ العالم .. ويطرح تساؤلاً محدداً حــول مبررات العذاب الإنساني الذي يلحق الأخيــار من الناس. ولقد حاول كاتب سفر أيوب أن يفسر هـذا الشر على أنه ابتلاء تنزله القوى السماوية العليا بالأخيار لاختبار إيمانهم وصمودهم . ومـا يعنينا هنا هو دور الشيطان .

فالشيطان يظهر في سفر أيوب على انه أحد ملائكة البلاط الإلهي الذين يقومون بتقديم التقارير إلى الإله عن أحوال الأرض وسكانها . وهو يظهر حاقداً في سعيــه ضد أيوب . فهو يحسده على ما ينعم به من ثروة ولذا يوعز إلى الرب بانزال ضربات متلاحقة به بدعوى ان هذا سيكشف عن ضعف إيمانه وزيف عقيدته .

هذا هو دور الشيطان في سفر أيوب . دور محرض القوى السماوية العليـا على انزال العذاب بالناس .

ودوره في مسرحية فاوست كما يفهمه كاتب القصة بسيط .. فهو ببساطة دور الشرير الذي يغوي البشر بمغريات معينة ليفرض عليهم ممارسة الشر والوقوع في الخطيئة .

فما هو الدور الذي ينيطه كاتب القصة بالشيطان هنا ؟

إن الشيطان يتحول أمام هول العذاب اليهودي الذي يسوقه الكاتب في صورة مؤثرة إلى قوة للخير تستنكر هـذا العذاب . فالشيطان يصعد إلى السماء كعادته في سفر أيوب ليقدم تقريراً عن سير الأحوال في الأرض وهو في هذه المرة لا يصعد ليشي بانسان كما فعل مع أيوب بل هو يصعد ليحفز القوى السماوية على التدخل لرفع هذا العذاب . غير انـــه يصاب بخيبة أمـل فهو يواجـه بالقوى السماوية وقد سرت فيهـا روح البلادة والترهـل والتخلف حتى ما عاد يعنيها ما يجري على الأرض . تلك القوى السماوية الـتي قررت الكتابات اليهودية الدينية أنها تساند اليهود وتحميهم – يقول الـكاتب – انها قد تخلت عن دورها القديم هذا وما عاد لها شأن بما يؤول إليه حال اليهود . هذا هو المضمون الأساسي للقصة ..

فما الذي يريد الـكاتب قوله .. ما من شيء يمكن للقارىء فهمه سوى انه ينبغي على على اليهود أن يدركوا أن العـالم كله حتى القوى السماوية فيه لا تعبأ بعذابهم بل انهـا تنتقم ممن يتصدى للدفاع عنهم فتضعه مثلهم موضع العذاب كما يحدث للشيطان في القصة .

وبالطبع فإن الدعوة تكون : إنه ينبغي لليهود أن يتجمعوا في مواجهة هذا العالم الشرير .

نفس منطوق مقولة معاداة السامية في جانبي الوصف والحل .

ثوم

افرهام بن موشيه

لي صديق يقطن في أحد الدور الواقعة على شاطىء البحر في تل أبيب اصبح من عادتي وأنا ميمم لزيارته كل بضعة أسابيع ان أنحدر ولو لبضع دقائق إلى البحر . عادة ما أقوم بزيارتي لصديقي مع حلول الظلام .

البحر في هذه الفترة من السنة هائج . من هذا المكان الذي اعتدت ان اتنزه فيه كنت أستطيع في الماضي غـــير البعيد ان ارقب وميض أضواء بعض السفن الراسية في عرض البحر على مقربة من ميناء تل أبيب أو من الميناء القديم في يافا : سفن لم تستطع الرسو بسبب الأمواج الهائجة فراحت تنتظر في عرض البحر لحين هدوء العاصفة .

يبدو أن انجذابي لهذا المكان على ساحل البحر مرده إلى الحنين لما كان ، فهنا في هذه المنطقة الواقعة بين جوردون وطريق الصندوق القومي حاولت سفينة تهريب المهاجرين (تيودور هرتزل) ان تخترق الحصار البريطاني وكنت أنا أحد من نجوا من النكبة على ظهرها .

وظهرت السفينة تيودور هرتزل على بعد كيلو مترات من ساحل تل أبيب وبسرعة التصقت بها مدمرتان بريطانيتان كانتا تجولان على شواطىء فلسطين (أرض اسرائيل) : التصقت كل منها بأحد جانبي السفينة وراحت مكبرات الصوت فيها تنادي على من فيها لمتابعة المدمرتين إلى ميناء حيفا ولم يستجب رجال تيودور هرتزل لتعليمات وتحذيرات البريطانيين وواصلوا سعيهم تجاه شاطىء تل ابيب .

وهنا دارت معركة بين المجترئين غير المتسلحين وبين رجال أسطول صاحب الجلالة ملك بريطانيا المزودين بأحدث الأسلحة .. ولم يكن القتال متكافئاً .

الزجاجات ضد القنابل اليدوية . علب المحفوظات ضد التوميخبات والعصي ضد البرنّات .

فلا عجب إذن أن كان البريطانيون فيغضون نصف الساعة فوق ظهر تيودور هرتزل بعد أن استخدموا الغاز المسيل للدموع والأسلحة .

لقد لقي إثنان من المجترئين حتفهم في القتال . ومع الفجر عندما سحبت السفينة تيودور هرتزل بواسطة المدمرتين البريطانيتين إلى ميناء حيفا عم المجترئون من الصحفيين الذين صعدوا على ظهر الباخرة انه في نفس الليلة اعتلى المشنقة في سجن عكا دوف جرونر ورفاقه .

وكعادتي اتجهت هذه المرة أيضاً إلى نفس المنطقة . وقفت إلى جانب السور الحديدي اتطلع إلى بعيد . كانت أضواء بعض سفن الصيد تلوح من بعيد وكأنها تعلن قائلة (بعد قليل ومع الفجر سنعود حاملين الصيد إلى سكان المدينة العبرية الأولى) ومرقت الطائرة (بوينج) ضخمة شديدة فوق رأسي .

بعد دقائق قليلة ستلفظ من جوفها الركاب في مطار اللد .

انني أقف وفكري سابح في تلك الأيام . فجأة شقت الصمت صرخة في اليديش (الثوم : قطعة صغيرة من الثوم) .. على بعد بضع خطوات مني كان رجل ضئيل الجسد .. كومة من العظام مكسوة بخلق واسمال .. وهو يصرخ

(ثوم .. قطعة صغيرة من الثوم) ..

مرت دقائق طويلة حتى أفقت من الهزة التي انتابتني وفي لحظة أبحرت بعيداً بعيداً عن شاطىء تل أبيب عائداً إلى أوروبا .. عائداً إلى النكبة التي حلت في أعقابها الصحوة . كان على ظهر السفينة تيودور هرتزل (غير الشرعية) ألفان من البقايا .. بقايا النكبة الذين عبئوا داخل السفينة .. كان عددهم أكثر من ضعف حمولتها العادية أشخاص

مضطجعون وقابعون في كل مكان على السرائر الخشبية ذات الطابقين وتحتها وفي الممرات وعلى ظهر السفينة . لم يكن يسمح للراكبين في النهار بالخروج إلى ظهر الباخرة لئلا ينكشفوا بواسطة سفن أو طائرات البريطانيين .

أما في الليل فكان ظهر المركب يمتلىء بالخارجين المتطلعين إلى الهواء النقي ولكي يخففوا من كثافة الازدحام في بطن السفينة . كان يخرج من ينجح أولاً في احتلال مكان على ظهر السفينة مضطجعاً أو جالساً أو نائماً وهو واقف .

منتصف الليل وجميع رجال السفينة نائمون . لم يكن يسمع مع صوت المحرك سوى بكاء رضيع بين الفينة والأخرى يذكر أمه بأن عليها أن ترضعه .

كان هنا يومنا الثاني في البحر . وعلى عكس الليلة السابقة فقد قلت حالات القيء ونال التعب من الجميع فناموا . وفجأة تصاعد من قلب السكون صوت واهـن عاجز يتوسل :

(ثوم .. قطعة من الثوم) .

في تلك الليلة كنت بين الجماعة المسئولة عن الحراسة والأمن في السفينة . اقتربنا من الشخص الواقف يتوسل وحاولنا تهدئته (لماذا الثوم فجأة هل تحلم يا رفيق) ؟ .

واستمر الرجل ينادي ثوم . قطعة صغيرة من الثوم ... ولم يهدأ الرجل طالمـا أن أحداً منا لم يتعب نفسه ليحضر من المطبخ فصاً من الثوم .

وبمجرد ان وضع الرجل (الكنز) يده في تبسم وراح يدلك أسنانه بالثوم وخبـأ في حرص قطعة الثوم التي تبقت له .

شكرنا في أدب واضطجع نائماً .

في اليوم التالي وبينما كنت أقف على ظهر السفينة اقترب مني الرجل متسائلاً ألست غاضباً عليّ بسبب ليلة أمس ؟ فأجبته بصورة قاطعة : وعلام أغضب ؟ لقد كنت متأزماً على ما بدا ومن المؤكد أنك تعاني مرضاً ما وأن الثوم يخفف آلامك . نعم إنني أعاني

الحقيقة لقد عانيت والآن انتهت المعاناة فأنا أسافر إلى الوطن ، غير انني أحلم بين الفينة والأخرى بأيام المعاناة وعندما استيقظ فإن شيئاً واحداً يهدئني وهو قطعة صغيرة من الثوم .

– قص عليّ .. هكذا حفزته إلى الكلام . لقد عانينا جميعاً ولدينا جميعاً ذكريات عن أيام المعاناة والعذابات .. جميع من فوق هذه السفينة ولعلك إذا تقاسمت سرك مع صديق أو بضع أصدقاء خفت عليك الوطأة .

– انك محق في كلامك ولقد أردت بالأمس أن أقص عليكم كل شيء غير انني كنت خائر القوى عديم الثقة ، أما الآن فإنني سأتحدث وأقص عليكم وأطنب في الحديث حتى تستوقفوني . وفي هذه الأثناء كان قد تجمع بعض الأشخاص من حولنا .

ولدت في بيت أخيار في دولة بولندا تعلمت في (الحيدر) وفي (اليشيفا) ولم يكن ينقصني شيء في البيت وكان والدي من الأثرياء . كانا يمتلكان مطحن قمح توارثوه عن الأجداد .

سارت حياتي مريحة حتى اليوم الذي عاد فيه أحد أصدقاء طفولتي من وارسو حيث كان يتلقى تعليمه وأطلعني صديقي على دخيلة نفسه ، وحكي لي عن شريعة جديدة ليست شريعة موسى ، بل شريعة يهودي آخر مرتد اسمه كارل ماركس. ظل الأمسيات كاملة يحكي لي عن الرجل ومذهبه . عن اصلاح العالم وعن اصلاح المخلوقات .. عن الجريمة وعن الخبز والحرية للجميع . وسحرتني الشريعة الجديدة تخليت عن شريعة موسى وتحولت إلى مؤمن بشريعة ماركس .

وتوقف الرجل عن الحديث وتنهد ثم شرب بعض الماء الذي قدمه له أحد الحاضرين . وقف صامتاً لحظات طويلة ثم أبحر آفلاً إلى الماضي ثم واصل الحديث .

ثم جاء الشيء المحتمل. انكشفت خليتنا الشيوعية بواسطة الشرطة البولندية والقيت في السجن وحكم عليّ بالسجن ثلاث سنوات وفور اطلاق سراحي اعتقلت ثانية بصورة إدارية وارسلت لفترة غير محدودة إلى معسكر الاعتقال في كارتوزبرزا الذي أقيم في مستنقعات بولسيا ...

... كانوا يرغموننا على العمل الشاق . كنا نحمل الأحجار الثقيلة على عربات اليد ونحملها بما تبقى من قوانا إلى ربوة ثم نعود لنكرر العمل من جديد .

كان يضرب من تخور قواهم وجبة طافية من الضربات بعصا من المطاط والسياط وعصا من الخشب ، لم يكن حراس المكان يعرفون الرحمة ، كانوا يضربون حتى يسقط الانسان مغشياً عليه وبعد ذلك كانوا يسكبون عليه ماء بارداً ويدعونه يفيق كي يسقطونه ثانية ...

... وهنا تهلل وجه الرجل وتوقف عن الحديث بضع دقائق ثم واصل حديثه وبسمة تعلو شفتيه :

وجاء أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ وغزا الألمان بولندا وسرعان ما انهار جيشها وفي منتصف الشهر كان الرفاق من الجيش الأحمر في كارثو زابرزا وهرب حراس المكان إلى المنطقة البولندية التي احتلها الالمان .

وفي اليوم التالي لرأس السنة ظهرت أولى العربات المجنزرة السوفيتية في كارثو زابرزا ولم تكن حدود لفرحتنا ، كنا نعانق ونقبل الأخوة المحررين .

لقد جاءت نهاية متاعبنا الآن ستأتي حياة طيبة وسعيدة كنت سعيداً رغم أن والدي وسائر أفراد أسرتي كانوا ما يزالون في منطقة الاحتلال النازي .

نجحت في أن أنقل اليهم خبراً بأن عليهم أن يحضروا على الفور أن يتسللوا عبر الحدود . وأن يغادروا الجحيم بأسرع ما يمكنهم لينتقلوا إلى جنة عدن البروليتارية . « هكذا وبنفس هذه الكلمات كانت رسالتي اليهم » ومرة ثانية كست وجهه سحابة من الكآبة ، وواصل حديثه بصوت مخنوق « رفض أبواي الحضور .. غير أن أخـوي اخترقا الحدود ووصلا إلى بريسك دلتيا حيث مثلا أمام السلطات السوفيتية وهناك أبلغوا السلطات بنبأ الخطاب الذي تلقياه مني ، واستقبلهم رجال الن . ق . و . د بابتسامة ساخرة .

« حسنا » اجابهم المحقق « ستبقون هنـا الآن .. وليس عليكم سوى اعطائنا عنوان أخيكم » .

« وفي نفس الليلة تم اعتقالي ثانية .. وفي هذه المرة على يد أولئك الذين كنت مستعداً لبذل حياتي في سبيل قضيتي وقضيتهم المشتركة .لم أحظ برؤية أخوي"،كل ما عرفته عنهما كان ما أخبرني به محقق الا ن . ق . و . د من ان أخوي الجاسوسين عميلي الجستابو قــد وصلا ، ودون محاكمة حكم عليّ الا « طرويقاه » « القسم الثالث » المشهور في الا ن. ق.و.د بالسجن لمدة عشر سنوات بتهمة النشاط المعادي للثورة والتجسس لمصلحة العدو .

وارسلت إلى معسكر « كلمه » في الشرق الأقصى للتنقيب عن الذهب ، أما أخواي فقد ارسلا بصورة ادارية في اتجاه آخر للتنقيب في منطقة « أركنجلسك » .

كم عانيت في السجن البولندي وفي معسكر كارثو زابرزا لكن كل هذه المعاناة تتلاشى إلى جانب معاناتي في معسكر « كلمه » في الشرق الأقصى . لقد حولوني إلى منقب عن الذهب وفي طقس غير محتمل وغذاء شحيح ونتيجة لهذا أصبت بكل أنواع المرض وتأصل في جسدي مرض نقص فيتامين ب وفيتامين ص حتى أوشكت على فــقد كل أسناني ، أصيبت لثتي بالضعف ، وبدأت أسناني تتميع حتى انتهت بمرور الوقت إلى الاهتزاز كبندول الساعة ، لم أكن أقدر على مضغ الخبز الأسود المتواضع الذي كان يقدم إلي إلا بعد أن أبلله « بالبلندة » « حساء معروف » ثم أبلعه دون مضغ .

تنهد الرجل واستجمع قواه ليواصل الحديث .

كنت أريد أن أعيش ولم أكن أريد أن أفقد صورة الانسان ؛ كنت أريد المحافظة على أسناني والاستمرار .

كان هناك طبيب لكنه كان سجيناً هو الآخر ، كان دائماً يقول ... فقــط لو استطعت الحصول على قليل من الثوم .. الثوم الطازج ، بعض رؤوس الثوم لعالجتكم جميعاً ، ولكن من أين لي بالثوم في هذا المكان الذي لا يرى فيه أي نبات يصلح للعلاج ؟

... ويوما حلت المعجزات ، فقد تلقى الطبيب حزمة من زوجته في موسكو .. وهي الأخرى طيبة وكانت الحزمة كلــها من الثوم ، وفي سرية مطلقة اقتسم الطبيب اليهودي هذا العقار الشافي مع أصدقائه ، وحدثت معجزة ، فبعد بضع أيام وبعد أن امتص جسدي بضع رؤوس من الثوم قويت اللثة وتوقفت أسناني عن الاهتزاز ، تحولت إلى انسان آخر ، وفور ذاك تقريباً ، وقعت المعجزة الثانية فبعد أن غزا الألمان الاتحاد السوفيتي وقعت الاتفاقية المشهورة بين رئيس حكومة بولندا في المنفى الجنرال سيكورسكي

وبين حكومة الاتحاد السوفيتي ، وأطلق سراح مواطني بولندا من معسكرات الاعتقال في الاتحاد السوفيتي و كنت أنا بين من أطلق سراحهم .

وهنا وصلت القصة إلى نهايتها .

ان ما مر عليّ بعد ذلك معروف لكم جميعاً ، أليس عدد كبير منكم عائداً من ذات جنة عدن تلك . وعلى أي حال فقد أصبح كل شيء في النهاية طيباً . فها أنا الآن معكم في السفينة التي تحمل اسم نبي الدولة العبرية تيودور هرتزل ، وها أنا أعود إلى الوطـن العبري تائباً غير مؤمن الا بقيادة امرائيل وبشعب اسرائيـــل فكل المذاهب الأخرى بهتان و كذب ..)

... لقد نسيت الكثير وما زلت أحاول نسيان الكثير ، وما زلت أحـاول نسيان الكثير إلا شيئاً واحداً .. اسناني المهتزة فهي ما لا أستطيع نسيان أمرها ، وأحياناً ما يحدث أن أحلم بأنني موجود ثانية في « الكلمه » أقوم بالأعمال الشاقة وأكاد ان أفقد أسناني ، وعندئذ فإنني استيقظ وأجري كأنني أهرع إلى ذلك الطبيب المنقذ صارخـاً (في اليدش) (قنابعـــل اقلين اشطيمقلع قنابعل) « قطعة من الثوم » ظلت أضواء سفن الصيد تومض في عرض البحر ، وشعرت و كأني قد استيقظت من حلم ، لأجد نفسي واقفاً على شاطىء البحر في تل أبيب المحررة .. تل أبيب الموجودة في دولة اسرائيـل المستقلة بينما ذلك الشاب في سفينة « تيودور هرتزل » يواصل صراخه «اشطيمقلع قنابعل» « قطعة من الثوم » .

انتبه العاشقان المستندان إلى سور المنتزه إلي وهو الضيف غير المدعو .

« مجنون آخر »

من الطبيعي أن يكون هذا تعليقها على وجودي .

أنا مهاجر

بقلم
ي. ابي شبي ماءور

كانوا ثلاثة صبية .. ثلاثة أعضاء في الكوموزمول .. ثلاثة شبان لهم أحلام .. كان أولهم كالأولاد في هيئته مع أنه أكبرهم . ومع أن شعره كان مجزوراً فقد كان يسهل على من يراه معرفة أنه أشقر . كانت عيناه زرقاوين . لم تكن نظارته تخفي لونهما ..

على العكس كانت تكسبهما لمعاناً وتألقاً . لكنها تظهر وجهه الممصوص أكثر نحافة . كانت عظام وجهه بارزة .. لم يكن يغطيها سوى طبقة رقيقة من الجلد المشدود .

غالباً ما كان وجهه يبدو جامـــداً دون اختلاجة أو ابتسامة . لكن عينيه كانتا تثريان تعبيرات وجهه بزرقة السماء منهما . عندما كان يغمض عينيه .. كان وجهه يبدو ملفوفاً في ستار من الكد والإرهاق وكانت تكسو شفتيه علامات الهرم والوهن . لكنه إذا فتح عينيه تدفق منهما عالم وضاء مشحون بالحيـاة . عالم يجمع بـــين الطفولة البريئة والرجولة النابضة بالشجاعة .. تماماً كأنه كتلة من المياه البلورية الزرقاء تتدفق من مرتفع هائل .. بارقة لامعة هادئة لكنها تحمل في أعماقها المظلمة طاقـــة مروعة خفية تنقضي بفعلها في عنف صاخب على صخور السفح .

كان يتجول بـين السجناء كطفل وسط جماعة من المسنين . كانوا جميعاً يحبونه .. حتى اللصوص الذين قضوا حيـاتهم يمارسون السلب والنهب وخفضت الأحكام عليهم من الإعدام إلى السجن المؤبد .. كانوا يعاملونه في ود وترفق ويحرصون على مد يد العون له .

« ساشا رقم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين » أو « ساشقا ترى ترويكي » .

« ساشا ثلاث ثلاثات » . هكذا كانوا ينادونه . أما اسم عائلته الحقيقي فلم يعرفه أحد ولم يكن أحد راغباً في معرفته .

أما ثانيهما فاسمه إيليا . وكان دائماً ملازماً لساشا . كان الاثنان كالجسد وظله . كان إيليا شاباً مديد القامة صلب العود .. سريعاً خفيف الحركة كابن الثامنة عشرة . كان على عكس ساشا عنيفاً قوياً ذا وجه مستطيل متجهم وعينين سوداوين .

كان يبدو عملاقاً إلى جوار ساشا .. لكنه كان يطيعه كالطفل في كل ما يقول له .

« العربة الكبيرة والبقرة الصغيرة » .

هكذا كان يسميها السجناء من باب السخرية .

كانت ملابس السجن دائماً مناسبة على قامة إيليا .. وكانت أرقام السجن واضحة على صوره .. وقبعته وسرواله مهندمين . أما ملابس ساشا فكانت دائماً مهدلة واسعة وطويلة وكان رقمه « ثلاث ثلاثات » مخبوءاً دائماً في ثنايا ردائه .

أما ثالث الصبية فكان نادراً ما يظهر في صحبة الاثنين . كان يقضي معظم الوقت راقداً مريضاً في الكوخ الحقير تحت الأرض .. معزولاً وحيداً .. بينما السجناء يعملون خارج السجن . ولكن عندما كانت نوبة العمل تنتهي .. كانت « العربة والبقرة » يجلسان دائماً إلى جواره يتهامسون ويحادث كل منهم الآخر بصوت خفيض واهتمام بالغ .. أو كانوا يجلسون جميعاً في صمت وكل منهم غارق في أفكاره .

كان إسمه لازار . كان وجهه مكتسياً دائماً بعلامات الألم الجسدي وعيناه العسليتان تنضمان في اتساعهما غير العادي بالأسى المقيم .

في رفقة ساشا وإيليا وحدهما كانت هاتان العينان تعرفان التماعة الراحة بل والضحك في بعض الأحيان .

كان السجناء يتناقلون الحديث عنه متهامسين . كانوا يقولون .. ان المحققين لم يكسروا له ضلوعه فحسب بل انهم أصابوا عموده الفقري أيضاً حتى أصبحت حالته ميؤوساً منها .ومع هذا .. يقول السجناء .. فإنه لم يبع رفاقه ولم يبح بشيء ...

كان آباء الثلاثة يهوداً غير انهم في الحقيقة أبعد ما يكونون عن اليهودية . كان والد شاسا من قدامى الأعضاء في « اليبكتيساه » أي القسم اليهودي التابع للمباحث الشيوعية التي كانت تطيح بالرقاب ذات اليمين وذات اليسار خاصة بين اليهود .

أما والد إيليا فكانا من هيئة التدريس في جامعة موسكو . وكان والدا لازار عضوين مخلصين في الحزب . الحزب الشيوعي بالطبع .

وبالصدفة دخلت أنا إلى عالم الشبان الثلاثة المغلق عليهم ...

كان ذلك في مساء بارد والرياح تعم بزمجرتها آذان مدينة كاراجندا التي يتوسطها السجن الذي كنا فيه . كانت الاكشاك التي نقيم فيها مبنية من الطين تحت الأرض . كان الوقت ساعة ما بعد طابور المساء الذي يحظر بعده على السجناء مبارحة الأكواخ .

أغلقت أبواب الأكشاك الثقيلة من الخارج . ولم يكن يمكن الخروج من فتحات النوافذ الضيقة المغطاة بالقضبان الحديدية .

كانت الليلة الشتوية في بدايتها . تمدد السجناء كل على فراشه . كان البعض يتحدث مع جيرانه في الفراش بينما لزم البعض الصمت وأفكاره تحلق بعيداً عبر القضبان الحديدية والأبواب المغلقة . بينما كان البعض مستغرقاً في النوم بفعل الإرهاق والضعف .

كنت أقيم حينذاك في كشك واحد مع «الصبية الثلاثة» في ذلك المساء كانت «العربة والبقرة» يجلسان على فراش لازار يتبادل ثلاثتهم الحديث الهامشي .

فجأة رأيت بركنناكو وهو شاب أوكراني قصير القامة ممتلىء الجثة ذو عينين ضيقتين تطفحان وقاحة .. يقترب من ساشا ويحادثه وهو ممسك في يده بصندوق شطرنج .

وأثار هذا انتباهي ، فقد كان بركنناكو معروفاً بالغلظة والاستهتار ومشهوراً بإثارة المشاجرات . كان يظن نفسه أشد قوة من جميع السجناء . كان منذ شب طفلاً يمارس السرقة وقضى معظم حياته في السجون . في كل مناسبة كان يتباهى بأنه يعي ويؤكد هذا للآخرين . ولعل هذا ما دعا بتروسيان ملك البلطية في السجن إلى اختياره رئيساً على خدامه وحفاظ حاجياته .

استمر الحديث بين بركنناكو وساشا لحظات جلسا بعدها على الفراش وراحا يلعبان الشطرنج . كان كلاهما في سرواله الداخلي وفانلته . فقد كان الجو في الكشك ساخناً بسبب الفرن المشتعل ليل نهار .

كان ساشا يبدو في سرواله وفانلته كطفل يرتدي ملابس أبيه .

فهمت من حركات بركنناكو العصبية أن موقفه على لوحة الشطرنج يسوء . بعد حوالي عشر دقائق من اللعب وثب بركنناكو منتصباً على قدميه وبـــدأ يصرخ في وجه ساشا :

- هل تعلم مع من تلعب ؟ أنا بركنناكو ! هل تفهم أيها اليهودي ؟!

قفز ساشا مواجهاً له رقيقاً قصير القامة .. غارقاً في قميصه وسرواله . ووقف بركنناكو أمامه ثابتاً واثقاً بنفسه وبجسده الضخم بالنسبة لجسد ساشا الضئيل .

وفجأة وعلى مرأى من جميع السجناء .. سدد ساشا بسرعة مذهلة لطمة واحدة .. واحدة فقط .. تحت فك بركنناكو . لطمة لم يزد عليها . وإذا بركنناكو ممدوداً على أرضية الكشك . غير انه انتفض واقفاً بسرعة وهو ينقض على ساشا بكلتا قبضتيه . غير أن ساشا لم يمهله . لطمة ثانية كالأولى تماماً .. ومرة ثانية كان بركنناكو مسطحاً على الأرض . كانت الدهشة بالغة لدى جميع السجناء . دهشة حركتهم جميعاً دون وعي إلى الانفجار بالتصفيق والهتاف لساشا .

وقف ساشا وسط العاصفة متأهباً وإحدى يديه تمسكان بسرواله الواسع الذي كان يصر في تلك اللحظة لسبب غير مفهوم على الانفلات إلى أسفل ...

عندما نهض بركنناكو للمرة الثانية .. اندفع إلى فراشه واستل منه سكيناً طويلة مصنوعة من السلك الغليظ ثم قفز تجاه ساشا . وفي لحظة قفزت أنا وإيليا .. ولحسن الحظ لم نكن وحدنا فقد تكون بسرعة غريبة جدار من السجناء يحول ما بين بركنناكو وساشا .. وكلمة واحدة تصدر عنهم جميعاً ..

كفى ! ..

لقد دفعني هذا الحادث للمرة الأولى تجاه الفتيان الثلاثة واتصلت بيننا وشيجة صداقة قوية .. فريدة من نوعها بالنسبة لظروف السجن .

كانت قصتهم بسيطة لكنها غير عادية في روسيا السوفيتية . كان ثلاثتهم طلاباً في جامعة موسكو يدرسون الطب في سنوات مختلفة . ولد ساشا في عام ١٩٣٠ بينما ولد الآخران بعده بعامين .

كسى الشتاء القارس وجه الحياة في مدينة كارجندا في عام ١٩٤٩ – ١٩٥٠ . كان شتاء نادراً في برودته وقسوة ثلوجه . فيه اختفت الأكواخ الطينية تماماً تحت الجليد حتى لم يعد يظهر منها شيء .

ومن الأحاديث المتقطعة التي كنت أسمعها منهم في أمسيات هذا الشتاء تكونت قصة حياتهم :

كان الثلاثة أصحاباً تربط بينهم صداقة منذ كانوا في فصول الدراسة الثانوية . وبطريقة ما وصلتهم أنباء حرب التحرير الطويلة التي خاضها اليهود في فلسطين .. فتملكهم الحراس واصبح حلمهم الكبير .. الاستعداد للهجرة إلى إسرائيل إلى الوطن القديم . ووضعوا مراحل للعمل من أجل الهدف . أولاً ينبغي إنهاء الدراسة والحصول على تخصص علمي ممتاز وبعد ذلك ينبغي الإهتمام بجمع المعلومات من جميع المصادر .. أساسية وغير أساسية .. حول تاريخ شعبهم وماضيه وكذلك حول تاريخ أرض فلسطين وماضيها .

وهكذا راحوا يقرأون ويحللون «حرب اليهود» لفوتخت فانجر وسائر كتبه واشعار بيالق في الروسية وكتابات جابوتينسكي .

كانوا يجمعون كل سطر وكل مقال عن أرض إسرائيل ينشر في الصحافة السوفيتية . وانضم ثلاثتهم إلى الكومزمول في الجامعة وسرعان ما تحولوا إلى خلية خاصة داخل الكومزمول العام . وبدأت هذه الخلية تنظم خلايا كومزمولية يهودية حولها . عندما وصل عددهم إلى بضع عشرات من الرفاق امتنعوا عن قبول أعضاء جدد . لم يقبلوا بينهم سوى فتاة واحدة على سبيل التجربة . وكانت هي السبب في الكارثة التي حلت بهم ولكن دون ريب منها . فلقد كانت ضعيفة لم تقدر على الصمود في تجربة التحقيق واحتمال العذاب على يد المحققين ..

واعتقل الجميع .

وفي السجن ظلوا يتصرفون على نحو ما كانوا يفعلون في خلايا الكومزمولات اليهودية :

كان الثلاثة يجتمعون في الأمسيات .. يغنون أغان بألحان روسية وكلمات روسية . لكن هذه الكلمات كانت تتحدث عن وطن بعيد .. عن المعاناة في الغربة .. عن أخوة يناضلون من أجل حرية الشعب الذي تعذب الفين من السنين .. عن المكابيين الجدد .

كانت معظم أغانيهم الروسية تنتهي بكلمتين أولهما روسية والثانية عبرية .. « أنا .. مهاجر » .

عندما سألتهم من اين لهم بالكلمة العبرية « مهاجر » لم يستطع أحدهم الإجابة على سؤالي . حتى ترجمة الكلمة لدى ساشا كانت غير عادية في اتساعها .. كانت الترجمة أوسع بكثير من معنى الكلمة المحدود ..

- المهاجر .. هو اليهودي الذي يسافر إلى إسرائيل ليكرس حياته من أجل الوطن ومصالحه ...

عندما سمعت هذا التعريف لكلمة مهاجر تذكرت يهودياً كنت أعرفه عرف كلمة « حالوتس » « رائدة الهجرة » بأنه كتلة الحديد الخام التي يخلق منها الوطن ما يحتاج اليه ..

لم يكن اسم ذلك اليهودي ساشا بالطبع وان كان اسمه قريباً من هذا في جرسه . أوسيا .. أوسيا ترومبلدور .

حكيت لهم عنه . كنا نجلس معاً ساعات طويلة وعيونهم معلقة بي في توهج وهم يصغون لحديثي في انفعال وتيقظ .

لقد تحولنا إلى كتلة واحدة .. إلى إنسان واحد داخل السجن .. داخل واقع قاسٍ مثير للسخط والكدر .. يشبه السلك الشائك المكهرب .. يشبه الجندي الكئيب الواقف بمدفعه على برج الحراسة .. يشبه أكواخ الطين الكريهة في جوف الأرض .. يشبه

رقم السجن على ظهر الإنسان وصدره وقبعته .. يشبه العمل الشاق على أرض كاراجندرا القاسية وفي مناجمها ..

ومع كل هذا كنا نعيش في حلم .. لقد جذبني الشبان معهم إلى عالم المستقبل الذي كانوا في انتظاره .

والآن بعد عشرات السنين من تلك اللقاءات الرائعة أجد نفسي أردد وراء أولئك الشبان وبنفس اللحن وبنفس المعنى تكلما الكلمتين اللتين حدد ساشا في السجن معناهما دون أن يعرف كلمة عبرية واحدة ...

... « أنا مهاجر » .

المهربـة

بقلم .. جدعون تلباز

قصد « يعنقل جورنيشف » تاجر الأسماك إلى دار « مصيماه جاروس » يتودد إليهـا ويخطبها لنفسه . كان ذلك بعـد وفاة زوجته بأسبوع .. وبعد انقضاء ستة أشهر على وفاة زوجها .

كانت الشمس تتوسط كبد السماء مؤذنة بحلول ظهر يوم السبت.. بينما الضيف يطرق الباب وقد بدا في انحنائه أشبه بشجرة عتيقة مقوسة وفي لهفته كمن الهبه الشبع وحرك الدم فواراً في جسده .

جلس إلى المنضدة الخشبية المربعة وراح يقضم البشطيدة « نوع من العجين المخبوز » وهو يرنو إلى الأرملة بنظرات طويلة لا تنقطع .

بدت حلته غبراء اللون .. وكأنها معلقة على جسده بطريقة تنم عن رقة الحـال .. بينما تدلى رباط عنقه الحريري على صدره وقد غطته صور لعصافير غير محلقة .

على المنضدة الخشبية .. تدلى مفرش من القطيفة المحلاة بالرسوم يكسوه غطاء من النايلون وضعت عليه أطباق فخارية بها بعض فطائر العسل وقطع البشطيرة وإلى جوارها أكواب النبيذ الأحمر الحلو وسلطانية بها مزة من النواشف والفول السوداني .

ها قد أصبحت دون زوج .. وأنا بلا زوجة .. نتزوج إذن وليذهب ملاك الموت إلى الجحيم . قال الضيف في صوت أجش .

كانت قصيماه تجلس في صمت وهي تأكل إحدى فطائر العسل . بينما شمس الخريف تطل من النوافذ وقد شاعت في الحجرة رائحة اللحم المشوي والبصل المحمر مع الثوم والباذنجان ممتزجة بعفونة الحجرة ورائحة عطر رخيص .

كانت صاحبة الدار ترتدي ثوب يوم السبت، ثوب أزرق بهيج محلى بالورود الصفراء. لم يكن تاجر الأسماك يحول عينيه عن وجنتيها المكتسيتين بطبقة من مسحوق الزينـــة الأبيض ولا عن فمها الذي أكسبه أحمر الشفاه الموضوع بلا دقة شكلاً مربعاً .

تنهد الضيف بطريقة تنم عن نفاد الصبر وقال .. إنني اليوم في العشرين من عمري .. إنني إنسان حي .. الدم يصرخ والقلب يتشهى فتيات « صفد » الجميلات وهل هناك من يفقنهن طهياً ؟

سنقيم حفل عرس جميلاً .. سيشرب المدعوون النبيذ ويأكلون السمك .. راح يدق المنضدة بأصابعه في جزل وقوة.. ثم ألقى بجسده إلى الخلف مسترخياً في مقعده وعيناه تومضان كقطعتين من زجاج . سيسعد زوجك زوفلون .. قالها في صوت أقرب إلى الشخير .. لقد كان يكن لي الاعزاز .. سوف يهدأ بالاً في قبره .. كذلك لن تشعر زوجتي حداه ، طيب الله ثراها ، بالحزن .. فلقد كانت صديقة طيبة لك .

آه .. ما زلت أذكر كيف كنت تختالين في شوارع صفد مثل اليوم من خمسين سنة .. جميلة كالقمر .. وقلبي الأحمق ينخلع لمرآك ..

– يعنقل !! هل اهتز عقلك .. قالت قصيماه مبتسمة .. مثل اليوم منذ خمسين سنة كنت ملقاة في السجن النمساوي .

– النمساوي ؟ قالها الخطيب وعيناه تدوران في حيرة ثم تناول في عجلة جرعـة من النبيذ .

– لم يكن القيصر فرانس جوزيف يحب التهريب .

– يا لغبائي ! صاح يعنقل جوزنيشط .. لقد رحلتم في ذلك الوقت إلى فينـا .. كان ذلك وقت الحرب .. كان الانجليز قد وصلوا إلى يافا وكان الأتراك ما يزالون في صفد . كانت مجاعة هائلة ووصلت خطابات من فينـا تفيد ان الحصول على لقمـة

العيش هناك كان ما يزال ممكناً . وسعيتم أنتم للسفر .. وسحقاً له من سفر .. لقد تعذبت أنت .. أولم يتحرك زوفلون ؟

- زوفلون ؟ لقد كان رحمه الله في إحدى المصحات .. وماذا كان بوسعه أن يعمل ؟

- يا للشناعة .. لقد هجرتم صفد بحثاً عن لقمة العيش في فينا .

- كنا حوالي عشرين أسرة .. قالت قصيماه وعيناها تومضان وميضاً غريباً . كان كل متاعنا بعض الخرق وقليلاً من الحلى المخبأة .

قال الرجل الهرم في أسى .. لقد كانت العربات التي حملتكم سوداء .. سوداء كتوابيت الموتى .

أخذتنا العربات إلى دمشق .. وبعد ذلك لم تكن هناك مواصلات .. ولم تكن لدينا جوازات مرور . كانت دمشق تغص بالجنود الأتراك المدججين بالسلاح والعفن .

- لتذهب دمشق إلى الجحيم .. صرخ يمنقل جورنيشط .

- ظللنا نذهب ونجيء أياماً وليالي بين القنصليات حتى حصلنا على الأوراق المطلوبة . ركبنا قطاراً عسكرياً إلى القسطنطينية .. في القطار رأى الجنود النساء الجميلات .. داخلهم الشيطان وحاولوا اقتحام العربة ..

في تلك اللحظات اعترض زوفلون باب العربة بجسده وهو يصيح فيهم .. أدخلوها على جثث .

- رحم الله زوفلون .. كان قلبه دائماً عريناً لأسد صغير .. أمّن تاجر الأسماك مؤكداً عبارته بإيماءة من رأسه .

- عندما وصلنا إلى القسطنطينية .. لم يكن هناك من يستقبلنا بالدفوف والمزامير .. هناك أصيبت راحيلاه ابنتي بنزلة شعبية . في ذلك الوقت كان عمرها سنتين ونصف .. كنت طيلة الوقت منشغلة بالبحث عن مقبرة لها .. كنا فريسة للجوع بلا نقود وبلا زاد . في القسطنطينية رأيت في الحمام أجمل نساء العالم ..

- ماذا حدث لراحيلاه ؟ .. قاطعها الرجل وهو يقضم البشطيرة .

ـ تم لها الشفاء بوصولنا إلى بودابست .. كانت تقيم في بودابست جالية يهودية خيرة رحيمة .. عرضوا علينا ملابس وأغذية ونقوداً . إلا أن النفس أبت الإحسان .. بعت ما بقي معي من حلى وخطت جيباً داخلياً يلامس قلبي أودعته النقود .

واصلنا طريقنا إلى فينا .. في الطريق صعد رجال الشرطة إلى القطار في قاعة الحجز . رحنا جميعاً نستصرخ ونستغيث حتى بلغت أصواتنا أبواب السماء .. غير ان أبواب السماء كانت مقفلة . كنا لاجئين مشردين .. عندما نال منا الاعياء تمددنا على الخشايا وقبل أن أخلد للنوم تحسست الجيب الصغير كعادتي . غير ان النقود كانت قد اختفت .

ماذا أقول لك .. لقد كان كل ما تمنيته في تلك اللحظة هو ان يطلقوا سراحي لألقي بنفسي تحت عجلات القطار .

– يا للجنون ! .. أكنت تريدين الموت في برسبورج .

– وصلنا إلى فينا .. بمجرد وصولنا أخذوا زوفلون للعمل في الجيش .. وكأن جيوش فرانس جوزيف ما كانت أحوالها لتستقيم بدونه .

لم تجد دموعي وتوسلاتي .. ولم تؤت توسلاته ثمرة .

ووقع زوفلون فريسة للعذاب .. فقد رغبته في الطعام .. لم يكن يتناول في اليوم كله سوى سمكتين مملحتين وكأسا من الجعة . بعد أسبوعين كانت قواه قد انهارت وفقد سمعه .

قبل أن يأخذوه إلى الفحص الطبي .. ذهبت إلى الطبيب العسكري دكتور ليشبتسي . وعندما رآني في اسمالي أحمل الرضيعة بين ذراعي .. أمر على الفور بإعفاء زوفلون من الخدمة العسكرية . غير ان صحة زوفلون – رحمه الله – ازدادت سوءاً فاضطررت بناءً على نصيحة الأطباء إلى إدخاله إحدى المصحات .

لقد كلفني هذا دمي .. في الوقت الذي لم أكن أملك فيه درهماً . كنت وحيدة .. رضيعة على ذراعي .. وزوج في المصحة .. والحرب من حولي .

وماذا يمكن لإمرأة أن تفعل ؟ .. إن المرأة مجرد امرأة ولا أكثر .

– اتجهت إلى التهريب إذن . قالها الخطيب الهرم وكأنه يتجشأ .

– كانت فينا في ذلك الوقت تعج بالفوضويين ورجال العصابات والبلاشفة والمهاجرين وسماسرة الجريمة على كافة ألوانها .

ما الذي كان يهمني أنا من الإمبراطورية الالمانية ؟.. وما الذي كان يعنيني من أمر المملكة النمساوية بذاتها . كنادرة في تاج عالم الجريمة .

هل تعرف شيئاً ؟ إنها تقع في قلب أوربا .. كانت تخرج منها القطارات إلى جميع انحاء المملكة النمساوية المجرية ؟ ومالي أنا ولينين ؟

لقد كوّنا نحن مهاجري (صفد) عصابة مستقلة بذاتها . كنادرة في تاج عالم الجريمة .

هل تعرف فينـا ؟ إنها تقع في قلب أوربا .. كانت تخرج منها القطارات إلى جميع أنحاء المملكة . كانت أذرعة التهريب ممتـدة وطويلة . كنت أسافر مشرقاً إلى براغ وليبزج وبوزن وكركوف بل كنت أزور دانزج في بعض الأحيان .

كان سفري يمتد أياماً .

عندما حدث التضخم المالي .. كان الناس يحرقون أكياساً مليئة بأوراق النقد التي لم تمد تساوي شيئاً . لم يكن يمكن أن يشتري بها أحد حتى جناحي ذبابة .

وحكت لراحيلاه معطفاً ببطانة مزدوجة .. كنت طيلة الوقت أمـلأ البطانة وأفرغها . تبغي .. ماس .. سبائك ذهبيـة .. كوكايين .. أدوية وما إلى ذلك من بضائع نفيسة .

كنت أتخذ هيئة متسولة وأطوف على الأبواب .. كنت ألبس اسمالاً وأحمل خرجاً على ظهري وسلتين في يدي وراحيلاه بين ذراعي .

ويعلم الله .. لقد كنت منيعة .. في مناعة القلعة الحصينة . لم يكونوا يسمحوا لي بالالتقاء بزوفلون خشية أن ينفعل ويتأثر .

كنت أقف في فناء المصحة .. أحادثه خلال النافذة وأريه راحيلاه . كانت هناك يهودية تمتلك مطعماً صغيراً .. تملكتهـا الشفقة علي فكانت تقدم لي بين الفينة والأخرى طبقاً من الحساء من أجل الطفلة .

قابلت مرة في براغ في بيت إحـدى تاجرات الجريـمـة .. شاباً رقيقاً كيّساً من سويسرا كان أعزب وغنياً .. عندما غادرت بيت التاجرة ..

سألها الشاب عني .. فأجابته قائلة .. هي امرأة شابة من عائلة طيبة في صفد زوجها في إحدى المصحات وقد حظروا عليها أن تعيش معه .

فقال السويسري .. سأتزوجها .. إذا ما طلقت . عندما روت لي التاجرة هـذه المحادثة .. امتنعت عن التردد عليها وشطبت اسمها من قائمة عملائي ..

– هيه .. يا للغرابة .. مثل اليوم منذ خمسين سنة .. صاح يعنقل .

قصيماه !! لقد قلت انك كنت في السجن النمساوي .. فمن الذي أودعك السجن ؟

– الشرطة السرية .. قالتها قصيمة وهي تبتسم . وهاك ما حدث بالتفصيل ..

كنت أسافر إلى براغ .. استغرق يوماً في الذهاب ويوماً في العودة . كنت أترك راحيلاه في البيت تلعب وحدها . وكانت احـدى الجارات تقدم لها كوباً من اللبن وقطعة من الخبز كل فترة من الوقت . كنت أسافر يوم الخميس من كل أسبوع وأبكر في العودة يوم الجمعة لأصل إلى فينا قبل بداية يوم السبت . وفي إحدى المرات لاحظت ان رجلين يرتدي كل منهما معطفاً وقبعة يصعدان ورائي إلى القطار .

وعندما بدأ القطار يتحرك .. دخلا إلى العربة وجلسا قبالتي .. وساعتها أحسست بخطر يتربص بي .

مر القطار بمحطات عديدة غير انهما لم يغادراه في محطة .

رحت أفكر .. وانتهيت إلى ضرورة الهرب .عندما يقف القطار في إحدى المحطات سأنهض من مكاني وأغادر القطار تاركة أكياس البضاعة في العربة . رسمت خطتي على التضحية بالبضاعة .

وعندما وقف القطار .. نزلت .. لكنهما تبعـاني .. جريت في مبنى المحطة حتى وصلت إلى بابها فإذا بثلة من رجال الشرطة تسد الطريق في وجهي . كان أول ما فعلوه أن أخذوا جواز سفري ثم اقتادوني إلى مقر الشرطة وبدأوا التحقيق معي.

رمقها تاجر الأسماك بنظرة تعكس حيرتـــه وقطب أسارير وجهه وهو يسأل في دهشة .. وما الذي كانوا يريدون معرفته ؟

أجابت قصيماه وهي تبتسم .. تعني .. ما الذي لم يكونوا يريدون معرفته ؟

إنهم لم يتهموني بالتهريب فحسب بل بالتجسس أيضاً .

كانت لديهم قائمة دقيقـة بكل مواعيـــد سفرياتي . انكسر كل شيء وصمت على الانكسار . فقرروا إيداعي الحبس لحين انتهاء التحقيق . رحت أتوسل اليهم .. رحماكم أيها الرجال الطيبون .. إنني امرأة مسكينة .. زوجي في المصحة .. رضيعتي تنتظرني في البيت .. اليوم الجمعة وعلي أن أعود إلى فينـــا قبل بداية السبت . غير ان شيئاً من هذا لم يجد .

ابتسم لي الحظ فـلم يفتشوا ملابسي .. رشوت أحـد رجال الشرطة بعملة ذهبيـة ليأتيني بأحـد الحاخامات وغابت الشمس دون أن يأتي الحاخام . قضيت ليلة السبت كلها على حشية عفنة وعيناي مفتوحتان تحدقان في الظلام .

وفي الصباح اقتادوني إلى التحقيق .. كنت فريسة للخوف والاعياء ومع ذلك لم أفتح فمي بكلمة . وعندما وصل الحاخام في الظهر ارتميت عليه وكدت أتعلق برقبته . اطلقوا سراحي بضمان الحاخام على ذمة التحقيق .

ولكنني بعد ثلاثة أيام فقط كنت أجلس بالقطار في طريقي إلى فينا ..

– يا للغرابة ! يصرخ يمنقل جورنيشط .

كانت الشطيرة قد اختفت في أمعائه وكان يلتقط الفتات من على المنضدة ويقذف بها إلى فمه . قال وقد أحنى رأسه ..

– قصيماه .. إذا كنت لا ترضين بي زوجاً .. فاخطبي لي إذن واحدة ممن كن بين حسناوات صفد في ذلك الوقت .

حدجته صاحبة الدار بنظرة طويلة في صمت . ثم انفجرت فيه ..

– أي رأس مليء بالقش هذا .. رجل يجلس تحت سقفي .. يشرب نبيذي ويأكل بشطيرتي ويصغي لقصتي .. ولا يفهم ..

كنت أتحدث إلى الأخشاب والأحجار إذن .

بعد قليل .. مدت قصيماه يدها فملأت كوب النبيذ الخالية أمام يعنقل .

تجرع تاجر الأسماك ما في الكوب ثم مسح بيده شاربه المبلل . وفي الخارج كان نهار السبت قد انتصف .

كان ذلك بعد ستة أشهر من موت زوجها وأسبوع من موت زوجته .

نهض الضيف خارجاً ضيق الصدر وعيناه ترمشان وكأنه قد تأخر عن اجتماع هام .

جلست قصيماه صامتـة وشبح ابتسامة تحمل معـاني الحيرة وخيبة الأمل .. يرتسم على فمها .

ظلت في جلستها وقتاً طويلاً .. وصوت يتردد في أذنيها .. صوت عجلات قطـار بعيد يجري على القضبان .

لقد كان ذلك .. القطار المتجه إلى فينا منذ خمسين سنة .

الاحزان الموضعية
في القصة القصيرة

كان يمكن شراء مدفع بهذا المال

روت الموجي

روما مرتبطة بالمشقة ..

مرتبطة بملامسة سطح منضدة البلوط الخشبي المقشور القديم ، بنفض الغبار عن الحاجيات القديمة في الحجرات ذات الدلف الخشبية المقفولة ، بحقول تكسوها صفرة كركمية ، بطنين النحل الثقيل المضني .

روما مرتبطة بهذه المشقة ، بانكسار النفس ، بالحرارة لكنه لا تنبغي الشكاية ، فهناك حيث يقيم صديقي ميخائيل الحرارة أشد وأقسى ..

روما مرتبطة بالأشواق ، وعندما أسافر إلى روما أقابل فيليني ، قابلته لآخر مرة منذ ثلاث سنوات كان ذلك في شهر أيلول وكان النحل يطن في حقول الصيف فتذكرت خلايا النحل التي يملكها أبي عندما كنت أصرف الشيك في البنك ، كان هناك رجل حسن المنظر يدخن البيبة وينظر إلي في ابتسامة رقيقة ، تعقبني عند خروجي ، كان من المستحيل عليه ان يحدس انني اقيم في روما في مقهى مع فيليني مكدودة لدرجة الموت .

الطلب على احلامي حالياً اقل مما كان عليه دائماً ، ان المستهلكين القليلين يعملون هم ايضاً في انتاج نفس البضاعة . روما مرتبطة بهذا .

كنت مرهقة في ذلك الصيف ونفسي نهب لاحلام مفزعة تتأجج وتخبو دون انقطاع .. تخنقني في صمت بلا درامية كاللجة التي ترتفع بالبحر عندما تمسه يد ريح ضالة دوارة ،

وهكذا سافرت إلى روما وهناك في مقهى اقترب مني الرجل القصير الأصلع ذو عين الساحر وسألني عما إذا كنت في حاجة إلى مساعدة .

عرفت أنه فيليني الذي يسحر بالصور المتحركة ، نحن الآن في شهر نيسان والصيف مقبل ، لكن نفسي ضائعة في رؤى التيه والنوم بجانين وأنا في روما .

الحاجيات باردة خرساء وما لدي منها هرم في معظمه .

هي دائماً مسترخية ونبيلة في سكون أنفاسها ، كنت أود أن أكون إحدى الحاجيات ساكنة كالماء .

منذ حوالي ثلاث ساعات كتبت قصتي الأولى عن راحيل سطران .. عن لقائها الأول بفيليني في مقهى بروما وعن القصص التي تتخيلها لنفسها ..

أحلام لا تنتهي على الاطلاق ..

والآن وحيث انه لا طلب هنا على الأحلام التي انتجها فإنني أحمل ميخائيل معي وأنا مسافرة إلى روما ، انني لا أحب هذه المدينة فهي غير جديرة بالحب .. لكن فزع الصيف المرهق يعيدني إلى الرخام الأبيض الفخم الأصم.. إلى الحدائق المصففة بدقة لا تدع فسحة للانطلاق .. إلى مياه الفسقيات السحرية .

قد يفضل ميخائيل التنزه في شارع فينيتو في الطريق المتوهج بالأضواء ، ستحبه النساء ، انهن ينجذبن دائماً إلى رجل الجيش ، ان ميخائيل ضابط برتبة رائد ، في المكان الذي يتواجد فيه فان الأحلام تكون من نوع آخر ، لكنني أفضل أن اتجول معه في شارع آفياه العتيق بين أشجار الصنوبر المثقلة بثبات السنين والتي لا يوجد إلا القليل من مثلها في اسرائيل . منذ ثلاث سنوات كنت أقرب إلى نفسي و كتبت قصة عن راحيل شطران ، أما اليوم فأنا غاية في البعد لدرجة أنه يمكنني أن أتكلم في ضمير المتكلم وأنا أحكي بلا خشية كل القصص التي لا نهاية لها على الاطلاق ، القصص التي لا تصل أبداً إلى هدفها .

انني أريد أن آخذ ميخائيل إلى روما لبضعة أيام في سبيل الراحة .

روما مرتبطة بالأشواق ، بالصباح .

لكنني لا أعتقد ان ميخائيل سيتوسلني ، انه لا يحتاجني ، بينما أنا كالنبتة الطفيلية في حاجة إلى عصارة أشجار الصنوبر الندية في الشتاء ، كي أصبح سماً أو حلوى نادرة الوجود ، انني في حاجة إلى نباتات خضراء مثلي في هذا مثل حشيشة الدينار التي تلف سيقانها على غيرها من النباتات لأنها تفتقر إلى الأوراق الخضراء والكلوروفيل .. انها تستمد غذاءها ممن يستضيفها ، انها تجرده من عصارته وتأتي علـى قوته ، انني أحكي لنفسي انني سألتقي به إلى جوار قبر أدريانوس وإننا سنذهب في الليل حيث نقضي سهرة ممتعة ونلتقي بفيليني ذي عيني الساحر والنجوم العديدة ، انني لست مطلوبة هنا ، أوليس الطلب على الأحلام التى انتجها معدوماً ، هناك سأستطيع التمثيل في الأفلام ، كذلك يستطيع ميخائيل ان يلعب دوراً ، إن الجياد وأحزمـة المسدسات ستناسب ميخائيل .. الرائد .

انني وميخائيل لم نلتق قط . اننا نتحدث أحياناً في التليفون عندما يلقيني الارهاق على أجهزة الإتصال في عصرنا ، في حديثنا الأخير قال لي : « تعالي الي » لكنني رفضت فسألني : لماذا اذن أصر على الحفاظ على صلتي به ؟ كان في مقدوري أن اجيبه غير ان صاحبة المقهى طلبت مني انهاء المكالمة ، كان في استطاعتي أن أحكي له إلى أي حد أشبه الرافسليناه الكبيرة التي تضرب جذورها في جسم غريب حتى يتفتح برعم زهرتها فيه ولا تنفلت خارجاً إلا في أوان ازهارها حيث تتفتح ، إن قطر زهرتها يصل أحياناً إلى متر ، لون تاجها احمر مطعم ببقع صفراء وتجذب الرائحة الآسنة المتصاعدة منها ذباب القاذورات فيحط دائماً على جذعها .

كان في مقدوري أيضاً أن أقول له إن الصلة الجسدية هي غالباً العدو رقم واحد لأي علاقة لأنها تؤدي بنا في الواقع إلى تحويل الحب ، كنت أود لو قلت له انني أعرض عليه صداقتي وان التعري ممكن أيضاً عبر التليفون ، انني بطريقة غير ملموسة تماماً أيضاً عبر التليفون ، وانني بطريقة غير ملموسة تماماً قريبة اليه لانني أعيش حياتي أنا أيضاً على حدود الصراخ وانني قد عشت وقتاً ما على اعتقاد انه لا يمكن الاتصال بالآخرين إلا من خلال الجسد ، لكنني لا أعلم ما إذا كان سيفهم ، ربما كان مثل هـذا الفهم خطيراً عليه .

ان الفزع يقودني إلى روما ، كذلك الأشواق .

لقد زرت أماكن عديدة خلال السنوات الثلاث الماضية كذلك زرت جبـــل فيلون باليونان ، انه يشبه شارع الاحباش في القدس في طبع جماله وفي الهدوء الوحشي الذي يخفي وحشيته ، قابلت أناساً كثيرين في السنوات الثلاث الماضية ، لكنني لم أقابل فيليني ولا ميخائيل ولم أحضر إلى روما وما ذلك لأنني لا أحبها ، ولكنني الآن مكدودة وأستمع إلى الموسيقى أكثر وفي كل مرة أعود إلى روما .. إلى فيليني .. أحمل ميخائيل عند سفري .

في احدى المرات كانت لدي حديقة إلى جوار البيت كنت أكثر من العناية بها لأنني أحب الزهور ، في أحد الأيام رأيت زهرة الايزداريخت وهي تزهر واعتقدت انه لا مثيل لها في جمالها ولمعانها وطيب رائحتها ، انها تزهر في الربيع لفترة قصيرة ، وغرست في حديقتي واحدة ورحت انتظر ، عندما كبرت قليلاً وبات هناك أمـــل في أن تزهر في الربيع التالي بدأ صاحب البيت يشكو ، كان يخشى أن تفسد جذورها أرضية البيت ، في إحدى الليالي تسلل إلى حديقتي واقتلعها .

في الحقيقة ينبغي في مثل جونا حيث المياه قليلة ان يكون الانسان عملياً ، لا مهلة للانسان كي يفرغ لجمال البدر الذي يبزغ في منتصف الشهر ، ألن يهبط عليه قريباً رجال ويجرون دراسات مختلفة عن نوع البحوث التاريخية والأثرية التي يجرونها في رومـــا أيضاً . انني أحلم بالبدر لكنه لم يعد هناك في الحقيقة طلب على الأحلام ، في الجو القاسي لا تتوافر مهلة للانسان ، ومع كل هذا فانني احمـــل ميخائيل معي في خروجي ننتقل احياناً من مقهى لآخر نشرب الدرامبوي وهو ويسكي مخلوط بالعسل .

ان مذاق العسل يعيدني إلى حقول الصيف فأنسى فيليني للحظة ، إن له نصيباً كبيراً في أحلامي في الفترة الأخيرة ، اقصد ميخائيل ، انني اشعر انه من غير المناسب ما افعله عندما اتخيل نفسي رافلسياه كبيرة او عش الغراب ، انها اشياء مطلوبة في البلاد الغنية ، فهناك مكان للكماليات اما هنا فقليلون من يعرفون مذاقها ، الانسان هنا لا يمهل ، لا بد من الأصغاء للاخبار ان ميخائيل يريد ان احضر اليه ، انه لا يقدر اننا نعيش في روما معاً انه يريدني ان احضر ، لكنه يمتنع عن الاتصال ، وعندما يكون راقداً في الفراش

مع امرأة فانه يحادث الأخرى في التليفون وعندما ينهي المحادثة فانه يدير القرص على رقم آخر .

انني ما كنت أصمد في تجربة كهذه ، علني كنت أموت ، ان الارهـــاق يدعوني للهرب ، لقد بدأت أظفاري تتشقق كأظفار جدتي ، لقد كنت أسأل نفسي دائماً : لماذا تنزف أظفار جدتي ؟ لم أكن أعلم ان الأظافر كالشجر الذي يقاس عمره بمـا يضاف اليه من شروخ ، انني لن أستطيع أن أمثل في فيلم مع فيليني انني لست شابة بما فيه الكفاية ، ربما استطاع ميخائيل أن يحصل على دور فهو رجل بارد ، انني اعتقد انه يعرف التقبيل ، انه الآن وفي كل مرة يعود فيها يروح يبحث عـــن شيء آخر ، شيء مختلف لا يرتبط به ، شيء يبدد الخطر فجأة مثلما في لحظة التراخي التي تحل بالجسد بعد المزاوجة .

انني مضطرة لأخذه معي في خروجي ، انه سيحب روما ، الا تتظاهر هي الأخرى بأنها باردة رخامية وشابة وكأنها قد نسيت فجورها القديم وفداحة ما جرّته من نكبات وقسوتها الكريهة ، هناك في فندق غريب هرم متداع مسترخ وحر قد يتعلم أن يدرك ما هو الحب .

روما مرتبطة بالارهاق ..

روما مرتبطة بالأشواق ..

اننا نتحدث في التليفون وهو يقول لي ان احضري ، وعندما أقول له انني واثقة من انني لن أصل فانه يتحداني ، فانه لا يقين الا من شيء واحد ، انه في كل محادثاته تقريباً يذكرني بأن أي شيء غير يقيني فيما عدا ذلك الموضوع المعين والمحدد الذي لا يعقبه شيء .

وانني أسائل نفسي أية الأحلام يحلم ميخائيل ، لقد حكى لي صبي أنه حلم كيف وضع سريره في حقل على العشب وكيف كانت هناك شجرة واحدة فروعها خيوط وأغصانها تشتعل .

قد حكى هذا لميخائيل يوما ما .

لست أثق في أنه سيصفي .

في القصة الأخيرة التي قصصتها عن نفسي كنت انستسياه دون أي صلة بالأميرة الروسية ، كنت امرأة تريد أن تخفي ذاتيتها وتأمل في أن تبعث من جديد ، في هذه القصة أيضاً وصلت إلى فيليني وجردت عينا الساحر عنده روحي من سترها ، لكنني في هذه المرة لم أصل وحدي ، لقد جئت في صحبة رائد أجرى معه لقاءات تليفونية منذ بضع سنوات .

ان التخفي وراء أسماء مستعارة شيء مريح ، لكنه من المستحيل تقريباً أن أحكي عن آخرين ، حتى عن ميخائيل يصعب علي أن أحكي ، انني فقط أجري تغيرات ومع كل هذا فان هناك دائماً شريكاً في هذه القصص اخترعه لنفسي ، اي غريب لا اعرف عنه شيئاً .. اي غريب ميخائيل يصعب الاتصال به .. يستحيل المجيء اليه .. يبقى نادراً في البيت ، انني استمع إلى مقطوعات موزار ، موسيقى مشحونة بالنكبات مثل حياتي ، موسيقى مرهقة .

من وقت قريب وزعوا عندنا منحاً مالية على الأدباء ألم يكن يمكن شراء مدفع بهذا المال ، يكفينا الخبز ..ان عش الغراب من الكماليات تماماً مثل الحب .

لقد بدأت افكر بطريقة ميخائيل ، بعد قليل سأحب روما ، بعد قليل سيصبح تسكعها البارد جزءاً من نفسي ولحمي ، ان الرافسلياه الكبيرة تستطيع ان تعيش بلا حيرة في غابتها الخضراء الندية على الدوام .

لقد بدأت اعتقد انني ربما اجيء إلى ميخائيل ، انه ربما لن اموت خرساء وغريبة عن نفسي في فراشي .. انه قد لا يكون الجسد في الحقيقة عدواً لأي ارتباط حقيقي .. انه لا مهلة لمسايرة الاحلام عن حب الأرواح كما هو الحال بالنسبة لسائر الأرواح .

روما مرتبطة بالأرهاق

روما مرتبطة بالأشواق

روما مرتبطة باستصراخ النفس إلى بعيد

روما مرتبطة بانكسار النفس

أولست لا احب إلا جبل فيلون في اليونان وشارع الأحباش في القدس لكني لا اصل إلى هناك . في القصة المقبلة سأسمي نفسي انستسياه دون ما ارتباط بالأميرة الروسية سأحكي عن امل امرأة في ان تبعث من جديد .. في روما .. مع فيليني وستكون القصة بلا نهاية كذلك ، مثل الحرب .. مثل محادثاتي التليفونية مع ميخائيل .

الحالمة

بثيناء عاميت

أسكن في بيت ، زوجة لزوجي ، أذهب لعملي أعود ، أجد صعوبة في أن أنام ، أحياناً ينتابني كابوس وأنا نائمة فيصعب عليّ الخروج في الصباح ، ومهما حاولت أن أعمل وأن أرى وان افهم بقي مذاق الأحلام في فمي .. في عيني .. في ملمس يدي .

حزن يخرج من أحلامي وينسكب على كل أيامي انني معزولة وافكاري مع نفسي .. زوجي ينظر في ويعود إلى أشغاله ، عله يخشى أن أقول انني غير سعيدة بعد عامين من الزواج ، عندما يمسني حزنه أحياناً ..

أطلعه على افكاري ، ماذا تفيد كلمات الطمأنة وقلبي مليء بالحرب والموتى .

عندما سألني .. عندما تجاسر وسألني – هو من طبعه الجمـــود .. بطيء دائماً .. ينظر إلي في دهشة – : لماذا لا اريد أطفالاً ؟ « كذبت عليه فقلت لنعش عاماً آخر لأنفسنا » أقامت أمي وليمة لأخي عندما عاد ، تزوجت أمي ثانية ، وهذا ابنها أخي ، كان رفاقه يحكون عن بطولته لجيراننا ، نكس أخي عينيه ، ما الذي يفكر فيه حقاً هذا الفتى .. بماذا يحس ؟ انني لا اعرفه مطلقاً ، لماذا لا تقولين شيئاً ؟ سألتني أمي : لماذا لا تشاركينا ولو مرة في أفراحنا ؟

انني تعبة يا أمي ، ولم لا تدركين ان قصص البطولة في الحرب كريهة إلى نفسي ؟ ما هذا الذي تتحدثين عنه ما هذا الذي تزجينه ؟ ما هذا الذي تضاهينه ؟ ..

اليست هذه هي الحرب ، انني لا افهم الموت وان كان هو الشيء الوحيد في الحياة الذي يتجاوز حدود الشك .

الموت وحده مفهوم عندي اقل من اي شيء .. اعجب عندي من كل شيء .. كريه لدي اكثر من اي شيء .. يخيفني ، يهزني كل يوم وكل ليلة في احلامي التي لا تفارقني ، منفصل عن كل شيء .. يقيني فوق كل شيء .. مرئي ومنظور ومسموع .. مستشعر ومحس ومدرك .

عينا اخي منكستان بينا رفاقه يغدقون الثناء عليه . ربما استطعنا ان نتحدث مرة عندما ادعوه إلى السينما .

ولماذا لا يكون لي حفيد في النهاية يا ابنتي ؟ قالت امي..«ولدت انا بالصمت » .

وفي احدى الليالي منذ سنوات عديدة .. كنا انت يا امي وانا واخي الصغير وابي داخل حفرة .. في صراخ ورائحة شياط ووجوه مذعورة وصوتي ضائع من الفزع بينكم جميعاً وسط الدمار والريش المتطاير المرتعد والنار المحيطة بنا ، وهربت إلى حقل بينما شعري يحترق وساقاي مجروحتان .. لم انجح في طي ماضي داخلي .. وطفولتي تصرخ من لحمي الحي .. من عيني وهما تنظران حولي فلا تريان شيئاً لأن كل شيء ينهار ، يداي لا تمسكان بأي شيء ، فكل شيء يحترق ، قلبي لا يتعلق بأحد « انني مليئة بالموتى ورائحة عفنهم تفوح من كل شيء ، ولكن الليلة حلمت ثانية بنفس الحريق والزلازل ورائحة شياط ووجوه شاحبة وهزة غاية في القوة أطاحت بي وقذفتني من على الرمال بعيداً إلى داخل انقاض وحطام ليجثم فوقي شيء ثقيل ، كانت ساقاي مشققتين ويداي متقيحتين وعيناي ملتهبتين ورائحة كريهة تفوح من شعري .

فجأة اقتربت مني امي وبين يديها رضيع ، اخي الحي وإلى جانبها ابي .

واستيقظت من النوم لشدة الانفعال ، ولم يعد زوجي لثلاث ليال ، شيء غريب ، لم يطرأ على ذهني انه سيفعل بي هذا ، لقد اتيحت له فرصة ، كان في مقدوره ان يسحق كل موتاي ، زوجي ، بيتي ، ولدي » .

الصمت

شمعون بار

لزم الصمت ثلاثة أشهر ، كان في مقدوره ان يصمت أكثر .. غير أن البعض حكى له عن عمانوئيل وبذا فقد الصمت مدلوله الوحيد هو الهروب .

بقدر ما اتسعت رقعة البلاد وتجاوزت حدود الخرائط بقدر ما قلت الأماكن التي كان يمكنه الهروب اليها، ثلاثة أشهر ملأ فيها كل الآخرين كل الأوراق بكتابات مزدحمة محتشدة وأغرقوا فيـــها أنفسهم والآخرين ، لزم الصمت ، كان يجيب واحساس الخجل يغمره :

« ليس لدي ما اقول » « كان لدي وربما سيكون ولكن ليس لدي الآن ما أقول » .

بعد ذلك حكوا له انهم قد وجدوا عمانوئيل .

ما عاد يمكن أن يكون هناك شيء غريب أو غير عادي ، اصبح الخيال واقعياً تماماً لأن البعض قد اهتم بالبحث عن عمانوئيل بعد ما لم تعد هناك كلمة تقال .

ولقد ظن انه لن يستطيع بعد أن يكتب شيئاً .

والآن بيننا فرش الرسم الخاصة بعمانوئيل .. هذه الفرش التي لم يرها قط .. مثلها في ذلك مثل أشياء كثيرة يعلم عن وجودها دون ان تكون لديه براهين على ذلك ، الآن أصبحت لوحـــات النسيج التي اقامها مبسوطة في فراغ ابيض ، يقولون عنه انه كان يحب الحياة ، ولكن شخصاً بأعلى « بعيداً تمامـــاً » قرر ان حب الحياة لا يكفي لترتيب حقوق فيها .

كان الصمت اسهل الطريق مثل الهروب مثل فرش الرسم بعمانوئيل مثل اسئلة بلومة .. وجدوه ممتزجاً ومختلطاً بجزئيات احدى الدبابات ، كان من المستحيل معرفة اين تبدأ جثته وأين تنتهي جثة الدبابة ، لم يبق على اصله الأول سوى الاشلاء وقطع الصلب المغطاة بالتراب ، اما سائر الأشياء فكانت منتمية إلى الماضي كالدودة المتحجرة ، اما الحاضر فقد كان الذباب ، ذباب الحبل في بداية الوجبة الفظيعة .

قالوا انه لم تكن له فتاة ومع ذلك فقد كان شاباً لأن الشباب بالنسبة له كان صلة تكاد تكون جنسية مع فرش الرسم والأنسجة .. ولقد عرفت الألوان شبابه أكثر من كل الفتيات .. ربما كانت هي الفتيات .

بقي أربعة ايام في الجنوب بعد ان صدر اليه أمر يقول « المدرعة .. تتحرك » غير أن دبابته لم تتحرك .

كان يبدو انه يستحيل لنفسه حرباً اخرى يمكر فيها على من حدد العناوين على ظهور القذائف ، كانت ما تزال هناك بعض الأعشاب الزائدة على أطراف الخريطة في حاجة إلى الاقتلاع والتشذيب .. وبعد ان اتم الجميع تصفية المناطق التي حددت لهم بقيت له هو زاوية منعوه من العودة منها ، ولم تبق لبلومة سوى الأسئلة ، مثل صمت الآخرين .

جلس امامها وراح يشرح لها في حديث كأنه يجري بين بالغ وصبية انه لا صدف في العالم ، ان العلم لا يعترف بالأعاجيب وليس صدفة أن الشبان هم وحدهم الذين لا يعودون من الحروب ، ان معادلة حسابية بسيطة تقول ان من يذهبون هم فقط الذين لا يعودون .

وبعد ذلك عندنا تتوقف الأسئلة وتصبح الساعـــة متأخرة « ويتواجب الاستيقاظ لممارسة حياة اليوم الجديد » يمكنه عندئذ ان يبقى داخل الصمت لأن هذا الاحساس بالذنب يتمكن من قلبه ومن لوحات النسيج الخالية «انني لم أطلق النار عليه .. ولكنني عدت » .. « كان ينبغي العثور على الطريق بينما كانت سائر الدبابات تنتظر في منعطف الطريق ، كان كل منعطف وكل طريق فخاً ، كان المحرك يدور بأقصى طاقته والجنازير تحفر الصخور .. وفي الوسط بينهما كان الغبار يغطي زجاج منظاريها .

منعطف آخر ، وفي الناحية الأخرى من حقل من الصخور ولدت امامها فجأة سان الموقع ، وبعد ذلك انتظر حتى انضمت اليها القافلة .. القافلة بأكملها ، من خلال المزاغل الضيقة لم يكن يبدو ان هناك شيئاً يضاف إلى نوبة العمل .

رسمياً انتهت الحرب ، قال واحد ساخراً في الداخـــل ،كل من يسقط الآن يسقط بصورة غير رسمية .

ومرة ثانية انغرزت الجنازير ورفض الموقع ان يقترب ، كانت الجنازير وكأنها تدور حول نفسها جاهدة في ابتلاع الأحجار وارتقاء الصخرة التي كانت تصب عليهم النيران على هذه الحال يبدو الصلب عندما يتولاه الفزع ، وعندئذ اصيب الجنزير وتمزق فتعرت العجلات وغرزت في الرمال ، واغلق الطريق ، وحاول البعض من الخلف ان يدفعهم إلى جانب الطريق لاخلائه كي يمر الآخرون ، لكي تصف اصابة قـــذيفة لنقطة التلاقي الواقعة بين جسد الدبابة والبرج فانه يلزمك كثير من الحبر وعديد من الأوراق واكثر من هذا بكثير من دخان السجائر ، وحتى توضح وتبين هذه الاصابة التي تحيل الصلب الحي الذي يتنفس إلى قطعة صمّاء من الحديد الخردة فانك ستحتاج إلى الرسم ، ولقد كان الرسام بالداخل .

ربما كان هذا هو سبب صمته .

اغنيـة الاوز

زان ادليسط

لحظات الغسق ما بين غروب الشمس وبزوغ القمر وآخر الخيوط الشمسية تتكسر على ذرى التحصينات وزوايا المواقع على الجانب الغربي من القناة .

كان قرص القمر المنبلج من خلف سلسلة الربى الواطئة البعيدة يسكب نوراً باهتاً على فتحات الدشم وعلى عربة الطعام المشدودة إلى عربة نصف جنزير فيكشف عن عـــدد هائل من الثقوب يرصع لوح العربة الجانبي . كان الموقع الليلي معداً على ما ينبغي ولم يكن هناك ما يجب عمله سوى ترتيب حائط الأكياس الرملية التي تبطن جدار الموقع على صورة ثابتة مستقرة .

يقال ان الاصابة المباشرة تمثل احتمال واحـد في المليون .. ومن المهم ان تكون القذائف نفسها على تسليم بهذا الاحتمال .

كان ايتسيك الجالس بالموقع مديد القامة مهدل الثياب والحركات.. ترتسم على وجهه تعبيرات الارهاق نظر ، في ساعته ، بعد عشر دقائق ينضم اليه يوسي وهو الآخر مديد القامة وان كانت حركاته وملابسه تتسم بالدقـــة ، ومع ان وجهه كان يحمل نفس التعبيرات المرهقة إلا أنه كان يضم إلى ذلك تعبيراً آخر .

اكتمل اليوم أسبوع على مكثهما معـاً كل ليلة في هذا الموقع . في ليلتهما الأولى أصيبا بصدمة ، كانت كل قذيفة تسقط تفجر في نفسيهما شعوراً بـــأن نهايتهما قد حانت مع سقوطها ، الصفير والدوي وزلزلة جدران الموقع وتراقص الخوذات .

بعد ذلك تعودا .. كان يقذفان بنفسيهما على عجل من خلال الفتحة الضيقة .. ينكس كل منهما رأسه بقدر معين ويضغط بيديه على حافة الخوذة الحديدية .

وخلال جزء الثانية الواقع ما بين الازيز الملهوف والسقطة المرعدة .. كان كل واحد يضغط جسده حتى أطراف أصابعه في نقطة متناهية الضآلة حتى يبدو كرأس دبوس لا جسم له ، وبعد ذلك كل شيء يسترخي من تلقاء نفسه في بطء .

على هذا النحو من التصرف يتاح لهما أن يكونا رابطي الجأش أثناء القصفات ، جزء من الجسد يؤمل وينكمش وجزء يتطلع ويرسل التقارير .. بينما الصلة بين الجزءين معدومة تماماً ونغمة الصوت الذي يحمل التقارير هادئة وأحياناً جزلة ، جزلة حقاً في بعض الأحيان.

وفي الصباح وعندما تتسع دائرة الضوء المغبش إلى حد الرؤية الفعلية كانا ينزلان من الموقع وينشغلان بإحصاء الحفر الصغيرة التي تخلفها القذائف من عيار ٨١ مم ويتفحصان في خوف الفوهات الغائرة المتخلفة في الأرض عن القذائف من عيار ١٢١ مم ، ١٦٠ مم .

في أحد الأيام وجدا في قناة الاتصال المؤدية إلى موقعهما انهياراً نتج عن قذيفة ، قالا « ليست هذه قذيفة » .. « انها احتمال .. ومن سمع عن احتمال يقتل ؟ » .

في إحدى المرات كان ايتسيك ينظر في العتاد يتفحصه قطعة قطعة بيدين تتحركان في تمرس ويقدر زاوية توجيه الرشاش .

وأقبل عليه يوسي .

– أهناك جديد ؟

– ثلاثة أسابيع أخرى .

– حتى هذا يمثل خبراً جديداً .

ثم جلسا كل منهما يدخن سيجاراً كبيراً في صمت ، بين الفينة والأخرى كان أحدهما ينهض ليلقي نظرة في المنطقة المحيطة .

– سمعت انكم قد هربتم اليوم من موقع المراقبة ، قال يوسي ..

– هربنا ؟ إنه لتعبير مخيف .

– ماذا حدث ؟

– وجهوا المدافع المضادة للدبابات إلى الموقع ، كنا نجلس محاولين تحديد الموقع الذي قصف الموقع ن .

وفجأة سقطت قنبلة وامتلأ الموقع بدخان ملتهب ، جلسنا على الصندوق وكل منا ملتصق بالآخر محاولين أن نتمالك أنفسنا وأن نفكر فيما يجري ، انك تدرك بالطبع ماذا يكون الحال ، غريزة تستصرخ الإنسان كي يهرب وأخرى تتساءل عما عسى أن يقوله الرفاق ، وعندما كدنا نصل إلى قرار لحق بنا رفيق ، كان أطول قامة ، وأدركنا اننا على لوحة التوجيه في مدافعهم اذن فقد اكتشفوا الموقع ، وتولانا الرعب فأطلقنا سيقاننا هاربين ، وكما سمعت فقد فررنا إلى داخل الدشمة ، جلست هناك حوالى عشر دقائق حتى استطعت أن ألم عظامي التي اختلفت مواضعها من الصدمة وبعد ذلك فقط ذهبنا لنبحث عن موقع بديل .

– لقد أطلت الحديث .. قال يوسي . والآن كيف سننظم أنفسنا الليلة ؟

– هل تعلم انني أتمنى أحياناً أن يجيئوا ، ليس هذا عملا ان نستعد وننتظر كي نستعد وننتظر لنستعد ثم نعود فننتظر ، لقد سئمت ، أن يجيئوا ويهاجموا فهذا يعني اننا سنهاجم بالتالي ونضع لهذه العملية نهاية .

– أين أنت من هذه النهاية ؟ ان النهاية بالنسبة لك ليست سوى أن تنفق هنا فإذا ما قتلت عشرة من العرب فإن هذا سيكون النهاية بالنسبة لهم ، أما العملية نفسها فلن تكون لها نهاية ، انني أعتقد ان هذا لن يؤدي إلا إلى اطالة امدها ، وأنت تعلم على أي نحو سيكون الوضع حينذاك ، فأنت ستتباهى بالنجاح في ضربهم وستقول في فخر : هكذا انني مستعد طيلة الوقت أما هم فسيعتريهم السخط على فشلهم وسيحاولون مرة أخرى .

– أو . كي . ليرسلوا آخرين وآخرين ، فسنضربهم جميعاً .

– لم أكن أعلم انك سفاك دماء على هذا النحو .

ـ من سفاك الدماء ؟ اني أقول هذا لجرد انهم يريدون قتلي .

ـ لكنك قلت انك تريدهم أن يجيؤا . ألم تقل ذلك ؟

ـ هيه !! أخذتني بكلمة ، دعنا إذن نجري مساجلة بالمنطق وعلم النفس لنرى أين نقف .. هيه ؟

ـ كي يتم هذا فلا بد أن نبدأ من المشكلة الصهيونية .

أي منطق هذا ؟ انني هنا المعرض للفناء وليست الصهيونية أو شعب إسرائيل .

ـ إنك إذا لم (تمت) هنا .. فإن شعب إسرائيل لن يعيش هناك .

ـ هل تقول هذا لأنك متأكد منه أم لأنه حجة في النقاش؟ « لهجة الصوت مكدودة ومطوطة .. تحمل نغمة عدم المبالاة بدرجة معينة » .

ـ « هيه » سترى انني لا أعرف بقدر كاف يمكنني من أن أتكلم بصورة يقينية .

ـ ومن الذي يعرف ؟

ـ ما هذا السؤال ؟ الجنرالات .. رؤساء الحكومات ، وزراء الدفاع ، والبقال الذي أتعامل معه يعرف هو أيضاً .

ـ وما الذي يعرفونه أكثر منك ؟

ـ انهم يعرفون ماذا سيحدث إذا لم نقعد هنا ، هم يعرفون ماذا سيفعل الروس وما الذي سيفعله ناصر وماذا سيفعل الأمريكيون ؟

ـ وهل يعرف كل منهم ماذا سيفعل صاحبه ؟

ـ دعك من السخرية والتهكم ؟

ـ ما شأن التهكم بما أقول ، قلنا إن هذه مساجلة وبناء على ذلك أسألك :

ـ في أين لك أن تعلم انهم حقيقة يعرفون ؟

ـ قبل كل شيء أنا أقعد هنا .. ومن المؤكد انهم يعرفون ذلك .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .

- انني أقدر أن وجودي هنا يمثل أفضل خيار ممكن ، أعني أنهم يقدرون ذلك ، ذلك انك إذا أردت شيئاً مثل السلام والأمن فإنه لا بد لك من بذل كل أنواع الأشياء : العمل ، المال ، وكذلك الدماء .

- السلام قبل كل شيء ، وكما يقولون جميعاً اليوم .. السلام والحدود الآمنة ، هل ستقول انك تريد أن تناقش ما المقصود بعبارة الحدود الآمنة ؟ أنا كردي والسلام بالنسبة لي هو عدم اطلاق النار .

- توقف عن اطلاق النار إذن .

- ومن أين لك انهم سيتوقفون بدورهم .

- ومن أين لك انهم لن يتوقفوا .. هل حاولت ؟

- كلا ، ولكن فضلاً عن ذلك فإن هناك الحدود الآمنة ، ولا تنسَ أن الوقوف عند المطالبة بالحدود الآمنة يمثل أيضاً انتقاصاً من أرض إسرائيل .. انني لست من المنادين بأرض إسرائيل كاملة ، لكنني أعتقد أن الحصول على رقعة أرض تكفل الحدود الآمنة أمر لا يضر ، بالإضافة إلى ذلك فإن هناك جماهير من الرفاق متحمسون لهذه القضية .. قضية الوطن الكامل .. انك تعرف التاريخ والمشكلات .

- ليذهب هؤلاء الرفاق إلى الجحيم ، يقال طيلة الوقت إن هناك جماهير منهم .. حتى انني قرأت في الصحف أن البلاد مليئة بهم ، ولكن أين هم بحق الشيطان ؟ من هم ؟ ألا أعرف أنا عدداً كافياً من الرفاق ؟

انني أعرف الملايين ومع ذلك فإنني مضطر لأن أبحث بينهم على ضوء شمعة عن هؤلاء المتحمسين ، وعندما أعثر عليهم فإنني لا أجد رفاقاً ، هيه .. هيه .. سأشرح لك . انني أعرف جماهير من الرفاق يفعلون ما يقال لهم دون نقاش . إذا قيل لهم حاربوا .. فسيحاربون ، وإذا قيل لهم استوطنوا .. فسيستوطنون ، وإذا قيل لهم اقتلوا ، فسيقتلون .. ولكن أين هم من الحماس للأماكن المقدسة ؟ على أي حال فإنه يبدو لي أن كل من يكتبون عن هذا لا يدركون انه يمكن يقيناً القيام بكل هذه الأعمال دون ان تمس مدينة الخليل قلب احد، إنني أعرف بضعة أسباب أخرى للقيام بالأعمال الوطنية .

- حسناً .. لنترك السياسة إذن ولنهتم بأنفسنا ،ما الذي تفعله هنا؟

ـ أي سؤال هذا ؟ لقد استدعوني إلى الاحتياط فجئت .

ـ ولو لم يدعوك .. فهل كنت ستأتي ؟

ـ كلا ، ولكنني لم أشأ أن أتهرب ، لقد كان يمكنني قطعاً أن أعفي نفسي بسهولة وكذلك انت .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ إذن ما الذي تبغي الوصول اليه بهذا الاستقصاء ؟

ـ إنني لا أستقصي .. اننا نجري مراناً في المنطق وعلم النفس .. أليس كذلك ؟

ـ آهاه .. يهمني لو أنك أجريت هذا المران فجأة في تل أبيب كذلك .. ألست متأكداً من أن الظروف هنا تؤثر بعض الشيء ؟ ..

ـ ربما .

ـ ماذا تعني ربما ؟ نعم أم لا ؟

ـ ربما

ـ حسناً .. إذن فقد بات من الواضح لنا انه لا يمكن استخلاص نتائج من مساجلة نجريها تحت ضغط ظروف معينة ، لنرجىء استخلاص النتائج إلى نهاية المناقشة ولنجر النقاش في تل أبيب بأحد المقاهي .. هيه ؟

ـ هيه .

ـ لا تكن تهكمياً على هذا النحو ، لقد اعترفت بنفسك انه كان يمكنك ان تعفي نفسك ، لقد جئت بسبب ما يسمى « بالوعي الداخلي » .

ـ انني لا أعرف الكثير عن الوعي الداخلي ، ولكن هناك أمراً واحداً أستطيع أن أتحدث عنه بثقة كاملة على أنه وعي داخلي كامل يقع في دائرة الشعور ودائرة اللاشعور انني لا أعرف كيف ستسمينه .. وهو يتحدد فيما يلي :

أن أنفق .. فهذا أمر لا أريده ، وإذا حاولت أن أربط بينه وبين واجبي في سبيل الوطن .. فإن المحاولة تصبح بالنسبة لي أمراً فظيعاً معقداً ، لو قلت لي الآن بكل جدية :

إن واجبك الوطني يتطلب منك الصعود فوق سطح الموقع لتفعل كذا وكيت ثم تتلقى رصاصة في رأسك فإنني لا أعرف ما إذا كنت سأصعد أم لا ، انني أدرك ان هذه مسألة افتراضية وان هناك تأكيداً دائماً على عدم التعرض لمثل هذه المخاطر الفجة . لكنك إذا قلت لي انني سأصبح مشوهاً فانني أعتقد انني لن أكون مستعداً لذلك .

– أنت تتحدث بهذه الصورة؟ لقد كنت طيلة معرفتي بك تجري إلى أي مكان تفوح منه رائحة الخطر ، لقد ذهبت لتخدم في أشد وحدات الجيش خطورة أليس هذا نصف تشوه ؟

– كلا .. ليس هناك نصف تشوه ، هناك تشوه وما يتبقى عند ذلك ليس سوى الروح .

– حسناً .. لقد شاركت منذ فترة قصيرة في بضع عمليات هائلة الخطر ، وان مجرد تفكيري في أنه كان ينبغي علي أن أكون هناك معك يبعث القشعريرة في جسدي فلماذا تقفز فجأة إلى موضوع التضحية من أجل الوطن ؟

– مهلاً .. فهذا ما أريد أن أشرحه لك .. اسمع :

ان مقعدتي كما تعلم مكونة من قسمين .. في احدهما فلفل أحمر وفي الثاني فلفل أخضر ، وكلاهما حريق ، وعلى هذا فإن تحركي في أي اتجاه إنما يكون سبب مقعدتي .. لأنني أريد أن أثبت لنفسي – وهذا لأنني نشأت في الكوبتس حيث الكل هناك محاربون والعرف العام يقتضي هذا – ما إذا كنت أنا الآخر مفيداً للوطن أم لا إن هذا الاعتبار له قيمته ولكنه ليس الاعتبار الوحيد وربما ليس الاعتبار الأول .

ان كل ما ينبغي عليك عمله الآن هو أن تصورني وعندئذ سترى المثال ، حقيقة انه مثال غير واع ، ولكنه المثال .

– وهذا بالضبط ما نحن في حاجة اليه الآن .. أمثلة غير واعية .

– دعك من السخرية .

– أية سخرية ؟ انني أتحدث في موضوعية كاملة، ان الجندي الحسن هو الجندي الذي ينفذ الأوامر إلى نهايتها وكذلك هو الجندي الذي لا يكره العدو .. أم انك ترى غير ذلك،

ـ لا تكن جائراً ، إنني لا أكرههم لأنه لا صلة لي بهم .. إنني أريد منهم أشياء واضحة ، ولقد حصلت على بعض من هذه الأشياء ، وإذا واظبت على هذا الموقف فإنني سأحصل عل الباقي فلماذا أكره إذن ؟ فضلاً عن ذلك فإن الكراهية تعكر هدوء النفس فلماذا أشعر بالكراهية ؟ إنني أريد أن أظل صحيحاً .

– قل لي الآن من هو الجائر ؟ انك تريد أن تضرب وان تظل هادىء النفس فما الذي سيقوله من تلقى الضربة ؟ هل سيتلقى الضرب في هدوء ؟

– سيتعلم درساً .

– إذن فما جئنا نفعله هنا هو أن نعلم العرب درساً !! ما هذا .. هل أنا رجل تربية وتعليم ؟

– وماذا عن اننا إذا لم نكن هنا فان شعب إسرائيل لن يكون هناك ؟

– انني لا أعرف ، واما انني محق في عدم معرفتي واما ان هذا ليس في منتهى الأهمية بالنسبة للاحساس العام .

– إذن فهذا إحساسك .. هيه ؟ .. لو شنوا ضدك حرب استنزاف لبضع سنوات وفقدت ملابسك الداخلية بالفعل فهل ستكون رجلاً ؟

– لا تطمس الأشياء .. الا تفكر في أنه توجد خارج مسألة رجولتي بضع موضوعات أخرى للنقاش ؟ إن الذي يواجهنا ينبغي عليه أن يحارب لأن كرامته قد انتهكت ،وعلي أنا أن أصمد لأثبت انني رجل ، ما هذا هل نحن في حضانة أطفال هنا ؟

– تماماً ولكن بدون حاضنة .

– إنني موقن من أن القضية أعمق من كل الشطحات التي قمنا بها هنا . إن هناك شيئاً ما .. منظوراً تاريخياً أو شيئاً آخر مشابهاً .. وببساطة فنحن لا نقدر على فهمه وإدراكه ، من المحقق أن هناك جوهراً قومياً بينما نعجز نحن عن الاحساس به باعتبارنا أولاداً صغاراً ساذجين .. ان هذا ما يحدث عندما ..

– مهلاً ، مهلاً .. ان نقيقنا الساذج يتناسب تماماً مع بعض الأعمال المعتوهة التي نراها حولنا ،انني لا أعاني أي نقص في الاحساس بمدركات الجوهر القومي أوليس جلدي

جزءاً من الجوهر القومي ؟ وإذا لم يكن فما الذي يعد جزءاً من الجوهر القومي إذن ؟

هل هو الاحساس الديني الخاص لدى الحاخام ملوففيس .

لماذا لا تعتقد ان ما نستشعره ونفكر فيه ونعمله هنا هو الصواب..هو المدى الصحيح بينما ما عداه مجرد سفسطات وتحسبات ؟

– قل لي .. هل أنت من متسبين ؟

– دعنا من هؤلاء المتوهين .. إنهم يثيرون سخطي ليس ما يقولون بل إنهم واثقون من أنهم على حق .

– وماذا يقول أخوك ؟

– دعنا منه فهو في الجيش العامل، والجيش المنتصر لا يتخلى عن الأرض.. فهذه مسألة استراتيجية ، فضلاً عن ذلك فإنـــه لا بد وأن يكون عدوانياً بسبب وظيفته ولكنني أعرفه .. إنه على ما يرام .. إنه في جانبنا .

– حسناً ، لقد شطحنا وشطحنا فإلى أين وصلنا ؟

– لقد قلنا في البداية إننا لا نريد نتائج .. أليس كذلك ؟

– حسناً لنعرف على الأقل أين نقف .

– ألا تعرف ؟

– إنني أعرف أنني أجلس الآن على القناة .. داخل موقع مسلح في مرمى نيران العدو .. أعاني معاناة قاسية من المأساة القديمة .. مأساة الجندي البسيط الذي لا يتخذ قراراً أو يعرف حتى تنتهي المهمة التي يؤديها ، انه لا يعرف ما إذا كان هنـــاك ما يبرر المهمة التي يؤديها ، لا يمكنه أن يدرك ما إذا كانت المهمة ضرورية بوجه عام أم لا إلا بعد بضع سنوات طيبة .

– حسناً ، الأساس الآن هو أن الهدف العام على ما يرام .

– هل تشعر بالاحباط إلى هذه الدرجة ؟

– ستدهش لجوابي ولكنني لا أشعر بالاحباط بوجه عام .

– هل تشعر بالأمان ؟

– كلا ، ولماذا أشعر بالاحباط ؟ إنني ذكي .. جميل .. وأنا أضاجع الحسناوات . إن هذا السيجار لذيذ الطعم ، اليس كذلك ؟

هل ستسقط قنبلة ؟ لقد سمعت ان الموقع البديل على طريق الامدادات يمثـــل انتحاراً حقيقياً .

– ماذا إذن ؟ هل ستظل هكذا للأبد ؟

– هل جننت ؟

– هل ننسحب ؟

– هل جننت ؟

– حرب جديدة إذن ؟

– هل الموقف بجرد من الأمل إلى هذا الحد ؟

– هل تعرف ماذا تريد ؟

– كلا .. وأنت !

كلا ..

– واحسرتاه على الأوز إذن .. هيا بنا نفتش على الموقع الثانوي ..

– بوم !!

العلمين

ليعقوف شافيط

في اكتوبر ١٩٤٢ أنقذت عمتي ايطة البشرية ، في ذلك اليوم بينما كانت أمي تسير في شارع هرزل لمحت في وسط الشارع خلف المدرجات العمة ايطة ، كانت العمة ايطة تقف مع نحماه برومقين تحت المظلة الخضراء الممتدة فوق واجهة أحـــد محال الأقمشة ، ومن ظاهر وجهها كان يمكن أن يفهم المرء على الفور انها منهمكة في القاء موعظة أخلاقية تربوية.

تسمرت أمي في مكانها للحظة وهي تبحث عن مخرج من الكمين ، كان ذلك نهار يوم الثالث والعشرين من أكتوبر ،كان رومل يدفع بدباباته تجاه العلمين وكان الجنرال مونتجمري يضع هو الآخـــر قلنسوة سوداء على رأسه وينظر في خرائط الصحراء . كانت الصحراء مظللة بسحابة من الغبار كبيرة تتحرك داخلها الدبابات الداكنة مثل ألوف من النحل خرجت من أوكارها لتضل في كل اتجاه ، القت أمي نظرة على الساعة ، كانت عقاربها تتحرك في الدائرة وانبعث إلى مسامعها عويل الراديو من مكان ما ، كان من الواضح لهـا ان العمة ايطة ستتلكأ تحت المظلة لحظات طويلة .. فلم تكن حركة يديها قد وصلت بعد إلى قمة الحماس ، كانت المشكلة كامنة في ان العمة ايطة كانت تقف تماماً أمام مدخل الممر المؤدي إلى عيادة الدكتور هانس شميدت وما كان يمكن الانفلات إلى الداخل دون أن تلحظ من يمر أمامها ، كان لا بد أن يجذب أحد انتباهها كيما تعبر أمي الشارع قادمة من الجانب الآخر وملتصقة بالحائط لتختفي في ظلال الممر ..

أرسلت أمي عينيها في بأس فيما حولها غير أن أحداً من الأقارب أو المعارف لم يمر لينقذها ، بحثت عن منديل كي تجفف العرق عن جبينها وسلمت في وهن بمزيد من الزمن

ليحل المشكلة ، شعرت بقرص شديد في بطنها وانتابها احساس بالقرف والرغبة في التقيؤ ، تجهم وجه السيدة برومقين على الناحية الأخرى وراحت تدبدب بقدميها ، استندت أمي إلى عمود قريب وجعلت تطل على المرأتين وقــد ظهرتا أمامها كظلي شجرتين بعيدتين تحركهما ريح لافحة في مكان ما على حافة الصحراء قائظة ، مرت بضع سحابات بأعلى .. كان سراب الظهيرة يحلق فوق المياه وهبت رياح باردة من البحر معتلية ظهر الجبل .

الآن مضت السيدة برومقين إلى الأمام وشعرت أمي انها تعتصر في مكانها ، كانت تحس على شفتيها بطعم مالح وهي تحدث نفسها عما ينطوي عليه الأمر من دواعي السخرية ، دارت العمة ايطة في مكانها مترددة فيما يبدو إلى أين تذهب ، جعلت تنظر ههنا وهناك وهي مادة عنقها ، فانكمشت أمي في طيات الظل والقت نظرة على الساعة ثانية وبطنها تتوج من الطعنات . قامت العمة ايطة ببضع حركات في اتجاهات مختلفة ثم بدأت ترتقي الطريق سمينة وبطيئة ، ولم تتمهل أمي ولا لحظة واحدة .. فقد اتجهت في عجلة ناحية الممر تريد أن تستغل ميزة المفاجأة ، وعندما أصبحت تحت المظلة ولم يعد أمامها سوى بضع خطوات حتى تصل إلى الممر الذي تظهر في مقدمته لوحة الدكتور شميدت البيضاء ..

استدارت العمة ايطة على عقبيها في حركة كبيرة فاصطدمت نظرتها المحلقة بصورة أمي الشاحبة فتنهدت واستجمعت قواها مسرعة اليها بذراعــين مفتوحتين .. سارة ! إلى أين تذهبين ؟

توقفت أمي وأحست وكأن الهواء قد نفد من رئتيها وانتصبت مستعدة للصدام ، يا له من حظ حتى أراك انك متخفية منذ شهور ، كيف حال اسرائيل ؟

بخير .. قالت امي : شكراً انه يأتي أحياناً لبضع ساعات ثم يرحل ، مالت العمة ايطة بوجهها لتنظر إلى السيدة برومقين وهي لا تزال في أفق الشارع ، كنت منذ لحظة اتحدث مع نحماه برومقين ، هل تعرفينها ؟ لقد قلت لها ان زوجها « فاسق » . هذا بالضبط ما قلته لهــا ، انه الآن يعمل في السوق السوداء وسط الحرب الكبيرة في الصحراء .

قالت امي في اعياء :

ـ نعم .

سألت العمة ايطة : إلى أين انت ذاهبة يا سارة ؟

ـ مررت من هنا مصادفة .

تفحصت العمة ايطة وجهها جيداً وكأنها كانت تفحص شريطاً ممتلئاً بالرسوم المتحركة.. ضاقت حدقتا عينيها وقالت في دهشة : انك شاحبة للغاية .. هل انت مريضة ؟ كلا .. قالت أمي وهي تدرك الآن انها لن تنجو من الكذب ، كل شيء على ما يرام تماماً . مـا معنى على ما يرام تماماً !!

هل ترين كيف تبدين .. انك شاحبة كالطباشير ، تمتمت أمي .. هذا من الحرارة .

ـ هراء .. أية حرارة ؟ اليوم حار ؟ اننا الآن في الشتاء ، ماذا بك ؟

لا شيء .. كيف حال حاييم ؟ غير ان عملية صرف الانتباه لم تغر العمة ايطة .. صوبت رأسها تجاه الممر وانحبست أنفاس أمي ، وللحظة ساد صمت عميق .. صمت الانتظار ، وبعدها دوى صياح العمة ايطة ..

هل أنت ذاهبة إلى الدكتور شميدت ؟ وحركت أمي رأسها في وهن علامة الايجاب.

ـ ماذا حدث ؟

ـ لا شيء .. لا شيء

شعرت بمغص في بطنها .. صافحت العمة .. ان دوري يحل بعد دقيقة .

ـ سأدخل معك .. قالت العمة ايطة في حنان بالغ وهي تمسك بمرفقها :

ـ لا ضرورة لذلك فكل شيء على خير ما يرام ، سأصعد للطابق الأول

طالما انني لن أذهب إلى مكان خاص .. فلنتحدث بالداخل .

ـ كلا ! قالت أمي في عنف ، ويكشفها وقع صوتها العنيف ..

غاصت فيها العمة ايطة بعينين مستريبتين .. ثم عادت فألقت نظرة أخرى على أمي التي كانت تمسك ببطنها ، ورفعت رأسها وقرأت حروف اللافتة .

« وبحركة حادة قفزت من فوق الاسفلت ودارت حول أمي تسد مدخـــل الممر في وجهها ».

لم يكن هذا في الحسبان .. قالت العمة ايطة بصوت قاس : هل جننت ؟

ـ انني مضطرة .. قالت أمي :

ـ لم يكن هذا في الحسبان .. قالت العمة ايطة ثانية : انني لن اسمح لك بذلك

ثم صرخت فجأة . لن تمري إلا على جثتي ..

ـ انني استسمحك .. قالت أمي في وهن

كان في الشارع عدد قليل ما بين غاد ورائح .. بينما ظهرت في أسفل الشارع بالبحر بعض السفن الحربية ، وفي مكان ما بالصحراء الكبيرة كانت الدبابات تصيب بعضها بعضاً والأرض تتزلزل ، كان الناس ينتظرون اخبار الـ ب . ب . س . بفارغ الصبر وكان الدخان الأسود يتصاعد من مصانع التكرير .

لم تتحرك العمة ايطة من مكانها وظلت ثابتة كالصخرة التي لا يمكن زحزحتها .

ـ لا خيار لي .. قالت أمي

ـ بل لك الخيار .. قالت العمة ايطة في صوت صارم .. عودي إلى البيت .

ـ انني مضطرة اليوم لأخذ الحقنة الثالثة ، قالت أمي . وبهذا تكون النهاية .

ـ هل أخذت حقنتين قبل ذلك ؟

أومأت أمي برأسها .. هذه الحقنة الأخيرة .

« قاتلة ! هذه حقيقتك .. قاتلة ! قالت العمة في غضب » .

ـ لا خيار لي ،قالت امي في اعياء .. كانت شفتاها مشبعتين بطعم مالح وكان عليها راسب من ملح حادق ، لا ينبغي لي ، تمتمت أمي .

ـ ماذا تعنين بأنه لا ينبغي لك .. لوحت العمة ايطة بيديها في بطء .. ما هذا الذي ينبغي ذلك ؟ !

ان ما لا ينبغي لك هو دخولك إلى هذا القاتل لتأخذي الحقنة ، هذا هو ما لا ينبغي لك . انتظري انت في الخارج وسأدخل انا اليه ، انتظري ، أيعطي مثل هذه الحقن في وقت الحرب ؟ ! بينما الرجال يموتون كالذباب !!

ـ هذا هو لب الأمر تماماً ، قالت امي : لا ينبغي الآن احضار اولاد إلى العالم .

تنفست العمة ايطة ونفخت في تثاقل ، مدت يديها فرتبت شعرها المتهدل . كانت العمة تفيض بالعزم والتصميم ، غير ان امي الأصغر منها كانت عازمة هي الأخرى .. فخطت خطوة تجاه مدخل الممر غير ان العمة امسكت بها .

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ ذاهبة إلى الدكتور شميدت ، قالت امي .

ـ انك لن تذهبي .. صححت لها العمة ايطة ما قالت كان صوتها جاداً ومفعماً بالثقة .

ـ ان لي دوراً ، قالت امي .. لا ينبغي ان اتأخر ..

ـ اسمعي ! قالت العمة ايطة في عناد وهي تغلي .

إذا دخلت اليه فانني سأثير فضيحة في كل المدينة ولن تستطيعي ان تطلي بوجهك خارجاً بعد ذلك ، انك تعلمين انني استطيع ذلك .

وتراجعت امي قليلاً في تصلبها .. وقالت :

ـ لا تكوني عنيدة يا ايطة .. انك تعلمين مثلي تماماً انه لا ينبغي احضار اولاد للعالم في مثل هذا الزمن .

ـ على العكس .. قالت العمة ايطة وهي تتحرك يمنة ويسرة .. اننا الآن مضطرون إلى احضار اولاد للعالم ، فهذا هو الزمن المناسب .

ـ بينما هناك حرب ؟ !

ـ بالذات عندما تكون هناك حرب ، الا تعتقدين ان مونتجمري سينتصر ؟

ـ انني لا أفهم في هذا ، قالت أمي . حتى إذا انتصر فان الحرب ستستمر وسيموت رجال كثيرون آخرون .

لهذا ينبغي انجاب الأولاد .. كي يحلوا محل من ماتوا في الحرب .

ـ لماذا ؟ صاحت أمي في يأس ، لكي يعيشوا هم الآخرون داخل الحرب دون طعام حتى يموتوا .

ـ كيف تتكلمين هكذا ؟ ألا تخجلين ؟ ! بدأت العمة ايطة تهدد أمي بأنها ستسحقها بغضبها « كي تستمر البشرية في البقاء .. يجب علينا انجاب الأولاد » .

ـ فلتلدهم البشرية اذن ، قالت أمي .

بلبلت الحرارة والألم أحاسيس أمي بعض الشيء ، أحست برغبة في كوب ماء ، انطمست حروف اللافتة المعلقة على عيادة الدكتور شميدت أمام عينيها ، خرج شخص من الممر مستحثاً الخطى إلى الشارع ، لم تنكس أمي عينيها لتنظر في الساعة .

ـ ان البشرية هي انت ، قالت العـــمة ايطة بصوت صدر كأنه أمر ، لكي تبقى البشرية .. أي لكي تستمري، انت في البقاء فانه لا ينبغي لك أن تأخذي هذه الحقن .. كيف داخلك الاقتناع بهذه الفكرة ، لم أكن أعتقد هذا فيك .. أنت بالذات .

في تلك اللحظة تماماً فتح شخص بالطابق الأعلى جهاز الراديو في صوت مرتفع .. كان المذيع يتحدث باللغة الانجليزية في انفعال مكبوت ، كانت بعض الصفارات المتقطعة تعوق الاستماع غير أن العمة ايطة وأمي لم تكونا تفهمان الانجليزية، دفع الصوت المنفعل أمي إلى الامام ، أزاح مرفقها العمة ايطة بعض الشيء من على المدخل واندفعت إلى الامام تريد أن ترتقي السلالم الضيقة بسرعة لتحتمي وراء باب العيادة المغلق .

ـ كلا . صرخت أمي كما لو كانت دجاجة متملصة ، ووقفت كل منهما في مواجهة الأخرى متحصنة في موقعها .

ـ لكن .. افهمي .. قالت أمي، كان صوتها رفيعاً منهكاً وقد قل تماسكها ومالت مستندة بجسمها إلى الحائط المطلي بالجبس وتمتمت : إفهمي .. لا ضرورة ، مسموح، ممنوع .

ـ انك تنطقين هراء .. قالت العمة ايطة وهي تلاحظ ان موقفها قد أصبح أكثر ثباتاً ولذا أصبح صوتها أكثر اعتدالاً من صوت أمي ، انك تنطقين هراء ، أتفكرين فيما سيحدث ؟ ! لا تفكري فيا سيحدث ، فكري فقط في انه لن يكون هناك أي شيء إذا لم يكن لنا أولاد .

نظرت أمي في الساعة . كان الموعد قد انقضى .

حملت الريح سحابة من الرمال من مكان ما .

ـ فكري أنت .. قالت أمي في خنوع : أي ظلم يكمن في احضار أولاد لمثل هذا العالم ، ما الذي فيه ؟ ما الذي ينتظرهم ؟ ان شيئاً لم يتغير .

ـ ان شيئاً لن يتغير إذا لم يحضر الناس أولاداً للعالم .

قالت ايطة : ما معنى ان نعيش لشيء إذا لم يكن هذا الشيء هو احضار أولاد للعالم .. كي يستمر كل شيء على الرغم من الحرب .

ـ ولكن شيئاً لن يتغير ، قالت أمي وصعد مذاق كريه من بطنها إلى فمها وأحست ثانية بشوق إلى كوب ماء ولم تلحظ العمة ايطة ذلك .

ـ من أين تعلمين ان أي شيء لن يتغير ايا سارة ان اسرائيل زوجك يعمل في الصحراء كي يبني حصوناً بينما أنت ذاهبة لتجري عملية اجهاض ، ماذا سيقول اذا علم بهذا الأمر ؟

ـ ان اسرائيل زوجي يعمل في الصحراء بينما بروقصين يقوم بصفقات سوداء ويثري ، قالت أمي في مرارة .

ـ سأخبره أنا ، قالت العمة ايطة مهددة .

بدا لها أن انتصارها أصبح مؤكداً وما عاد أمامها سوى أن تؤمنه وأن تدفع العدو إلى الانسحاب للخلف حتى يبتعد عن الممر وحتى يتأخر تماماً عن الصعود إلى العيادة وأخذ الحقنة ..

قالت أمي أنا في حاجة إلى كوب من الماء .

اغتنمت العمة ايطة الفرصة وأمسكت برفق أمي .. « هلمي إلى فيسكو » وابتعدت الاثنتان ، ضعفت حركات يدي العمة ايطة .

كانت الشمس في كبد السماء،وعلى قمة الجبل وفي مكان‌ما بالصحراء كان القتال‌حامي الوطيس وفي أوجه ، في كل مكان كان يسير رجال بوجوه منكسرة وقلقة ، بينما كانت العمة ايطة وحدها تسير سيراً منتعشاً واثقاً ، ليفعل الجنرال مونتجمري مـــا يفعل فلقد انقذت هي البشرية .

عندما يتصادف وجودي في المدينة فانه لا مَفَرّ لي من الذهاب لزيارة العمة ايطة .

وفي يوم الاحتفال ببلوغي سن التكليف الديني‌قصت عليّ القصة للمرة الأولى وحفزتني إلى الزواج وانجاب الأولاد المتعاقبين .

انني لا أعرف كيف شكرت البشرية الجنرال مونتجمري لانقاذه اياها ، من المؤكد أن هذا كان في شكل المجاملات الاجتماعية العادية ، أما بالنسبة لي فانني أحمل على كاهلي العرفان للعمة ايطة مثل اطلس في زمانه .. وأنا اجلس تحت صورة العم حاييم المعلقة في حجرة الضيوف لاستمع ثانية وثانية إلى قصة كيف أنقذت العمة ايطة البشرية وكيف ولدت أنا

الدب

أوري بن ارياه

صرخ رجل مستنجداً بأعلى الشارع ،كان صوته عالياً هستيرياً يكاد يتسم بالوقاحة، كانت ابنتي التي تبلغ منالعمر خمس سنوات تلعب هناك إلىجوار شجرة عالية مشروخة.

كنت أقف على مدخل مقهى متواضع بأسفل الشارع ، وصل إلى سمعي الآن صوت الرجل وهو يصرخ .. الدب ! الدب !

هرول بعض الأشخاص إلى الشارع ، راحوا ينظرون هنا وهناك ثم رفعوا عيونهم إلى السماء ، كانوا يبحثون عن طائرات ،لم تكن في السماء أية جلبة غير عادية،توقف أوتوبيس في المحطة ، كان خالياً من الركاب وبداخله كمساري يبدو عليه السأم لم ير الكمساري شيئاً .

كانت ابنتي تلعب هناك .. بأعلى .. مع صاحبتها ، بريئة في الخامسة من عمرها ، في مقدورها أن تجري إلى الدب وتداعب يديه ، هكذا تعلمت من قصص الأطفال ، لا بُدّ من انقاذها .

هناك بأعلى تلهو جماعة من الطفلات البريئات ، صرخ الرجل : الدب .. الدب !

هل هو دب طيب ؟ كيف يمكن أن تصل الدببة إلى هنا ؟ هل يسقطها العدو من الطائرات ؟ هل هو طابور خامس خرج من داخل المغارات المظلمة ؟

انظروا كم نحن أذكياء ، اننا نقف هناك على القناة وسلاحنا مجهز وآذاننا صاغية.
بينما هم يهاجموننا هنا من الخلف في مكان لا نتوقع فيه الهجوم .

ان الحرب خدعة وآذاننا صاغية .. بينما هم يهاجموننا هنا من الخلف في مكان لا نتوقع فيه الهجوم ان الحرب خدعة ، هذه هي القاعدة ، ابنتي بريئة ، في الخامسة من عمرها ، تلهو في سعادة مع صاحباتها بأعلى الشارع ، وهناك دب .

لا بد من انقاذ ما يمكن انقاذه ، وبسرعة .

كيف يأتي دب إلى أعلى الشارع ؟ من الذي أرسله إلى هناك ؟ ماذا يعمل ؟ ..

بدأت عملية هروب جماعية .. اغلقت الشبابيك وراح الناس يعبئون الحقائب ويحملونها على ظهور السيارات فلقد يأتي الدب في أي لحظة ، لا بد من الاسراع .

خلا المقهى على عجل وتفرق الناس في كل اتجاه ، انزلت احدى الجارات تقطن في الطابق الثالث زجاجة من اللبن وطبقاً من العظام اليابسة كيما يأكل الدب ويشبع فيعود من حيث أتى ، انه جائع ، والجوع يثير القلاقـــل ، يبعث الأفكار السوداء ، ويؤجج الثورة في الأمعاء يلحق المرض والألم الابديين بالجائع ، لا بد من تقديم اللبن للدب .

الآن شاهدت الدب بأعلى الشارع ، انه يبدو عصبياً .. متعباً واثقاً بنفسه ، أصيب الناس بالذعر ولم تظهر الشرطة بعد ، انقطعت خيوط التليفون ، هذا الوضع هو ما يريده الدب ، هو دب رمادي بارد الطبـع ، عصبي إلى حد ما ، ولكن هل هذا كل شيء ؟ من أين ظهر ؟ من البلدان الباردة ، كيف يمكنه أن يتكيف مع طقسنا ؟

انه يرتعش ، متعب ، عصبي ، أهو رب أسرة ؟ جريت بسرعة لأنقذ ابنتي ، كان عليّ أن أجري مسافة غير قصيرة ، ينبغي أن أحاذر من فقد قواي ، يجب ان أخطط ، أن عدم التنظيم هو ما يضعفنا .

وضع صاحب المقهى على المنصة بضعة أنواع من الحلوى وبعض البسكويت الرقيق والطويل و كذا زجاجتين من الويسكي الفاخر كيما يشرب الدب ، كنت أقف هناك مغيظاً، لكن المقهى ليس ملكاً لي ، ان الناس يعتقدون انهم يهزمون أكبر الأعداء في العالم .. الجوع .. ولكن للدب غرائز أخرى .

انه حساس تجاه بني البشر .. يكرههم ، صحيح انه ظمآن ، لكنه ما هو الدب ، وليس هذا فحسب ، بل انه لا يفهم معنى ان يحاول رجل انقاذ طفلته ابنة الخامسة بأعلى الشارع .

– لن يضطر إلى كسر بابي وتحطيم المنصة ، قال لي صاحب المقهى . سيكون الأمر بسيطاً تماماً ، سيأخذ زجاجة أو اثنتين وبعض البسكويت ، سيلتهمها كالدب ثم يغرق في النعاس سيهب الهواء ثم يهدأ ،المهم ألا يكون عنيفاً وفي اللحظة التي يصبح فيها عنيفاً فانه يحطم كل شيء ، ان المقهى يقدر بمائتي ألف دولار ، فما بالك إذا قيم بالروبل ؟ رفع الدب ذراعيه إلى أعلى ليحطم سورا مـــن المدرجات يعترض طريقه ، رأته ابنتي من على بعد فراحت تصفق ، هل هذا دب قرقاس ؟

كيف وصل إلى هنا ؟ من أين ظهر ؟

نَبَحَتْ تجاهه بعض الكلاب فنظر اليها في هزء ان كلباً ينبح لايمكن أن يضايق دباً، تقدم الدب على منحدر الشارع ، انه يبحث عن مقهى ، كان قلقاً وعيناه معشيتين من الضوء المنعكس من على شيش البلاستيك ،إلى جانب صناديق الزبالة كان أصحاب البيوت قد وضعوا أطعمة وأواني بها ماء من أجل الدب .

حطم الدب كل شيء ، دب شبع أخطر من ألف عالم جائع ،عَلّ أحداً يذهب ليهدىء الدب ؟ علّ أحداً يذهب ليبحث له عن الدبة،ألا يوجد هنا حتى مروّض وحوش أو ما يشبه هذا فيستطيع أن يلوح بسوط دون أن يكون مرتدياً بنطلوناً ؟ انه حتى لا يوجد أحد يرتدي بنطلوناً ، كلهن في فساتين خفيفة هفهافة ،جديرات بأن يرقن في عينيه، دب .. هو دب لكنه ذكر ذو عينين .

ما الذي يبحث عنه الدب ؟

اتجه إلى المقهى وحمل زجاجة من الويسكي بين يديه،كانت النساء تنظر اليه من أسفل الشارع في رهبة واحترام ، ادار الرجال محركات السيارات وهربوا ، لم يبق أحد في الشارع ، أين الشرطة ؟ دائماً عندما تحتاج لأحد تجده هو الآخر محتاجاً إلى أحد ، لا يمكنك أن تلتقي بأحد لا يحتاج شيئاً ، انك دائماً إما مساعد أحداً أو مساعد من أحد ، لا يمكن أن تنعزل .

والآن أيها الدب .. لا بد من عمل شيء قبل أن تقع كارثة فظيعة ومرعبة .

على حين فجأة توقفت سيارة صغيرة وخرج السيد دافير من داخلها ، استعرض الدب في لامبالاة دون أن يبدو عليه انه قد تأثر لمرآه .

والسيد دافير عالم ذائع الصيت ، انه يستعد لتقديم رسالته للدكتوراه بالجامعة ، هو في حوالي الثامنة والعشرين وله زوجة وولدان .

خرجت زوجته من السيارة وجعلت تساعد طفليها على الخروج ، استعرض السيد دافير الدب وكما قلنا فانه لم ينفعل لا بالسخط ولا بالرضى .

ان انساناً يحصل على كل ما يريد في سن الثامنة والعشرين لا يمكن أن يتأثر بسهولة ، ساعد زوجته وهي تخرج العربة وحمل عنها السلال ، لقد عاد هو والعائلة من نزهة مجنونة على شاطىء البحر ، نظروا جميعا إلى الدب وكأن الأمواج قد حملته وأتت به إلى هنا ، شيء عادي ، مسألة ذات وزن طبيعي ، خلع السيد دافير هوائي الراديو وألقاه داخل السيارة ، انه يفعل هذا دائماً ، فالأولاد يخربون كل شيء ، يخلعون هوائيات السيارة وأغطية الكشافات ، انهم يفعلون هذا بدافع الطيش وحده ، وهو أمر على نفس درجة السوء التي ينطوي عليها الدب .

إصعدي إلى أعلى ، سأتحدث معه ، قال السيد دافير لزوجته ، غير ان زوجته فضلت ان تراقب الدب إمرأة لطيفة ، امرأة لطيفة تشعر بالخطر ، مدام دافير امرأة رقيقة الحجم .. معتدلة القامة .. شهية تنبض بالحنان ، راحت تنظر إلى الدب بعينين واسعتين عسليتين ، ان الدب يحب العيون العسلية ، إنه يحب النساء . ماذا ستقول له ؟

سألت مدام دافير زوجها .

اي انها تريد أن تعرف بماذا سيجيب الدب على زوجها .

سأحاول تهدئته ، ان هذا شارع هادىء .. وهو بخيل بحركة المرور ، انه يقف وسط الطريق مزمجراً ، يحك جسده .. انظري كيف يحك جسده ، انه مصاب بالهوس .

اسرعوا إلى البيت يا أولاد ! قالت مدام دافير دون أن تتحرك من مكانها ، نظر

اليها الدب في استطلاع ، خطا السيد دافير تجاه الدب وخطا الدب تجاهه بعد قليل ستقع الكارثة المحققة .

ماذا سيقول للدب ؟

- اسمع ! عليك بالهدوء ، ان هذا شارع هادىء متعقل ، عد من حيث جئت ، خذ قطعة من الخبز وزجاجة من اللبن إذا كنت جائعاً . ليس لك ما تبحث عنه هنا .

- حقاً ؟ أجاب الدب مزمجراً .. صاحية .. حية ، ان لديك امرأة شهية ، انــني أتشهى اللهو بفخذ رجل ومداعبة ساقي صبية ، انني واثق من أن لها ساقين مديدتين ولطيفتين .

لم يتراجع السيد دافير ، تراجعت زوجته وقد اكتسى وجهها بالزرقة وهي تتلفت حولها ، سمع بعض الأشخاص ما قاله الدب وسيشهدون في صالحها عندما يحين الوقت لذلك ، ماذا سيفعل الدب بها ؟ انه غير انساني .

لو احتضنها لحطم عظامها ، ولو قلبها لبعثر أسنانها ولو ... ان دباً بهذه المقاييس يمكنه ان يشرخها وكأنه رمح ، ان هذا غير انساني ، انه لشيء فظيع ، ستموت المرأة ، سيشرخ رحمها ، سيمزق أمعاءها .. رباه .. سيكون الأمر غير انساني لو فعل بها شيئاً من هذا النوع ، خاصة بهذه المــرأة .. فهي امرأة محترمة طاهرة وطيبة ، امرأة رائعة هادئة وذكية ، امرأة رقيقة ماذا سيفعل فيها .. وكيف ؟

جذب الدب ذراع السيد دافير وفصلها عن جسده ، ألقى اليد إلى بعيد ثم هوى بلطمه على وجه السيد دافير انهار السيد دافير على الأرض ولم يعد له وجود ، نظرت زوجته إلى الدب وكأن السيد دافير لم يكن له وجود قط .

يا رب السماوات ، ان هذا غير انساني ، ان لدي طفلة في الخامسة وسترى ماذا يفعل الدب في امرأة طيبة ، ان هذا غير انساني ، انه دب متوحش ذو مقاييس هائلة ، لقـد قرأت في دائرة المعارف في احدى المرات عن مقاييس الدب ، ان هذا موت محقق للمرأة فلينصرها الله .

في خطوتين بسيطتين أمسك الدب بها وجذبها إلى ما بين ذراعيه وبحركة من يده مزق ما على جسدها من ملابس ، بديع ! أعني فظيع ، امرأة بيضاء عارية كما ولدت بين ذراعي دب شيطاني غير انساني ، انه سيفعل فيها الآن فعلاً فظيعاً سيقتلها ، انظروا ، يا رب الأرباب ترك الدب المرأة .. فسقطت على إسفلت الشارع مغشياً عليها وساقاها مفروجتان

على اتساعها ، هذا كل شيء ، هل هي ميتة ؟ بدا أن الدب يشعر بالرضى،لقد كانت هذه امرأة عالم طيبة ، غاية في الطيبة عب الدب من زجاجة الويسكي فيجوفه وبدا يخطو على منحدر الشارع ، لقد أقسم شخص انه سمعه يقول : الآن أنزل إلى السفينة وأعود إلى سيبيريا ، ان بعض البرد لن يغيرني بعد هذا الحمام،من يستطيع العيش في مثل هذا الطقس الجنوني ؟ انتِ «مش بطّاله» ، ميتة ، مثقوبة كالغربال..عندما أوجه نظراتي إلى امرأة يُقضَى عليها بالموت ، موت ناعـــم إلى الشيطان ، من لا يريد أن يموت هكذا ؟ الله يساعدني .. لا ضرورة للاستحمام ، ليست هناك قطرة دم ، ماذا ؟ هذه المرة لم استحم من الدماء ؟ ولكن كيف ؟

وهكذا لم تمت مدام دافير ، نهضت من مكانها ، كان وجهها مكتسياً بالزرقة وهي تعرج من مشيتها ، أخذت ولديها واتجهت إلى مدخل البيت .

رباه .. ان هذا غير انساني .. هذا غير انساني ، كيف هذا ؟

كانت طفلتي ابنة الخامسة واقفة ورأت كل شيء ،الآن تشوهت أفكارها عن الحياة، لقد فقدت كل قدرة على تقدير معايير الأشياء ، ان هذا غير انساني.

قصص المعـارك

مكنسة على الصاري

يوساي جمزو

دلف المقدم اسحق ذو الشعر المقصوص والعينين الزرقاوين المستظلتين بحاجبين كثيفين في لون الفحم .. إلى قمرته على ظهر المدمرة ايلات . دخل إلى القمرة هارباً من الجو السائد خارجها وقد عقد النية على ان يخلد إلى النوم ..

غير ان اليقظة المشحونة بالتوتر .. الوليدة الشرعية الـــتي تنجبها اسابيع التأهب الأخيرة التي تسبق الحرب .. تغلبت عليه . فقـد كانت أشد عزماً منه وأكثر تصميماً . لزم القبطان الشاب قمرته وقد اكتست عيناه بلون الدم عازفاً عن مبارحتها .

كان يعلم ان خروجه إلى أي مكان على سطح الباخرة .. إلى حجرة الماكينات .. إلى منصة القيادة .. إلى حجرة العمليات .. إنما يعني شيئاً واحـــداً هو التعرض لنظرات الفتيان التي تسأله في صمت .. متى ؟ متى نفعل شيئاً ؟ إن الحرب كريهة ومدمرة ولكن لا بد من خوضها ...

ألقى بجسده على فراشه الوثـــير الذي يمتص هزات المدمرة وهي تمخر البحر وراح يحلق بذهنه في آفـاق من الأفكار السوداء حتى طلع عليـه الفجر .. مع اول خيوط الفجر وصله من قاعدته أمر باللاسلكي يقول .. اتجه بالمدمرة إلى الميناء ..

بعد بضع ساعات فقط من تلقيه هذا الأمر .. شاهد من خلال الكوة الزجاجية قائد مجموعته البحرية يصعد مع هيئة القيادة إلى المدمرة ايلات نفسها .

مهمة جديدة !

قال القائد ذلك وهو يدخل إلى القمرة يبرم خريطة بحرية بين يديه .

وعندما غادر القائد المدمرة .. اصطف فتيـان المقدم اسحق امامه ينصتون اليه في اهتمام وهو يلقي أوامره عليهم في ايجاز .

وبعدها اندفعت المدمرة ايلات جنوباً صوب الهدف المحدد لها .

في اليوم التالي عندما اشرقت شمس السابع من يونيو في بريق وهاج يعشي العيون .. جاءه ابلاغ لاسلكي يقول .. هنـــاك غواصات مصرية تجوب البحر على طول الساحل الاسرائيلي منذ بضع ساعات .. هكذا ..!!

فبينما كانت ايلات تحرث أمواج البحر الزرقاء في طريقها إلى مصر .. كشفت الباخرة العربية عن غواصة مجهولة على مقربة من الساحل الاسرائيلي .

ألقى المقدم اسحق على خريطته البحرية نظرة أدرك معها انه يبعد عن مكان الغواصة مسافة عشرين ميلاً بحرياً فقط .. فأصدر أوامره إلى الفتيـان بتوجيه المدمرة بأقصى سرعتها نحو المنطقة التي شوهدت الغواصة تسبح فيها .

في غضون لحظات كان المقدم ورجاله يعضون على نواجذهم في احساس من خيبة الأمل فقد وجه اليهم قائد المجموعة أمراً بمعاودة الابحار جنوباً تجاه الهدف الأساسي .

★ ★ ★

بعد انقضاء شهر على هذا اليوم .. صدرت الأوامر إلى المدمرة ايلات بالابحار للقيام بمهمة الدورية على الساحل الشمالي لسيناء بـين رمانـة والبردويل وفي رفقتها زورقان من زوارق الطوربيد .

من على سطح المدمرة كان الفتيان يشاهدون قطع الأسطول السوفيتي ترسو في ميناء بور سعيد . وأثناء ابحارهم اكتشفوا لاجئاً يحاول الهرب من سيناء في قارب صيـد . وبعد قليل سمع المقـدم اسحق حجرة العمليات تبلغ منصة القيادة بأن زورقي الطوربيد المرافقين يبلغان عن ظهور هدف بحري .

— آلو .. هناك شيء ما .. شيء ما يقترب . حوّل .

ولمزيد من التثبت يأمر المقدم اسحق قائد الزورقين بالاقتراب من الهدف للتعرف عليه . وبعد لحظات يجيب الزورقان :

– هدف آخر أمامنا يا سيادة القائد .. هدف آخر !

وعلى الفور يتحول المقدم اسحق إلى كتلة من النشاط والحركة وكأنه ماكينة شحمت تشحيماً جيداً .

أصدر إلى منصة القيادة الأمر المعهود في حالة الالتحام .. « إلى مواقع القتال .. انتشر » ..

واتبعه بأمر آخر إلى رجال المدفعية لتجهيز المدافع الهائلة الرابضة على سطح المدمرة .. ثم وجه أمراً ثالثاً إلى القائمين على توجيه السفينة والتحكم في دفتها باغلاق المنطقة والاقتراب بقدر المستطاع في الظلام من الأهداف المعادية المتحركة ..

جعلت المدمرة تتحرك في مهل وحذر وربانها يتابع مدى اقترابها ليضمن لها مسافة أمان كافية تفصلها عن العدو .. كان يخشى من أن يكون المصريون قد أرسلوا زوارق الصواريخ . كانت الأفكار تتحرك في ذهنه بسرعة وهو يقلب الاحتمالات .. علّ هذه الأهداف شيء آخر غير زوارق الصواريخ .. ولكن ماذا يمكن أن تكون ..

كان البحر منبسطاً في هدوء .. يرسل أمواجه في تكاسل لتلامس وجنتي المدمرة الفولاذيتين في ترفق وحنان .. لكن الظلمات الكثيفة المتراكمة في الأفق كانت تخفي أسراراً واخطاراً ..

فجأة دوى عبر سماعة اللاسلكي صوت النقيب إيلي هجينجي قائد الزورقين يسأل في حماس ..

– هل ننالهم ؟

وأجاب المقدم اسحق بصوت أشبه بالزئير .

– أي سؤال هذا ..

وبعد ثوان تكشف احتمال رهيب أمام المقدم .. لقد وجد نفسه في وضع ميؤوس

منه تماماً .. كان النقيب إيلي قادماً بزورقيه من الجنوب .. والمقدم اسحاق هو ورجاله فوق المدمرة مقبلين من الشمال . أما المصريون فكانوا رابضين لهم في الوسط .. على مسافة ألف وأربعمائة ياردة من المدمرة والفي ياردة من زورقي إيلي ..

– هذا هو الموقف يا سيدي .. هل تفهم ؟

كانت المعضلة واضحة بكل ما تحمل من هول ورعب .. فإما ان تفتح المدمرة نيرانها فتصيب الزورقين المرافقين .. واما أن يلتزم السكون ويدع المصريين يهاجمون .

وجاء صوت إيلي فزعاً عبر اللاسلكي .. ماذا نفعل .. ماذا نفعل بحق جميع الشياطين ؟ قل لي ماذا أفعل .

– اتخذ لك موقعاً .. واحرص طيلة الوقت على أن تكون بيني وبين العدو .. لو ظل العدو بيننا فقل علينا السلام ولتلقفتنا الملائكة بعد قليل . وسادت لحظات صمت وانتظار رهيب .. كان المقدم اسحق خلالها يقرص أسنانه في حنق مكظوم .

وتحرك المصريون .. استداروا وفتحوا النيران على زورقي إيلي .. نيران مركزة تنطلق بكفاءة . ويجيب إيلي على النيران . وفجأة تحدث المعجزة .. إذ يلاحظ المقدم اسحاق ان احد الزورقين المصريين يغادر موقعه ويتجه إلى بور سعيد. بينما يصوب الآخر ناحية رمانة ويصرخ المقدم اسحق في لهفة . إيلي ! انهما ينفصلان .. خذ أنت الشرقي وسآخذ أنا الغربي .. وتنطلق من على ظهر المدمرة قذيفة إنارة تضيء الزورق المصري الذي كان مغلفاً بالظلام .. وفيما كانت طلقات الانارة تتابع راح المقدم اسحق يحادث نفسه في رضى « ها هي أحاديثنا الفنية النظرية التي تدور في مطعم الضباط .. الأحاديث التي تقوم في نصفها على الخيال حول مسائل التكتيك القتالي في البحر .. تؤتي ثمارها أخيراً . انها ثمار لن يستمرئها المصريون بالقطع ... »

وقطع حبل أفكاره صوت مدو انطلق من حنجرته .. المدافع حرة ! .. وهذا يعني أمراً باطلاق النار فوق ظهور الهدف .

شاهد المقدم اسحق أثناء وقوفه على منصة القيادة اصابة مباشرة .. قذيفة من أحد مدافعه عيار أربعين ملليمتر تخترق جسد الزورق المصري .. ومع ذلك تلاحقت أوامره

إلى طاقم المدفعية بتركيز النيران وإلى طاقم الدفة بالاقتراب من العدو نظراً لصغر حجم الزورق المصري ومقدرته على المناورة فضلاً عن حُجب الظلام التي تستره .

وبعد تفكير يقرر المقدم اسحق اضاءة أحد الكشافات على ظهر المدمرة وتسليطه على زورق العدو مع كل جسامة الخطر الذي ينطوي عليه هذا العمل .

وينكشف الزورق المصري وكأنه يسبح في النهار ..

ويدوي صوت المقدم اسحق .. اطلقوا النار ! .. ثم يلتفت إلى مساعده أوري مخاطباً إياه ..

– أوري ! سأنطح الزورق .

غير ان أوري يعترض في حسم .. ولكن قد ينفجر الزورق !

وفي الواقع فإن زوارق الطوربيد تحمل شحنات غير هينة من الذخيرة والوقود .. ولا يعلم أحد من الذي كان سيخرج منتصراً من المعركة إذا ما انفجر الزورق والمدمرة الملاصقة له .

ويستعمل أوري حق الفيتو .. لا بد من التخلي عن فكرة المناطحة ! يومىء إسحق برأسه موافقاً على الاعتراض ومتخلياً عن فكرته .

من على منصة القيادة .. وعلى ضوء كشاف المدمرة .. يشاهد المقدم اسحاق طلقات مدافعه الرشاشة والقذائف من عيار أربعين ملليمتر تمزق جسر القيادة على الزورق .. وفي أقل من الثانية تتابع عيناه قائد الزورق وقائد دفته يقاومان الغرق في سباحة يائسة بين كتل اللهب الطافية على سطح الماء .. وبعد لحظات يختفي الرجلان في الأعماق ..

راح اسحق يحادث نفسه متسائلاً .. من كان قائد الزورق ؟ ماذا كان اسمه ؟ وهل يعرف بصورة شخصية أنني عدو له ؟ ومن أنا ؟

ويدوي صوته ثانية والمدمرة على مسافة خمسين متراً من الزورق اطلقوا النار !

استجابت له مدافعه وتتابع هديرها .. وعلى الفور دوّى انفجار هائل وراحت المدمرة تهتز في عنف وتتمايل على جانبيها .

وسرعان ما اتضح كل شيء . لقد انفجر الزورق المصري . وأطاح الانفجار بالمقدم اسحاق من موقعه فوق منصة القيادة .

ووقف المقدم والغيظ يطحنه وهو يتلقى التقارير الأولى عن خسائر السفينة . أصيب حورشيق موجه الكشاف بشظية في جبهته .. في المعدات لم يصب أي جهاز سوى جهاز توليد الطاقة الرادارية وتولى مهندس الرادار تشغيل مولد آخر فور اكتشافه انقطاع الحرارة عن الرادار .

بعد قليل اتضح ان أحد رجال المدافع الرشاشة قد أصيب بطلقة من رشاش الزورق المصري وأنه قد اسعف في مكانه واستمر في أداء واجبه .. كذلك تبين ان ستة من الفتيان لحقتهم اصابات طفيفة من الشظايا وانهم أسعفوا ويواصلون عملهم في روح عالية .

★ ★ ★

حدث هذا قبل انتصاف ليلة الحادي عشر من يوليو بثلاث دقائق . ومع هذا فلم تكن الاشكالات قد انتهت . فقد ظهر ان احد الجرحى يعاني من ارتجاج في المخ نتيجة سقوط لوح من الفولاذ يزن ثمانين كيلو غراماً على رأسه .. ولحسن حظه فقد كان يضع خوذته المعدنية فوقه .. وأن طبيب السفينة قد تولى علاجه ورعايته ..

لكن الطبيب ذاته كان يعاني من مشكلات خاصة . كانت مشكلات الملازم طبيب دوفي ذي الستة والعشرين ربيعاً .. من نوع مختلف تماماً .. فهو باحث أكاديمي .. وكان المفروض أن يحصل على درجة الدكتوراه في الطب في الاحتفال الرسمي الذي سيقام بالجامعة العبرية بعد يومين . ولم تكن هذه مشكلته وحده . فقد كان الملازم صاصا ابن الثالثة والعشرين .. هو الآخر طالباً وكان المفروض أن يحضر في الغد حفل التخريج ليتسلم شهادة البكالريوس في الهندسة الإلكترونية .

اما وقد وقعت المعركة فلقد بات واضحاً أمام الشابين انه ليس لهما أن يحلما بالاشتراك في احتفال التخريج النهائي . كانت هذه الحقيقة تحز بصفة خاصة في نفس الدكتور دوفي .. كان المفروض أن يختتم بعد يومين فترة دراسية امتدت سبع سنوات .

على السفينة كان هناك شخص آخر يعاني مشكلة خاصة .. كان المساعد كلمنت

على موعد في روما بعد يومين مع أمه العجوز التي لم يلقها منذ سنتين . كان قد رتب نفسه على الحصول على اجازة خاصة لهذه المناسبة .

ولكن منذ نشب القتال البحري أصبح واضحاً للمساعد قلمونط أن الحسرة وخيبة الأمل لن تكونا وقفاً على والدي الدكتور دوفي وهما ينتظران في خوف وقلق بعد يومين في قاعة الاحتفالات بالجامعة .. وان الحيرة والألم لن يكونا من نصيب والدي المهندس صاصا وحدهما .. فإن أمه هي الأخرى ستكون نهباً لهذه المشاعر وهي تترقبه على غير طائل في ركن من أركان مطار روما الفسيح . غير ان الأمور انتهت بصورة تخالف ما توقعه الثلاثة أصحاب المشكلات .

فمع بزوغ فجر اليوم الثاني عشر من يوليو سنة ١٩٦٧ وصلت المدمرة ايلات إلى ميناء اشدود تحمل على جسدها آثار بعض الجروح ولكنها تحمل في نفس الوقت مكنسة مشدودة إلى الصاري .. علامة الانتصار في التقاليد البحرية .

وفي العاشرة من صباح نفس اليوم كان المقدم اسحق مستلقياً على فراشه الوثير في قمرته على ظهر المدمرة والترانزستور يحمل اليه صوت المذيع عميق بيري يعلن على العالم خبر انتصار ايلات في رمانة .

في الرابعة بعد الظهر كان الملازم صاصا يقف في احدى قاعات المعهد الفني بحيفا على منصة الشرف يتسلم شهادته ويصافح الأساتذة وعيون والديه تتابعه في حبور ورضى .

وفي نفس الساعة من اليوم التالي كان الملازم دوفي يحصل على لقب دكتور في الطب في قاعة الاحتفالات بالجامعة العبرية بالقدس .

ولقد وفر دوفي على نفسه بحضوره الاحتفال .. مشقة تقديم رعاية طبية عاجلة لوالديه معاً .

وفي ذات الوقت .. كانت هناك امرأة يهودية في شارع بولونيا بروما تحتضن بذراعيها وبدموع الفرح المساعد البحري قلمونط .

ـ أريد أن أقول لك شيئاً يا ولدي ..

قالت العجوز وهي تحتضن الولد ذا الأربعين عاماً وهو منهمك في ضمها وتقبيل جبهتها .

- لقد سمعت اليوم من الراديو الايطالي عن الانتصار البـــاهر الذي حققته سفينة اسرائيلية اسمها « ايلات » أو ما شابه ذلك ..

فما رأيك في هذا يا صغيري ؟

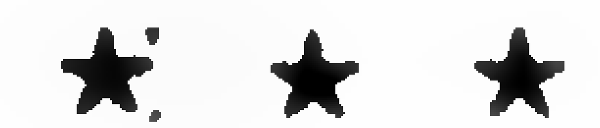
ويجيب الصغير وهو يضع قبلة أخرى على جبينها ..

.. آي انك رائعة يا أماه ..



كان ذلك في عام ١٩٦٧ ...

وبعد ذلك عرفت المدمرة ايلات الآلام والآهات . عرفت كذلك النهايـة المريرة . عرفت رايات الحداد . ومع ذلك فإن قدامى العاملين على المدمرة ايـــلات .. أولئك الذين بقوا بعد أن انتهى كل شيء .. ما زالوا يصرون من خلف حجب الحزن والأسى وستائر الألم.. على عدم اثبات ذكريات معركة ايلات قبل الأخيرة.. معركة الرمانة.. بين ذكريات حياتهم عليها .



لا لون للخوف

جدعون تلباز

بقدر ما كان يعلو كانت السماء تعلو معه .. وبقدر ما كان يبتعد كان يبدو لها أن لونها يشحب ليصبح كلون الذهب المعتم أو الكهرمان .

قال لنفسه .. هذه نتيجة للمعاني وبسبب لون النظارة وانحدار الشمس .

تبعاً للظل الذي كان يتبعه على الرمال عند مروره فوقها .. كان يمكنه أن يلاحظ أن الشمس قد انفلتت من كبد السماء في طريقها إلى الغرب .

إن النظر في عينها يعني ان تمشى عينـاه وأن يضل في الفضاء وأن يفقد سيطرته وتحكمه في الطائرة . كان الجو مكفهراً بعض الشيء والضوء ساطعاً وساخناً رغم ان الخريف كان يعم كل شيء . كانت راحتا يديه العريضتين اللتين تغطيهما بعض الشعيرات الصفراء بارزتين من كمي رداء الطيارين الذين يلبسانه ويتمسكان بعجلة القيادة في ثقة . كانت جلسته منتصبة وعيناه يغلفها الضباب وان كانتا تنظران في حـدة إلى الأفق . كان وجهه رقيقاً وفتياً يكسوه احساس من الاطمئنان .. لقد حقق من قبل مئـات الساعات من الطيران .

في أسفل بدت سيارات الاستطلاع المتقدمة وهي تتواثب داخل المضيق .. وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات خلفها كان يتحرك تشكيل اللواء في صف طويل ممتد وهو يخلف وراءه سحباً كثيفة من الغبار . كان لون المضيق في صفرة الصحراء الساكنة . ولكن سكون الصحراء كان سكوناً كاذبـاً .. لقد كان سكوناً يختزن في جوفه الجيشان

المتجمد الذي شوّه في ضراوة وجه الأرض عندما تقيأت فلفظت من أمعائها هذه الشنائع التي تأخذ شكل المضايق المحصورة والفجوات والمنحدرات الصخرية المتوحشة وهضاب الجرانيت المعتمة . ان هذه هي أبعد المناطق التي امكنه ارتيادها حتى الآن في اتجـــاه الجنوب . الآن اقتربت الجبال فظهرت بنيـة اللون ضاربة إلى الحمرة .. منها المدبب ذو النتوءات ومنها المستدير ذو المنحدرات المعتدلة وجميعها مكفهرة تبث في نفس من يراهـا الروع والفزع .

أدار الطيار رأسه إلى الخلف .. « أيها جبل سيناء » ؟ ..

ــ ماذا ؟ أجابه الكشاف وهو يرفع صوته .

جذب الطيار الفرملة بعض الشيء فخفتت ضوضاء المحرك .

ــ أين جبل سيناء هنا ؟

نظر اليه الكشاف بعينين خاويتين من التعبير ومطّ كتفيه إلى أعلى ثم عـــاد ينظر إلى أسفل .

سؤال أبله . تمتم الطيار وكأنه قد ارتاد هذا المكان من قبل . إن جبـل سيناء من الناحية الأخرى كما تقول الخريطة .

فقدت الطائرة البيبر بعض ارتفاعها . زاد الطيار المحرك وجذب عجلة القيادة جذباً خفيفاً ناحية بطنه . هو الآن يحلق على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم .

بدت على حافتي المضيق بعض آثار الزرع الذابل في شكل بعض أشجار الاثل والنخيل المبعثرة هنا وهناك .

طاف بذهنه موسى . القوم يجولون في هـــذه الصحراء الجدباء وموسى يهبط إليهم بالألواح ويفضّ احتفالاتهم من حول العجل .

أطلّت عربة جيب منفردة من داخل المضيق وتباطأت للحظة ثم تقدمت فوق مدق ترابي ممتد أسفل الروابي . غرس الكشاف عين نسر في المنحدرات الصخرية كانت المنطقة نظيفة . لم يكن هناك ما يُبلغ إلى تشكيل اللواء قاظت القمرة بالحرارة . وجـه الطيار

فتحات الهواء ناحية وجهه وجعل يستمتع بنسائم الهواء البارد . كان مـــا يزال متيقظ الحواس رغم ان هذه كانت الساعة الرابعة التي مضت عليه وهو في الهواء .

تدحرجت نظراته على لوحة الأجهزة ثم ثبتت على البوصلة . إنه يطير الآن إلى الجنوب الشرقي والريح طيبة . لولا تشكيل اللواء الذي يتحرك بالخلف في تثاقل وفي تمام التأهب القتالي .. لما يتصور أحد أن هناك حرباً .

لم تكن قـد أطلقت تجاهه قذيفة واحدة بعد . انني لا أتمنى هذا .. تمتم مفكراً . لست من أولئك المحاربين . ولكن إذا حدث هذا فليحدث . فأنا مستعد .. أسر لنفسه وهو يضع يده في جيبه متحسساً بلا وعي قطعة النقود المعدنية المثقوبة التي صكت سنة مولده والتي دأب على حملها معه دائماً .

لا يكاد أحد يتصور الآن أنه كان يجلس منـذ خمسة أيام فقط على كرسي دوار في مكتب صغير بالقدس منكباً على دفاتر الحسابات .. موظفاً يستعد في المساء لامتحانات السنة الأولى بالجامعة . هذا ما لم تطرق نيره باب بيته .

ليست في نفسي ضغينة ضدها .. تفكر مبتسماً . بالعكس .. لا يمكنني أن أعتـبر رفقتها لي مضيعة للوقت . ذكرته ثنـايا الأرض بالقرب من المنحنيات برقدتها المقوسة . كان من عادتها فور دخولهـا حجرته أن تلقي بحقيبة الرسوم الكبيرة في زاوية الحجرة ثم تلقي بنفسها بين ذراعيه بينما شعرها الطويل ينسكب على وجهها وساقاها الطويلتان تنطويان . كان عدم الاتساق الهندسي في جسدها وهي في ذلك الوضع يرهق عينيه ويدهشه تماماً مثل الأرض المفروشة تحته الآن . لقد استدعي خلال الأشهر الأخيرة عدة مرات بصورة مفاجئة لينضم إلى وحدته .

كان هذا يحدث كلما التهب الموقف على الحدود . ولكن الأمر لم يكن جدياً في أي من تلك المرات .. وعادة ما كان يتم تسريحه بعد بضع ساعات . ولكن عندمـا تلقى أمر الاستدعاء هذه المرة شعرت نيره بشيء مختلف .. فراح يسخر من مشاعرها ويبدي استخفافه بحاستها السادسة .

لم يتذكر مخاوفها عندما التقى برفاقه القدامى الذي شعر ثانية لدى رؤيته اياهم ان الأيام القديمة ما زالت قائمـة وان عاماً بالخارج لم ينجح في تغييره . كان احساسه

بأنه سيشارك في الخطة الحماسية يثير في قلبه جيشانا هائلاً لن يكون صوب الشرق بل صوب الجنوب .

كان طيارو النفاثات يتجولون في القاعدة كالأمراء يلقون عليه النظرات من أطراف عيونهم كما لو كان سائق طائرة في لونابارك .

حسناً .. هنيئاً لكم . كان يُسر لنفسه ساخراً منهم . لكي يرسب في نفسي احساس بالضعة فلا بد من وقوع أمر أجل بكثير من أن اكتشف عدم لياقتي لقيادة طائرات القتال . كل الاحترامات للنفاثات ولكن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً .

شيء لا يخصني أيتها المكنسة الهرمة .. تمتم الطيار وهو يدق بأصابعه على لوحة الأجهزة . كونك تحفة قديمة شيء لا يخصني . كنت أود أن أرى ماذا كانت هذه الحرب ستكون عليه بدونك .. أنظري خلفك .. لواء كامل لا يستطيع شيئاً بدونك .

ضغطة خفيفة على الفرملة . واطاعت البيبر طيارها في اخلاص .. وارتسم ظل ابتسامة على زاوية فمه .. كان يعرف كل الحالات النفسية للطائرة .

عدل وضع النظارة على أرنبة أنفه ثم نظر إلى الامام . حتى بعد كل ساعات الطيران العديدة هذه ما زال يصعب عليه أن يتواءم مع احساسه بالسيطرة المطلقة على الطائرة مثل ما زال يصعب عليه الاتساق مع شعور التحكم المطلق في نيره عندما كان يوجه إلى عينيها نظرة حب .. كان يعلم ان ترددها قد انتهى وانتهت معه مقاومتها البسيطة وأنه قد أصبح قادراً على أن يفعل بها ما شاء . وليس بها وحدها . لقد كانت تلك أموراً أسطورية وحتى الآن فإنه غير قادر على فهمها . انه يشعر منذ وقت بعيد بقوته الغريبة على التحكم في الظروف وفرض إرادته عليها ولكنه لم يعرف قط كيف يفسر هذا الأمر . ربما كان هذا بفضل قطعة العملة . وأياً كان الأمر .. قال لنفسه .. فانه يحسن ألا أفكر في هذا أكثر مما ينبغي . ليس هذا صحيحاً .

ظهرت الآن عربات الجيب وعربات نقل الجنود منتشرة كالجراد على سطح الأرض . إن هؤلاء السائرين بأسفل لا يمكنهم أن يقدروا ما الذي تفعله هذه المسافة فيك .. جعل الطيار يحدث نفسه .. المسافة التي يمكنك أن توجدها بينك وبين الأرض ..

انهم لا يدركون مدى الحرية الذي تحصل عليه عندما تنفصل عن الأرض وتنظر اليها من أعلى .

إن هذه أشياء بديعة ما من كلمات تقدر على التعبير عنها . عندما نظر إلى السماء لم يستطع الا يشعر بالارتباك .. لقد أحس وكأنه غاز فظ متوحش ينتهك صمتها المقدس بضوضاء محركة . ولكن ما كان في مقدوره أن يطيب خاطرها حتى ولو كان أن يسمر نفسه فيها فجأة كالنسر الذي يجمد عن الطيران في العلى بين السماء والأرض.. الأمر الذي كان يمكن أن يمثل تجربة رائعة . عندما مالت نظراته إلى أسفل شاهد الجيب المنفردة تتوقف إلى جانب منحدر عريض . أبطأ الطيار وهبط بضع مئات من الأقدام .

ماذا يحدث هناك ؟ لماذا توقفوا ؟ وبينما هو يفكر في الاتجاه نحوهم إذا بصوت يقتحم سماعتيه .

– حاولنا الاتصال بك من القاعدة ولم تنجح .. قال الصوت في برود وأحس الطيار أن أذنيه تصرفان .. انني الآن فوق ايلات على ارتفاع ثلاثة .

لقد حلقت خصيصاً لكي ألحق بك .

– ماذا هناك ؟

– كف عن العمل مع اللواء واخفض من ارتفاعك .

– ماذا حدث ؟

– اسقط زميلان .. تقدم لترى ماذا يمكن عمله . لقد شوهد أحدهما على الأقل وهو يهبط بالمظلة .

– أين حدث هذا ؟

– اسقط زميلان .. تقدم لترى ماذا يمكن عمله . لقد شوهد أحدهما على الأقل وهو يهبط بالمظلة .

– أين حدث هذا ؟

– بالقرب من مواقعهم . شرم الشيخ وراس نصراني .

- هل هذا كل ما تستطيع قوله لي ؟

- لا أعلم أكثر منك . حاذر من نيرانهم المضادة . أرجو لك التوفيق .

سكنت السماعات وانتهى الاتصال . وجه الطيار نظرة خاطفة تجاه صندوق الأجهزة الكبير الموجود إلى جواره ولبرهـة وجيزة كان ذهنه خاليـاً من أي فكرة ثم التوت شفتاه علامة السخرية .

كيف تجد ابرة في كوم من التبن . كيف يتوقعون أن تحـدد شيئاً في هذه الصحراء الضخمة إذا كانوا يعطونك توجيهاً على هذا القدر من الغموض ؟

وفي نفس الثانية اختفت علامة السخرية من على شفتيه وشعر فجأة بالدم يغذ السير في عروقه . التفت إلى الخلف وقال .

- هل أنت مربوط جيداً ؟ .. اننا سنرتفع .

- إلى أين .. سأله الكشاف .

- إلى أسفل .. إلى طرف شبه الجزيرة .. « لالتقاط رفاق اسقطوا » .

لاحظ الطيار دهشة الكشاف وفتح الفرملة إلى آخرها . ارتجفت يده رجفة خفيفة وسحب شهيقاً من فمه . لقد أزعجته نظرة الكشاف . من أين للرجل الذي لم يكن قط طياراً أن يعرف ما هي أخوة الطيارين ؟

قال الطيار لنفسه . كيف يعرف أن انقاذ طيار يعد عند الطيار أمـر أعظم من انقاذ أخيه ؟

كانت الطائرة في ارتفاع مستمر . وكان الطيار يراقب لوحة الأجهزة . أصبح الآن على ارتفاع أربعة آلاف قدم وأصبح الصعود أكثر بطئاً .

سيمر وقت طويل حتي أصل إلى عشرة آلاف . من الأفضل أن أقبل عليهم من عل ولهم عندئذ أن يطلقوا النار كيفما شاءوا . ولكن لن يكون ممتعاً أن يقبلوا علي بالميج . لن يكون ذلك ممتعاً ولا مسلياً على الاطلاق .

زم شفتيه ونظر إلى الامام .

من هذه اللحظة لا شيء مضمون ولا شيء مؤكد انك معزول وراء الخطوط إذا كان العدو ما زال في مواقعه ومصيرك بيدك وحدك .

كان بمقدوره ان يحس بالعرق الذي يعتصر على راحتـه الممسكة بعجلة القيادة . لم يكن في الواقع مندهشاً . كان في الحقيقة يشعر بالراحة .

لقد أدرك الآن أنه كان يتوقع هذا منذ الصباح .. منذ أحس لأول مرة بالتوتر في راحة يده . إن هذا الأساس لم يضلله قط . كانت خلايا مخه غاية في الصفاء والتيقظ .. وفي خضم انفعاله ابتسم لفكرة انه كان يخشى منـذ بضع دقائق من أن يضطر إلى أن يخوض الحرب كلها كمجرد أداة اتصال بين الدورية المتقدمة ، وقائـد اللواء أو كسائق لعربة اسعاف طائرة تقل الجرحى والقتلى إلى الشمال . إن الحظ يبتسم لي وإذا لم يفارقني فإنني سأنجح في انقاذهما . وهنا كف عن الابتسام وعض على شفتيه ووجـه نظرة إلى الامام .

كان المحرك يعمل بكل قوته . والبيبر تهتز وتصعد في عناد قدماً بعد قدم . مثلها مثل البغل الهرم .

وبقدر ما كان يرتفع بقدر مـا كانت ملامح الأرض تنطمس وتختفي . المضايق والوديان والربى والفجوات .. كل هذا فقد صورته وابتلعته البيداء الهائلة التي أخفت من ذلك الارتفاع كل نتوء وكل غور من مسطح أصفر واحد .

من هذان اللذان أسقطا ؟ راح يفكر في دهشة . يبدو انهما اثنان من طياري المستير ممن كانوا يقصفون المواقـع . ولكن من هما ؟ من الصعب أن أتصور انهما من الثعالب الهرمة . ولماذا لا أتصور هذا ..

إن أي شيء قابل للحدوث .. حتى الثعالب الهرمة لا تصبح محصنة إذا تخلى عنهـا الحظ . كان يتمنى أن يكونا على قيد الحياة .. فليس من الممتع أن يحمل أمواتا . مثلما حدث له بالأمس عندما حمل أحد القتلى إلى الشمال ذلك انه لم ينتبه إلى أن البطانية قد اشتبكت بالباب وعندما كان في عزم الهبوط انفتح البـاب واندفعت الريح إلى الداخل

فأزاحت البطانية من على وجه القتيل ، عندما نظر إلى الخلف ورأى الرأس الملفوفة بالضمادات المبقعة بالدم والعينين الجامدتين دارت أمعاؤه في بطنه وكاد أن يفقد السيطرة على الطائرة . أي عبث يكمن في نقل القتلى .. ما حاجتهم إلى الهرب . إذا كانوا قد أصبحوا بالفعل في أعلى .. في عالم الحقيقة ؟

انخفضت الحرارة في القمرة وكان عليه أن يقفل فتحات الهواء ليتفادى الهواء البارد الذي بدأ يلف إلى الداخل . مرة ثانية القى بنظرة خاطفة على لوحة الأجهزة. كل شيء على ما يرام .. راح يتمتم وهو يتحسس عملة الحظ في جيبه . كان القرش قد فقد قوته الشرائية عندما كان صبياً . وما كان يمكنه أن يشتري به قطعة من الحلوى إلا بصعوبة ولكنه لم يفقد ايمانه به . فهو لم يطر قط بدونه .. كان القرش دائماً في جيبه .

دفعة واحدة بدأ يفكر في الخوف . لا لون للخوف . ولكنه ذو رائحة . وأنت لا تشعر به إلا إذا فكرت فيه . لقد كانت لديه طريقة يحس فيها باللحظة التي سيتعرض فيها لشيء غير طيب . كان هذا يتم تبعاً للطنين . ذلك الطنين الذي كان يحذره من الخطر الوشيك . طنين يصدر من كاشف الألغام الموجود داخله . إن الطنين لا يتردد الآن ومن ثم يمكنه أن يفترض أن القرش يعمل عمله هذه المرة كذلك . ولكن من الأفضل ألا أفكر في هذا .. قال لنفسه .. ونظر إلى البيداء المفروشة تحته . كانت شفتاه مشققتين فمرر لسانه عليهما ليبعث فيهما الرطوبة .

من الغريب أن تكتنفك هذه الأفكار فجأة .. راح يفكر .. خاصة وأنت مكلف بمهمة انقاذ حيث ينبغي أن يكون كل ما تفكر فيه هو كيف تعمل على انقاذهما بسرعة ودون أن تصاب . ولكن كل هذه الأفكار تترى بسبب الارتفاع والعزلة .. ذلك انك عندما تكون بأعلى فإنك تبدأ في التفكير على هذا النحو . ان الرب يتغلغل بصورة أكبر في وعيك إنك أقرب اليه الآن وربما كان ذلك أيضاً بسبب المسطح الأصفر الضخم الذي يمتد تحتك ويثير داخلك ضغطاً خفياً كدراً . إنك لم تك قط متديناً . والآن يعود اليك الكتاب المقدس مع موسى وهارون وقورح .

أيهم جبل سيناء ؟ وما أهمية أن تعرف ؟ هل ستهبط فوقه كي تبحث عن بقايا الألواح ؟

السماء الآن مكونة من ألوان زرقاء وبيضاء وقرمزية . لم تكن تتصور قط أنه يمكن أن يتوفر مثل هذا البهاء المتنوع . كأنهم أخذوا الجلد وغمسوه في حوض ضخم مملوء بالألوان ثم علقوه بأعلى ليجف. ان كل هذا راجع للعبة الخداع التي تمارسها الشمس. انك لا تستطيع أن تنظر إليها دون أن تصاب بالعمى . سماء خاوية . لا تبدو فيها ميج ولا ابن ميج قذر .

سماء خاوية ونظيفة . كان من عادتنا في هذا الموسم الخروج لقطف النرجس .

كان الجو يعمر بالأضواء وكان تنوع الألوان الهادىء الساحر هذا يطل من السماء . يجب أن آخذ نيره إلى تلك المناطق لأريها أين كنت أتجول عندما كنت صبياً . من المؤكد انني لن أجد المستنقع . سأجد مساكن . من المؤكد انهم قد وصلوا إلى هناك . انهم لا يتركون المستنقعات إنهم يجففون المستنقعات اليوم بالمساكن . إن الحضارة دائماً ما تكون مذنبة . خلف تضاعيف النور المحلقة لاحظ فجأة بقعة زرقاء في وسط الصحراء . . بقعة صغيرة غامضة في حجم قطرة الحبر . لكنه كلما اقترب كانت الرؤية تتضح وما كان ذلك وسط الصحراء بل كان طرفها وما كانت تلك بقعة من الحبر بل كان البحر الأحمر وذراعاه اللتان تحتضنان جنبات شبه الجزيرة كسني مذراة ضخمة . هما الآن يطيران على ارتفاع عشرة آلاف قدم ومعظم الصحراء خلفهما .

انحنى الكشاف الطويل الصموت إلى الأمام وأشار قائلاً . . مصر ! ظل الطيار جالساً بدون حركة بارداً هادىء النفس بينما تلكأت نظرة الكشاف على كتفيه العريضتين وعلى رأسه المنتصبة .

لم يلاحظ الكشاف وهو بالخلف أن عيني الطيار قد ثملتا من سحر المشهد وانه قد نسي للحظة طويلة السبب الذي من أجله وصل إلى هنا .

– « هل اكتشفت المواقع ؟ قال الطيار وهو يفيق من السحر .

– كلا . أجاب الكشاف . نحن غاية في الارتفاع . اهبط قليلاً .

أقفل الطيار الفرملة وترك مقدمة الطائرة تهوي إلى أسفل .

بدأت البيبر تفقد ارتفاعها في سرعة فجأة نطقت السماعات في أذنيه واستوعب النداء

الموجه إليه . من يمكن أن يكون هذا ؟ .. انني أبعد من أن أتلقى اشارة من اللواء . وعندما القى نظرة إلى جانبه رأى بيبر تقترب منه في اتجاه الجنوب الغربي .. يقودها أحد رفاقه في السرب .

— إنني عائد إلى القاعدة . قال الرفيق .. «لقد بحثت عنها حوالى ربع الساعة ونفذ الوقود من » .

— أين بحثت ؟

— قريباً من ساحل البحر .. تتبعت الآثار .

— كيف تبدو ؟

— كأنها آثار عربة جنود مصرية خرجت للبحث عنها .

— هل اكتشفت أي شيء ؟

— لا شيء . لكن من المؤكد أنها في هذه المنطقة هذا إن لم يكن المصريون قد عثروا عليها . « آسف لتركي إياك » .

— سأتدبر الأمر . أبلغ السلام لمن في القاعدة .

اتجه رفيقه ناحية الشمال فتلألأت الشمس على جناحي البيبر المبتعدة وبدت وكأن حريقاً قد أمسك بها . انخفض الطيار ألف قدم أخرى .

انكشف الشريط الموازي للساحل وظهرت معه الجبال الجدباء المنحدرة في حدة صوب ساحل البحر . أوغل في الهبوط طائراً بين الشمس الغاربة وبين المواقع . كان الكشاف ينظر اليه بعينين محدقتين .

شحب وجهه وتغلب في صعوبة على ميله إلى التقيؤ . لقد كان الهبوط مفاجئاً بصورة كاملة .

— « انهم لا يستطيعون رؤيتنا الآن » . قال الطيار .. ان الشمس تعشي عيونهم» .

— « ولكنهم يسمعوننا » قال الكشاف .

— « وماذا إذن ؟ ليخرجوا للبحث عن الهدير في السماء » .

مرت البيبر بسرعة من فوق الموقع . شاهد الطيار التحصينات بطارية المدافع الموجهة إلى المضايق .. والفرقاطة الراسية إلى جوار الساحل . كان الدخان يتصاعد خفيفاً من الحطام المتخلف عن القصف الصباحي .

— « انهم لا يلعقوا عسلاً هنا .. » قال الكشاف .

— « ان الرفاق لم يأتوا ليلقوا عليهم وروداً . » قال الطيار . زاد من السرعة وهرب. هو الآن على ارتفاع ألفي قدم . كانت الجبال الواقعة غرباً ترتفع في شكل هضاب بنية اللون مشققة فطار فوقها . زادت ضربات قلبه . ان بعضها يبدو كالخوازيق الحادة التي تنتظرك . ومنها ما يبدو وكأنه قد فغر فوهاته المعتمة الجائعة ترقباً لك . كان النظر إلى الجبال من أعلى من وضع الطيران المنخفض كافياً لبعث الرعب في النفس . بدأ الغروب فوق البحر وكانت نيره إلى جانبك الآن لأصابتها الخفة من هذه الألوان الساحرة المنسكبة عليك من كل جانب في رقة ودفء .

لن يستطيع أساتذتها في كلية الفنون ان يعلموها قط كيف تمزج مثل هذه الألوان وأطيافها .

— « انظر » .. نادى الكشاف وهو يشير إلى أسفل .

— « هل رأيتهم »؟ .. قال الطيار . شبحان يقفان على حافة بئر جافة ينظران إلى أعلى . كانا يرتديان ملابس عسكرية وكان كل منهما يحمل مدفع كارك جوستاف . جهز الكشاف مدفع عوزي ووجهه ناحيتهما .

— لا تطلق النار حتى أقول لك . نادي الطيار .

غطس غطسة حادة ومر بأقصى سرعة من فوق رؤوسهم كان طيرانه منخفضاً لدرجة انه لو مد يده لألتقط بعض الأحجار .

ألقى الاثنان سلاحهما في البئر وانبطحا يغطي كل منهما رأسه براحتيه .

عندما نظر إلى الخلف وهو يرتفع شاهدهما ممددين على الأرض في نفس الوضع .

« دورة أخرى ولا يعودوا صالحين للعمل . » قال الطيار وهو ينخفض بالطائرة مرة ثانية تجاههما .

غاص فوقهما وهو يحرث الهـــواء للحظة طويلة ثم ارتفع وهو يصوب جنوباً ناحية المواقــع .

ـ لقد اصبتهما بصدمة حقيقية . قال الكشاف وهو يقهقه .

ـ بالهناء والشفاء لهما . قال الطيار وهو يبتسم في سكون .

راحت عيناه تجولان على سطح الساحل وعلى المنحدرات الصخرية تلتقط كل صغيرة وكبيرة في المشهد الممتد تحته والذي بدأ الاعتام الأول يحيط عليه .

ـ انهما يبدوان مثل رجال الاستطلاع . قال الكشاف .

ـ « ان صح هذا فنحن في المكان الصحيح » . قال الطيار .

انني محظوظ إذ أعطوني كشافاً لماحاً كهذا .. فكر الطيار وهو يبتسم بينه وبين نفسه . كانت الشمس الواقعة خلفه بمثابة الحليف له .. طالما استطاع أن يستغل زاوية انحدارها . كان وجود رجلي الاستطلاع المصريين في المكان برهاناً على أن الطيارين لم يقعا بعد في الأسر أو ان واحداً منهما على الأقل لم يقع في أيدي المصريين .

بقيت عشر دقائق من الضوء المناسب للبحث وبعد ذلك سيكون من المستحيل العثور هنا حتى على قطيع من الفيلة . عندما نظر إلى الخلف رأى الجنديين المصريين ينهضان ويجلسان ناظرين إليه . إن في استطاعتي أن أغطس عليهم من الجنب وأحصدهما . فكر الطيار . انها عقبة في طريقي . ولكنهما لن يطلقا النار . انني لا أستطيع أن أضربهما هكذا . كذلك فإنه لا ضرورة لذلك . سيختلف الأمر لو أطلقا عـــليّ النار أو لا . ولكنهما لا يطلقان .

ان حظي مثل حظهما . من الأفضل الا تنطلق الطلقات . ان الطلقات وحدها هي التي ستوقظ المواقع التي تبدو غارقة في النوم . ولن يكون هذا لطيفاً .

ـ « هل هناك حركة أخرى في المنطقة » سأل الكشاف .

ـ « كلا » .. قال الكشاف .. يبدو انهما الوحيدان هنا .

عاد الطيار فدار فوقهما فانبطح الاثنان ثانية على الأرض .

ستظلا ساكنين هنا . قال دونما صوت . ارقدا في هدوء ولا تتحركا .

لم آتي لأوقع بكما ضرراً . إن تجاهلتماني تجاهلتكما . هذا طيب ولطيف .. راح يفكر وهو يرتفع من فوقهما .. إن هذه المناورة كافية ومسلية .

كان يمكن أن يكون ذلك مسلياً أكثر لو كنا أبعد قليلاً عن المواقع ولو لم يكن الأمر مرتبطاً بتهديد الوقت والوقود .

عندما ابتعد لاحظ بقعة مظلمة على الأرض فعرف على الفور أنها الفجوة الناجمة عن سقوط الطائرة التي تحطمت . الآن عرف يقيناً أن هناك منطقة غير كبيرة تضم الطيارين معاً .. هذا ما لم يبتعد أحدهما منذ سقط .

ـ أين يمكن أن يكون ؟ ـ سأل الكشاف .

ـ حاول أن تفكر فيما تفعله لو كنت مكانه . قال الطيار .. أين كنت تختبىء .

ـ يعلم الشيطان . قال الكشاف . إنها منطقة متسعة للعبة « الاستغماية »

ـ كنت أهرب ناحية الجبال . قال الطيار .

ـ ربما كنت مصيباً . قال الكشاف . ربما كان هناك . كل شيء جائز لم يكونا قد ابتعدا عندما انحنى الكشاف فجأة إلى الأمام وأشار تجاه أحد المنحدرات الآخذة في الاعتام على يسارهما . كانا على ارتفاع ثمان مائة وألف قدم . فأبطأ الطيار ونظر في نفس الاتجاه . كان هناك رجل يجلس داخل فلق في وسط منحدر ملوحاً تجاههما بقطعة قماش أبيض . لا شك انها جزء من مظلة هبوط .

خفض الطيار الطائرة ومر فوقه دون أن يكف الرجل عن التلويح . كانت حركاته عصبية و كان يصرخ بشيء ما أخرسته ضوضاء المحرك .

آه .. آه تمتم الطيار إنهما لن يستطيعا التقاطه من هذا الفخ المحكم .

لست انا ان المواقع هنا ورجال الاستطلاع هنا وهناك في الوسط هذا الرجل المشكوك في أمره الذي قد يكون طياراً اسرائيلياً مسقطاً ، وقد يكون مصرياً ماكراً . انني

لست على قدر من البلاهة يدعني أهبط مباشرة إلى فخ فأمكنهم من نتف ريشي .

اين هي النفاثات الآن ؟ فكر الطيار وهو يرفع رأسه إلى الفضاء. اين هم الآن بينما أنا في أشد الحاجة إلى حمايتهم ؟

إن صمت المواقع يثير الريبة . كذلك صمت رجلي الاستطلاع . ان الامر كله يبعث على الحيرة . علني لم أفاجئهم على الاطلاق . ربما كانوا ينتظرونني . ربما كان الأمر كله مدبراً . كلا إنهم لن يصيدونني في مثل هذا الفخ المحزن .

هكذا اتخذ الطيار قراره وهو يدور دورة أخرى في الفضاء . لم يكف الرجل عن التلويح . كان يجلس على مسافة كبيرة من الفجوة ولم تكن هناك أدنى حركة من حوله . فخ نموذجي . فخ ليس بفخ . إذا كان لا يخدع على هذا النحو .

سأغطس فوقه وإذا لم أعرفه فلن أهبط . هكذا اتخذ الطيار قراره .

لماذا لا يقف على رجليه . ؟ إذا كان قد استطاع أن يجر نفسه هذه المسافة الطويلة فهو قادر على أن يقف على الأقل وان يلوح لي وهو واقف .

هل يخشى أن ينكشف إذا وقف ؟ انه ينكشف إذا وقف . انني لا أحب المنطقة التي يختبىء فيها . إن جوانب الجبل مليئة بالمغارات ويمكن أن تكون كل منها مليئة بالمغارات ويمكن أن تكون كل منها مليئة بالمصريين الذين ينظرون إلي الآن وينتظرون.

– « افتح عينيك على رجلي الاستطلاع وعلى المواقع . » .. قال الطيار للكشاف وهو يستعد للهبوط . في الغطسة الأولى لم يعرفه . حلقت البيبر على ارتفاع ثلاثين قدماً إلى جانبه . لوح الرجل في استماتة غير ان الطيار لم يعرفه .

ارتفع ثم غطس ثانية .. غطسة أقل سرعة . نظر اليه الرجل لكن الطيار لم يعرفه هذه المرة كذلك ، فارتفع ماراً فوقه صدرت عن يدي الرجل حركة نفاد صبر وألقى قطعة القماش بطريقة تكشف عن شدة يأسه .

كان صمت المواقع يبدد اطمئنان الطيار . وعلى مر الوقت كانت الشمس تغوص أكثر، تلامس الأفق . اختفى الضوء الآن مستسلماً لغبار كثيف منسكب من السماء . عليهم

صامتون لأن الرفاق دفوهم دفاً عنيفاً فما زالوا مشغولين باصاباتهم ؟

سواء كان الأمر هكذا أم لم يكن فانني سأعمد إلى الطيران بجانبي فأجعل من العسير عليهم أن يصيبوني إن حاولوا . في المرة الثالثة هبط بأقل سرعة ممكنة وانزلق على ارتفاع عشرة أقدام من فوق الرجل فعرفه . فتح النافذة في انفعال وزعق باسمه . لوح الرجل بيديه في جذل .

ــ « سأهبط فوراً . » زعق الطيار بملء حنجرته كي يتغلب على جلبة المحرك . تفحصت عيناه في قلق بنية الأرض المحيطة . كان المنحدر وعراً بطريقة تحول دون الهبوط فوقه . ارتفع الطيار وحاذر الاقتراب من ضلع الجبل . بدا له الشريط السائر في اتجاه البحر مناسباً للهبوط .

كنت سأهبط هناك لو انه كان يستطيع الجري إلينا .. تفكر الطيار في سرعة . ولكنه يبدو جريحاً . وإلى أن نجره إلى الداخل يمكن أن تصل عربة جنود من المواقع أو أن يفيق رجلا الاستطلاع من الصدمة وان يقوما بعمل غير لطيف .

عندما قام بدورة أخرى انجذبت عيناه إلى منحدر معتدل على مقربة من المكان . ولكنه عندما انخفض ليفحصه وجده مغطى بأحجار أصغرها في حجم الرأس يمكن لأي منها أن يفجر أحد الاطارات . ما عاد في مقدوره أن يتفحص أكثر من ذلك . علي أن أقرر الآن أو كلا إلى الأبد . امتدت يده آلياً إلى جيبه . تحسست أصابعه قطعة العملة وهي تحس جيداً ببروزات الكتابة عليها . « إما الحياة وإما الموت . » .. راح يتمتم في صوت خفيض ثم عض على شفتيه وبدأ يهبط .

زاد الطيار من سرعة المحرك عندما رأى مسطح الارض يقترب بسرعة وشاهد الأحجار المدببة . كانت لحظة الترقب الأخيرة أقصر من المعتاد . أوقف المحرك وانتصب وهو يشعر بالارتطام والتقاء العجلات بالأرض . اهتزت الطائرة اهتزازات عنيفة . راح يوجه الطائرة في مناورة لتفادي قطع الأحجار في أعلى المنحدر . كبح ميل المنحدر اندفاع الطائرة وعندما توقفت نهائياً وقفت مائلة بينما مقدمتها متجهة إلى أعلى ناحية الجبال .

فتح الطيار الباب .

ــ « أجر .. أحضره .. » قال للكشاف .

قبل ان ينهي كلماته كان الكشاف قد قفز من الطائرة وراح يعدو بكل قوته وثباً بين الصخور . كان الطيار يتنفس في صعوبة . كان ما يزال يشعر باهتزاز الطائرة . شعر بالألم في شفتيه وأحس بمذاق الدم في فمه . يصق ناحية المواقـــع ولم يشاهد أي غبار متصاعد أو أي علامة تدل على حركة من ناحيتهم . كان رجلا الاستطلاع يجلسان حيثما هما دونما حركة . وجه مقدمة الطائرة ناحية المهبط معداً الطائرة لاقلاع سريـع .

ظل الطيار في مقعده يزيل بيده عرق جبهته . أحس بشوق شديد لاشعال سيجارة ولكنه كبح نفسه الآن . وصل الكشاف الآن إلى الطيار الجريح وانحنى عليه . ظل الاثنان في هذا الوضع لحظة طويلة .

يا للشيطان .. ماذا يفعلان هناك ؟ فكر الطيار . هلما ! لا تضيعا الآن وقتاً . انحنى الكشاف على الطيار الجريح وحاول ان يحمله على كتفيه لكنه ركع بعد خطوتين . هذا ما ينقصنا .. تمتم الطيار . لوح اليه الكشاف أن يجيء . هل جننت ! فكر الطيار . هل يتوقع حقيقة ان أدع الطائرة وأذهب إليه ؟ ستكون كوميديا لو قفز مصري من خلف صخرة وسرق الطائرة أو وجه قذيفة إلى اطار مطاط .ظل الكشاف يلوح له بينما الزمن يهرب ويهرب . قفز الطيار من الطائرة الصغيرة .

وكما يحدث في أفـلام هوليود .. لم يكن يستطيع نفسه الا بتسام .. كـان يجري شاهراً مسدسه . كان عليه ان يقطع مسافة مائـــتي متر مليئة بالأحجار البيضاء التي جرفتها الصخور من الجبال .

ومن بعيد كان البحر يبدو في لون أزرق وكان في مقدور الطيار ان يميز علم السلاح البحري المصري الذي يرفرف على سارية الفرقاطة وهو يعدو بين الصخور . لو كان لدى هؤلاء المصريين قسط من الفطنة لما اضاعوا مثل هـــذه اللحظة المواتية . ربما كانوا لا يضيعونها الآن . ربما كانوا منحنين خلف الصخور مستمتعين بالعرض .. بالفخ الذي خبأوه لنا ؟

لقد دخلنا مباشرة إلى فم الأسد وقد اهملت طائرتي الآن .. الشيء الوحيد الذي كان يمكن ان يخلصنا من هنا .. يا الهي !

— ماذا هناك ؟ قال الطيار عند وصوله إليهما وهو يلهث .

ـ احمله معي .. قال الكشاف .. انه غاية في الثقل .

وضع الطيار المسدس في جرابه ووضع احدى يدي الطيار الجريح على كتفه بينما وضع الكشاف اليد الأخرى على احدى كتفيه . تأوه الجريح وتلوى وجهه من الألم . كان وجهه مغبراً ومغطى بالجروح.

ـ لماذا درت كل هذه الدورات من فوقي ؟ قال الجريح .

ـ لم اعرفك .

ـ كنت ألوح لك من ساعة . كيف لم تحس بي ؟

ـ لم أكن هنا منذ ساعة .

ـ من كان ذلك ؟

ـ شخص آخر .

تقدموا ثلاثتهم في بطء . كان الجريح يثب بينهما على ساق واحدة. انكسرت الأخرى عند ارتطامه بالأرض . بدا متوتراً وعصبياً من الشمس ومن المصريين . « لقد أصابوني بقذيفة في بطن الطائرة فقذفت كرسي الانقاذ . » قال .. « سحبتني الريح اليهم . ظننت انني سأسقط مباشرة بين أيديهم . » تعثر في إحدى الصخور ولولا أن أمسكا به لسقط . أبطأوا من سيرهم . كانت العتمة تزداد تدريجياً وكانت ريح خفيفة تهب من البحر .

نظر الطيار إلى البيبر متوقعاً أن يراها ترتفع إلى السماء في أي لحظة كما كان يتوقع أن يثب تجاههم رجل من بين الصخور . في مقدوره الآن ان يسمع هدير الأمواج فيتذكر انه في مجال رؤية الفرقاطة وفي مدى مدافعها .

أرجو أن لا يكونوا قد لاحظونا .

ـ مر اثنان منهما إلى جانب . قال الطيار الجريح.

ـ رأيناهما .. قال الطيار .

ـ لقد مرا على بعد ثلاثة أمتار مني .. لقد كان في مقدورهما ان يشموني حتى لو كانوا عمياناً .

كان يتنفس في صعوبة وبدا أن الكلام يؤذيه .راحوا يتقدمون في صمت وهم يصغون لقرقعة خطاهم . كان جسم الطائرة بارزاً في وضوح على خط المنحدر . بصق الطيار تجاه الصخور وهو يعض على شفتيه .

انني لا أدري كيف فعلت هذا . راح يفكر . لا بد أن تكون ثعباناً ابن ثعبان كي تمر بينهما دون ان تصاب . كان ما زال يتوقع رصاصات تنطلق إلى ظهره وهو يساعد الجريح على الدخول إلى البيبر . لم يشعر بالأمان إلا بعد أن صعد إلى الطائرة وجلس ثانية على مقعده . رقد الطيار الجريح على النقالة وجلس الكشاف على حافتها . كانا مضغوطين ولم ينقفل الباب . جذبه الطيار بقوة ولكنه لم ينقفل إن محاولة الارتفاع والباب مفتوح تعني نصف انتحار حتى وان لم تفكر في الصخور وفي زيادة الوزن بالطائرة عما هو مقرر لها في أوامر السلاح الجوي .

ـ انتبه وابتعد من هنا . صرخ الجريح في نفاد صبر .

ولم تغير جذبة أخرى من الموقف . فقد ظل الباب مفتوحاً . لقد مر كل شيء بصورة اكثر من ملساء حتى الآن.فكر الطيار وهو يقرض من أسنانه . بصورة أكثر من ملساء . كانت زاوية المنحدر تخفي عن عينيه رجلي الاستطلاع المصريين والمواقع . في نفس اللحظة وقعت عينه على جهاز يمنع الكشاف من الانكباس إلى الداخل . وجاءه القرار .

ـ اقذف هذا خارجاً . زعق على الكشاف

نظر اليه الكشاف في زيغ .

ـ نفذ . صرخ الطيار .. الق الجهاز إلى الخارج .

فاجأته صرخته فأحس بالندم . بلع ريقه وعض شفتيه وشعر بالدم في وجهه ثانية . ولكن كان لصرخته تأثير على الكشاف الذي تكور بالداخل .

وانقفل الباب . فتح الفرملة في صمت . الآن حان وقت الصلاة . قال لنفسه . اننا احوج ما نكون لرحمات السماء الآن . إن التحليق من على منحدر دون ان تنقلب الطائرة أمر أقرب إلى المعجزة منه إلى البراعة .

بدأ يجري على المنحدر لكنه لم تكن هناك ريح تساعده . ارتفعت الطائرة ثم ارتطمت

بالأرض ثم ارتفعت ثم ارتطمت . ظل يجري ويجري دافعاً عجلة القيادة إلى أقصى الأمام وبكل طاقة المحرك . وبدا له انه يقطع كل شبه الجزيرة دون أن ترتفع المكنسة .

اقترب من الرمال فاكتسبت الطائرة سرعة ولكن العجلات ظلت على الأرض . وبدا محققاً ان هذه ستكون النهاية .. ان الرمال تبدو رخوة .. قال لنفسه .. ولو غصنا فيها .. فالسلام على اسرائيل .. ولكن في الأمتار الأخيرة جاءت الجذبة الصحيحة لعجلة القيادة .. جذبة رقيقة .. فارتفعت المكنسة العجوز .

شاهد من أعلى رجلي الاستطلاع المصريين . كانا راقدين في نفس المكان وعلى نفس الوضع طيلة الدقائق العشر الطويلة هذه دون ان ينقضوا الاتفاق الجنتلمان . مرت البيبر فوقهما في اتجاه البحر . لاحظ الآن وقد عاد تنفسه طبيعياً ان جسده مغطى بالعرق البارد . كانت اصابعه ترتعد كأصابع السكير . قدم للجريح حزام غذائه فأخرج منه الجريح علبة الماء وراح يعبه في نهم

ـ هل تريد أن ترى شيئاً ؟ قال الطيار .. انظر إلى أسفل .

رفع الطيار الجريح نفسه على مرفقيه ونظر من النافذة . كانوا يمرون فوق البقعة المظلمة .. الفجوة التي أحدثتها المستير المحطمة .

نظر الجريح للحظة طويلة ثم عاد ليتمدد على النقالة دون ان ينطق بكلمه . طاروا تجاه الشمال على امتداد الساحل . نظر الطيار في ساعة الوقود . ما زال لديه وقود يوصله إلى ايلات . كانت السماء قد فقدت لمعانها وبرزت فيها النجوم . كان البحر قد اظلم ومعه الصحراء . ولم يكن القمر ساطعاً . كان زبد الامواج التي تضرب الساحل يظهر على ضوء النجوم . طالما بقي ملتزما بخط الساحل فإنه لن يضل . بعيداً فوق البحر كانت تمر بضع سحابات بيضاء مستطيلة تنشر ضياء ساحراً في الأفق فحملت الرب ثانية إلى تفكيره . في وسط الطريق استطاع ان يحقق اتصالاً مع ايلات فأبلغها انه يحمل أحد الطيارين المفقودين .

ـ انه جريح .. اضاف .. ليس بصورة مقلقة .

ـ أو كي . نحن نعد سيارة اسعاف .

ـ أين الممر ؟
ـ أو كي . سنضيئه عندما نسمعك وبعد أن تضيء أنوارك .
ـ لقد نام .. قال الكشاف بعد ان انتهى الاتصال .
ـ دعه ينام .. قال .. سنوقظه عن وصولنا .

كان هذا هو اليوم الخامس من أيام القتال . راح يسائل نفسه .. أين اللواء الآن . كانت يده رطبة وملتصقة بعجلة القيادة . كانت القمرة مظلمة ولم يكن من ضوء سوى ضوء المصباح الأحمر الذي ينير لوحة الأجهزة . وجه الطيار نظرة جانبية إلى الكشاف الذي كان ينظر اليه بعين الاحساس المضاعف بالفراغ المحيط والفضاء الكبير والظلام الذي تتحرك فيه .. جعل الطيار يفكر .

كان يتقدم باستمرار على امتداد الساحل ولم يهتم بأن يتأكد على الخريطة من مكانه . كان يفكر في نيره .. آملاً أن يعطوه اجازة ليلية . سأعدو لأتلفن لها حتى قبل ان استحم . هنا أغلق عينيه وتذكر الطريقة الخاصة التي كانت تتدثر بجسده بها . كنت محظوظاً اليوم . راح يفكر . محظوظ أكثر من أي وقت .

لاحت أنوار من بعيد فعرف أنها أنوار العقبة . كانت ايلات مظلمة .
ـ « ايقظه الآن » .. قال للكشاف .

على مسافة قصيرة من المطار أضاء أنواره وبعد دقيقة أضيئت الأنوار على ممر الهبوط . بدأ في الهبوط دون أن يقوم بدورة فوق الممر .

عندما لمس الأرض لاحظ عربة الاسعاف تنتظر في طرف الممر .
ما زال جالساً في مقعده وهم يخرجون الجريح ويحملونه إلى العربة توقف المحرك ولكن جلبته ما زالت تطن في اذنيه . لقد كانت تلك رحلة طويلة .

أطول رحلة طيران قام بها في حياته . ترك عجلة القيادة واتكأ إلى الخلف .

في الخارج كان هناك جو من الانفعال البالغ . فقد التف ميكانيكيون وطيارون ومحبو استطلاع حول البيبر . لم يكن يسمعهم . اغمض عينيه وترك نفسه للارهاق . مرت أمام عينيه مشاهد من الصحراء .

مضايق وسهول صفراء وجبال جدباء . بعد ذلك اختفت مشاهد الصحراء ولكنها لم

تذب . ورأى سماء واسعة وسحابات بيضاء يصدر عنها ضياء ساحل . جلس لحظة طويلة ساكناً متعجباً . وبعدها اختفت جلبة المحرك من اذنيه وفتح الطيار عينيه .

استقبلته احضان حارة ورتبات على الكتف وهو ينزل إلى الممر .

– هل لدى أحدكم سيجارة ؟ – سأل .

من كل جانب مدت اليه علب مفتوحة . سحب سيجارة من احداهـــا ، اشعلها له أحدهم . جذب الطيار نفساً طويلا ثم أطلق الدخان من رئتيه ثم ألقى السيجارة وداسها بقدمه . وما زال كل هذا غير حقيقي .. ذلك انه لم يبدأ في الاحساس بصلابة الأرض تحت قدميه إلا بعد الخطوة العاشرة ..

فهرس

ص.

الدراسة

أ ـ مغزى دراسة الظاهرة الأدبية الصهيونية ٧

ب ـ حول طبيعة الظاهرة الأدبية في الكيان الصهيوني والشروط المنهجية اللازمة لبحثها ١٣

ج ـ الأديب الصهيوني بين البراءة الزائفة والأحزان الموضعية ٢٠

فصل تطبيقي ٣٤

قسم النصوص

١ ــ اشعار الأحزان الموضعية ٤١

٢ ــ اشعار البراءة الزائفة ٦٩

٣ ــ مقولتنا الأرض التاريخية ومعاداة السامية في الرواية القصيرة ٨٩

٤ ــ مقولة معاداة السامية في القصة القصيرة ١٢٧

٥ ــ الأحزان الموضعية في القصة القصيرة ١٦٥

٦ ــ قصص المعارك ٢٠٥

من منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر

ـ الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين	د . عبد الرحمن الكيالي
ـ كمال ناصر مناضلاً وشاعراً	محمد حمادة
ـ يوميات الحزن العادي	محمود درويش
ـ محمود درويش شاعر الأرض المحتلة	رجاء النقاش
ـ أشواق إلى الابتسام	ابراهيم أبو ناب
ـ عز الدين القسام	عاصم الجندي
ـ الوجه الآخر	سلوى البنا
ـ اليهودية والصهيونية واسرائيل	د . عبد الوهاب المسيري



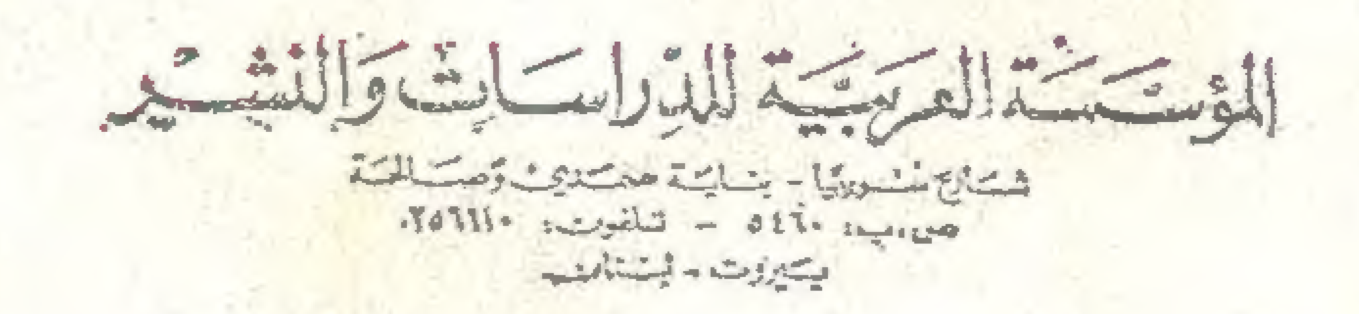
هذا الكتاب

« لقد بدا الاهتمام العربي بدراسة الأدب في الواقع الاسرائيلي المعادي في وقت متأخر وربما كان ما ايقظ هذا الاهتمام هو حجم الهزيمة العسكرية التي وقعت بالعرب عام ١٩٦٧ ..

ونتيجة لهذا الاهتمام الشخصي المحدود تولد اهتمام عام في اوساط الثقافة العربية بتتبع الظاهرة الأدبية في اسرائيل وتمخضت عن هذا الاهتمام بعض الدراسات المحدودة اعتمد بعضها على نصوص شعرية ونصوص من القصة القصيرة المكتوبة بالعبرية . واعتمد بعضها الآخر على نصوص روائية مكتوبة بالانجليزية ..

غير ان حصيلة هذه الجهود المتناثرة ما زالت دون المستوى الواجب من الاهتمام .. خاصة وان معظم مراكز البحث العلمي المختصة بدراسة اسرائيل في العالم العربي .. توجه جهودها الرئيسية نحو دراسة الأوضاع اليومية الجارية في الحياة الاسرائيلية استنادا الى المصادر السياسية والاجتماعية المباشرة .. في الوقت الذي تعاني فيها اقسام الدراسات العبرية في الجامعات العربية من فقر شديد في مصادر البحث الضرورية ... » .





شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠ - تلفون: ٢٥٦٦١٠
بيروت - لبنان